

بسام شمس الدين

نبوءة الشيوخ

رواية

في مطلع حياتهم لبسوا الخرق المهلهلة، وغرقوا وسط الأمراض الغريبة، وتآلفوا مع الكُتَن والبِق والبراغيث، وكانوا يستنجدون بالموتى، ويبخرون القبور، ويؤمنون بالله والعرافين والأولياء الصالحين والأرواح الشريرة، ويخضعون تحت أقدام المُلَّاك وجباة الزكاة وجنود الدولة، وعند الضرورة يقطعون أميالاً سيراً على الأقدام باحثين عن المعالجين والمشعوذين للاستشفاء، بعد أن استنفدوا أموالهم وإيمانهم لدى الفقهاء والمقرئين والدرأويش. وكانوا يرون أن التمايز والمراتب الاجتماعية أمرٌ طبيعي، وأن الحياة ستكون مملة إن لم تكن مضمّنة مرهقة. لهذا السبب أرادوا ألا تتغير حياتهم بعد أن أفلتوا من الأمراض القاتلة التي أصابتهم في طفولتهم.

في تلك الأيام الخوالي، كان الجوع - رفيقهم المخلص وعدوهم القاتل- يلازمهم ليلاً ونهاراً، فكانوا أنحل من قصب الذرة التي يزرعونها في الحقول، وقد مرت عليهم سنوات أكلوا فيها جذور بعض النباتات، واصطادوا الزواحف والجنادب والجراد، وطهوها على النار، وأكلوها بنهم بعد أن ذروا عليها بعض الملح والفلفل. ويقول الشيوخ إنهم كانوا سعداء بذلك الزمن، وسر سعادتهم هو أنهم مازالوا أحياء، وأن المقابر التي استدعتهم مراراً أخذت غيرهم بما في ذلك أعز أقاربهم. ورغم ذلك لم تكن أسماهم تفتقر إلى الحواديت والحكايات والأمثال والتسالي، ولم تخل أيامهم من الرقص

والمرح والكثير من المواقف الشجاعة والعدالة. كانت حياتهم بمجملها خلطة عجيبية من المتناقضات، فهناك طبقات مختلفة، ملاك أرض وأجراء، وسادة وخدامون، ورجال قبائل ومزايينة^١ وحرفيون حقراء، وأكثرية فقراء، وأقلية أغنياء، ومسلمون ويهود. وكل فرد - مهما كان وضيعاً - يكون راضٍ عن أصله وفصله ومهنته، لا أحد يتجاوز حدوده، أو يحتقر مهنته أو نسبه، فالمزِين يقول بتسليم: أنا شخص "قليل أصل"^٢ أعيش بفضل رؤوس أبناء الأسر الكريمة، وسأتزوج من طبقتي.

مالكو الأرض يسيرون راكبين بغالهم أو حميرهم، يحف حولهم الأجراء القرويون منكمشين خائفين أن يسوء مزاج هؤلاء الملاك أو يعكر صفوهم شيء ما. وعند تقييم الغلة يذبحون أسمن دجاجاتهم العزيزة ويقيمون وليمة على شرف قدومهم، وهكذا كانوا يعيشون برضا تام، ويظنون أنهم سعداء بهذا الحال ولا ينقصهم شيء. بيد أن الزمن فاجأهم بقدم أول شاحنة إلى سوق المدينة، وظهر رجل قروي يصرخ بذعر، وهي خلفه تسير متهادية على كثيب متجدد ساحبة خلفها ذبلاً ضخماً من الغبار، فأبعد القرويون دوابهم من طريقها واختبئوا خلف الحوانيت، وراحوا يراقبونها حتى توقفت في باحة قريبة من جناح الحبوب، ولما سكن صوتها المتعطرس، شرع المتسوقون بالظهور تباعاً، واقتربوا من

^١ المزايينة هم فئات يزاولون بعض الأعمال المحترقة كالحلاقة والجزاراة وزراعة الفجل والكرات وغيرها.
^٢ ناقص ذو أصول حقيرة.

الرجل الجاثم خلف مقودها، ولامسوها بأصابعهم المتوجسة، وأحسوا بخشونة هيكلها الصديء، ونظروا إلى بعضهم وانفجروا ضاحكين على أنفسهم، حتى أن هناك من تجرأ وجلس على المقعد قرب السائق، وآخرون جازفوا وصعدوا إلى صندوقها الخلفي صارخين بحماس.

وأخذوا يمطرون قائد الشاحنة بالأسئلة، وتعجبوا من قدرة ذلك الرجل الهزيل على قيادة تلك الكتلة الضخمة من الحديد، كان الرجل يمتد عنقه متباهياً بنفسه ويجيب عليهم هازئاً من جهلهم بأن الأمر بسيط للغاية، بل أسهل من تحريك الماء الدافئ بالأصابع. وقال رداً على سؤال عارض عن الأخبار التي يحملها في جعبته:

- هناك بعضٌ منها، ولعل الأهم الذي قد تريدون معرفته هو أن الملكيين يحشدون رجال القبائل للانقضاض على صنعاء.

وأضاف نافخاً الهواء بضيق:

- والمصريون قادمون بجيشهم لموازرة الجمهوريين.

بدا الجهل بادياً في وجوههم واللامبالاة، وعادوا إلى مناطقهم مهتاجين، وجعلوا يتحدثون عن الشاحنة طوال الطريق، ويقولون وداعاً للبالغ والحمير، ويتساءلون عن مصيرها في حال وصلت الشاحنات إلى قراهم.

عاد الأجير مهدي نصاري إلى قريته سحمر، وهو الوحيد الذي زار السوق مشياً على قدميه. ولم يشعر بالإجهاد، لأن ما رآه في المدينة شغل تفكيره وأفقدته ألمه وتعبه. كان يحمل

صرة كبيرة من المؤن أوصى بها مالك أرضه المراغة، تبغ
وقنينة كيروسين وسُكّر ورطلين من اللحم، وتلك أشياء
باهظة الثمن تتم عن الترف، والأجراء لا يبتاعونها، وقد
سمح لنفسه أن يمتص فصاً صغيراً من السكّر تنازل عنه
البائع بعد أن وعده أن يبتاع منه في المرة المقبلة. ووجد لدى
الباعة بعض البضائع الغريبة التي هطلت بعد سيطرة من
يسمّون أنفسهم بالثوار الجمهوريين على مقاليد الحكم، ورغم
بخل المالك المراغة فقد استطاع بعد مساومة طويلة أن يوفّر
عدداً من القطع النقدية القديمة التي مازالت متداولة ويظهر
على وجهها الختم الملكي غائراً بالياً. ولم يجرؤ أن يقترب
من البضائع الجديدة لأنها مجهولة وغالية، بيد أن أحد الباعة
أغراه بابتياح دسنة صغيرة من علب الثقاب الجديدة، وأوضح
له كيف يستعملها، لكن مهدي تعلل أنه لا يملك زيتاً للسراج،
فأقرضه البائع قارورة كيروسين أخذها على مضض ومضى
في طريقه مغموماً كمن اقترب ذنباً جسيماً، وسرى في جسده
خوف جرار، وهو يفكر أنه فيما لو عرف مالك الأرض بما
ابتاعه لنفسه، سيتهمه لا محالة بالسرقة أو الخيانة.

أخرج مهدي نصاري الدسنة والقارورة، وانتحى جانباً في
طرف السوق، وأوشك أن يرميها في العراء، غير أن ضجيج
الشاحنة لفت انتباهه، ورآها مقبلة باتجاهه وكأنها منزل
متحرك أو كائن أسطوري، وكان هو الرجل الذي هرول
صارخاً في السوق، مثيراً دعر المتسوقين، ولكن كل شيء
اتضح بعد قليل من الوقت، وكل ما جرى أنساه أمر دسنة

الثقاب وقارورة الكيروسين. وراح يفكر كيف يسرد للأهالي خبر تلك الآلة الرمادية المتحركة، لن يصدّقوا شيئاً من كلامه. ولن يلومهم على ذلك ما لم يروا بأنفسهم ما رآه.

في منزله أخفى غنيمته قبل أن تلتفت امرأته إليها، ثم اتجه إلى منزل المالك المراغة وسلم المون لأصحابها ثم مضى دون أن ينتظر منهم كلمة شكر، لأن خدمة ملاك الأرض يُعدّ واجباً ملزماً ومأثرة تستدعي الحسد، ولا ينوء بها سوى الأجير الذي يثق به المالك. وأي شرف أكبر من هذا؟

أثار مهدي نصاري غضب الأهالي على نفسه حين أفشى خبر الشاحنة، ونعتوه بالكاذب رغم أنهم لا يجهلون أن ثمة شاحنة وحيدة كان يملكها الإمام الراحل الذي أطلق عليه الثوار النار بدم بارد. ولا يعقل أن تظهر هذه المركبة في سوق يريم. ولأن مهدي نصاري كان يتكلم بحرارة واستماتة مؤكداً ما رآته عيناه، علاوة على أنه يحظى بثقة مالك أرضه المراغة، فقد بذر قوله الشك والفضول في نفوس المراهقين الطائشين في القرية، وقد قرر بعض الفتيان الفرار إلى المدينة لرؤية تلك الآلة العجيبة، وأحدهم هو زيد ابن وجيه القرية قحطان الذرب، غير أن الآباء اكتشفوا الأمر، فعاقبوهم وحبسوهم في المنازل. وأجبر وجيه القرية وملاك الأرض الأجير مهدي نصاري أن ينفي ما رواه. وترك اعترافه الأخير أثراً أليماً في نفسه. وحمل لجيرانه فكرة سيئة عن نزاهته، وصارت امرأته حتى آخر عمرها تتهمه بالمبالغة والتهويل، ولكن بعد أسابيع قليلة شاهد متسوقون

آخرون شاحنتين في المدينة، وتفشى الخبر همساً بين الأهالي، وبعد أيام أتت جثة الضابط الوحيد في القرية حميد حيدري مسجاة بالعلم الجمهوري، ووري الثرى وسط طقوس جنائزية مؤثرة، وتوجس القرويون أن ثمة أشياء بشعة في انتظارهم.

-2-

سطوح المنازل العتيق مسقوفةً بأعواد متراسة بعشوائية مفرطة، ومغطاة بطبقة من الطين الجاف، و مدعمة بعدد من الأخشاب الضخمة الموزعة بترتيب محكم على سقوف الطابق الأرضي، وهي متينة من صنف مجهول من الأشجار، وقوية بما يكفي لتحمل طوابق إضافية، وقد توقف السوس عند قشرتها الخارجية واكتفى بها. ورغم هذه المزايا فقد تكثف ماء المطر على سطح دار الأجير مهدي نصاري، وتسفل رويداً إلى الداخل عبر طبقة قديمة من الطين الهش. كان الزوجان مستغرقين في النوم، وسط غرفة معتمة موصدة النوافذ، ويبدو أن سمعهما صار ضعيفاً بحيث لم تصل إليهما أصوات الرعود القاصفة، كما إن للنائم حفته لاسيما إن كان ذلك الشخص فلاحاً كسولاً عقيماً فاتر الهمة، أو امرأة كادحة منهكة الجسد والروح، ناهيكم أنهما تجاوزا سن الرشد بقليل من السنوات.

ومع ذلك أفاق الزوج أولاً عندما وقعت أولى القطرات على
جبهته السمرء، وتتالت أخريات سالت على وجهه المخدد،
وجلده المليء بالوشوم الطبيعية التي نقشها الزمن على
أطرافه المكدودة، فأيقظ امرأته بصوت حاد، غير مكترث بما
سينتابها من فزع.

- عاتقة..المطر يهطل، ستتكاثر الكُتَن^٣ والبراغيث بفعل
الرطوبة.

استيقظت الزوجة مذعورة ولمست الببال، فانتصبت مثل
حيوان دوهم على غرة، إذ توقعت من صوته الصارخ أن
تجده طافياً فوق الماء، وحين سمعت أصوات القطرات
المتساقطة من السقف ردت بنزق:

- اخفض صوتك يا مهووس، إنها مجرد قطرات، أنت
تزعجني أكثر من الحشرات.

تلمّست طريقها باتجاه فانوس الكيروسين، فعاتقة قد أمست
بعد زمن من العيش هنا في الدار تسير في الظلام واضعة
خطواتها في الأماكن الصحيحة. ليس ثمة طفلٌ تخشى أن
تدوسه، فهما يعيشان وحيدين متغاضيين عن أمر الأولاد،
مقتنعين بالنصيب إلى حد الضجر.

انتهت إلى كوة مربعة تقوم مقام الرف بالزاوية، وعثرت
على الفانوس، فأمسكت علبة الثقاب بارتباك، وأخفقت في
إشعال خمسة أعواد، وفي هذا الظرف الحرج لم تشأ أن

^٣الكُتَن: حشرات ملساء منتفخة البطون تمتص الدماء وتشبه القراد.

تجازف بإفساد بقية الأعواد. وسمعت صوته اللاذع: "أشعلي
الфанوس، هل أمسكت بك الشياطين؟".

ردت عليه بغیظ: "لك شيطان يخطفك، تعال أنت لتشعلها".
صاح زوجها بنفاد صبر: "أطرافي مبللة. هيا أسرعي.
الفراش يغرق".

مسحت كفها بأطراف ثوبها، وأخرجت عوداً وفركته على
العلبة بقوة وهي تصيح بغضب: "كف عن الضجيج.. أنت
تربكني بصراخك".

اشتعل العود أخيراً، وسرعان ما أضاء الفانوس مطلقاً ذيلًا
رمادياً من الدخان اعتادا على ننته الذي يكتم الأنفاس،
وأضاء وجهها فرحاً، فجلبت بعض القدور ووضعها تحت
الخيوط النازلة من السقف، وصوت الرجل المتكدر يردد:
"الدار يغرق".

تجاهلت صراخه المغیظ، مدركة أن الوقت ليس مناسباً
للشجار، وذهبت تتفقد الغرف الأخرى وهي تتفكر في أمره،
إنه في مثل هذه الظروف الخائفة يكتفي بالجلوس في موضعه
صارخاً، دون أن يقدم شيئاً نافعاً، كل ما يجيد فعله هو تهويل
الأمور. ومن الغريب أنه لم يفكر في الزواج مرة ثانية مثل
غيره من الرجال.

كان دائم التحدّث عن جوهرة أرملة الضابط حميد حيدري،
فمنذ أن قتل زوجها الملقب "شهيد الثورة البطل" قبل عام
صار يمر كل صباح على منزلها لكي يواسيها كما يزعم،

ويظل مترنحاً عند الباب كالمتسول، حتى تجلب له القهوة، فيشرب بأناءٍ مطيلاً أمد جلوسه، ثم يدعي مازحاً أنه يرغب في الزواج من أرملة ولود خصبة كأطيب الحقول، والأرملة تجيب ضاحكة أن مهرها غالٍ جداً، ويتحتم على خاطبها أن يقدم لها كنز "المكراب" مهراً. تتكلم بصوت رافع، ولا تخشى أن يسمعها الجيران، وتقول لمن يعاتبنها من النساء إنه مجرد مزاح فارغ مع أجير فقير لا يتسم بالخبث، والأهالي هنا رغم فضولهم لا يكثرثون بشيءٍ لا يمسهم بسوء، ولكنهم ليسوا على مستوى واحد من الطيبة والنبل، فهناك نمامون يثيرون الشكوك وينشرون الأخبار كما ينشر الذباب العدوى، ويغيظون الفتى "بربر" قائلين إن هناك رجل يتقرب من أمه، ويسعى إلى خطفها منه، فيترك الفتى الراعي أغنامه سائمة في المرعى، ويهرع إلى المنزل، ويتحرك في أرجائه صارخاً بعصبية حتى يدرك مهدي السبب، فيضحك ويرحل. لطالما سمعت عاتقة بما يجري قرب منزل الأرملة، لكنها لا تكثرث، وتقول لنفسها بيقين: "ليفعل ما يشاء، لكن قبل أن يجلب امرأة أخرى إلى الدار ينبغي أن يندرنى لأغادر قبل قدومها بيوم واحد على الأقل".

وهكذا وصلت إلى حل معقول، لن تشغل نفسها بسماع الشائعات، أو تكدر عيشهما من أجل مزاح تافه، أما في هذه الليلة التي أفرعها بصراخه اللئيم، فقد بدت مكشرة الملامح وممتعضة. لم يرق لها أن يصرخ في وجهها، ولا يقوم

بواجبه في منع تسرب المياه إلى الغرف. وما إن فرغت من عملها حتى عادت إليه متجهمة صارخة:

- كم أنذرتك أيها الكسول قبل حلول الصيف، ولكنك منشغل بالثرثرة مع أرملة الضابط الشهيد.

صمت مهدي بخضوع، وأخذ يحكّ ذقنه المدبب موحياً بصدق حجتها، ثم أجاب متذرعاً بنبرات منكسرة:

- ماذا أفعل! لقد أتى هذا الصيف مسرعاً كالقدر العاجل.

- لا شأن لي، عليك أن تغطي السطوح بالتراب كما يفعل رجال القرية.

- نعم، في الغد.. هذا أمرٌ محتوم.

كان يعرف أن مهمته ستكون عسيرة، ولا يظن أنه سيجد تراباً جافاً في أي موضع في القرية، وسيضطر أن يحفر عميقاً وسط الطين. بات بقية ليلته مقرصاً منفعلاً، فالقطرات المتساقطة كان لها وقعٌ مزعج، وعاتقة تشخر بجانبه، والكتن والبراغيث المختبئة وسط اللحف والحصائر تتسلل وتمتص دمانه، وعندما حلّ ضياء الصباح أخذ حماره والمجرفة والمعول وأكياس الخيش الفارغة، وسار جازاً جسده المسهد إلى تل "المكراب" الشاسع، وهو امتدادٌ مستوٍ يطل على القرية كظهر حيوان جامد، يقف عليه صرح واسع مبلّط مرصوف بأحجار مستوية، وتحفّ حوله بقايا أطلال لقصور ومبانٍ قديمة، وتبدو الأحجار الملساء الكبيرة الكابية اللون

مبعثرة وقوية، مسترخية بشكل صلب ومنيع منذ زمن غابر مجهول.

وقد حملت الذاكرة المحلية للناس إرثاً من الأقوال والرؤى الليلية والتكهنات التي تشير إلى وجود كنز ضخم في موضع ما في هذا التل. وكما يتردد في مقولات كبار السن المسجوعة بأن هنالك "ألف أميرة مخضبة، وألف قطعة ماس مكعبة، وألف غزالة وأرنبة، وألف من السيوف المذهّبة، وألف تحفة غريبة محبّبة، وكل هذه اللقى يأتي لها رجل من طريق قعطبة^٤، ويستخرجها، ويجرف الذهب بكوفيته المدبّبة، ولا ينجو إلا رجلاً واحداً لا ينال سوى امرأة مربربة".

تعجّب مهدي من خصوبة خيال من ابتكر هذه الأقوال. اختار منطقة أقل بلاءً من غيرها، وبدأ الحفر فيها، وهو يفكر بزيف هذه المقولة الغابرة. إنها نبوءة أجير فقير أبرحه الجوع والجشع فأطلقها ليتسلى بها الفقراء الذين يأتون من بعده، وما الجدوى من هذا الكنز إن قُدّر على مكشفوه أن يموتوا في النهاية! بينما ينجو شخصٌ ينال امرأة جميلة! وكيف له أن يحصل على امرأة وسط كنز قديم؟

أخذ يميّط القشرة الطينية على أمل أن يبلغ إلى الطبقة الجافة، متمنياً ألا يراه أحد في ذلك الوضع المريب، ثم ضحك على قلقه باستخفاف، ماذا لو رآه جميع الأهالي! أهنالك شك في

^٤مدينة تقع في نهاية الطريق المؤدي إلى الجنوب اليمني.

جمعه بعض التراب بعد ليلة ممطرة! لا تبالغ عاتقة حين تدّعي أنه يهول الأمور.

بعد قليل من الحفر انبثق تراب ناعم، ف ابتهج لمراه، وملاً جميع الأكياس. ونقلها إلى داره، ثم عاد مرة أخرى، وحفر بشكل أفقي. لاحظ أن التراب الناعم يتسرب بين أصابعه ويضيع، فاستعمل المجرفة وفوجئ بانفتاح تجويف يؤدي إلى فراغ معتم، ولم يجرؤ على التوغل فيه أكثر، بل عاد سائراً خلف حماره المثقل بكيس تراب شدّه بإحكام، وقابل عدداً من أهالي القرية وهم في طريقهم إلى المسجد لأداء فريضة الظهر، وسمع الضوضاء المألوفة تنبع من منزل جاره "معوّض". كان الأب عند باب منزله يصرخ على أولاده المشاغبين كالمعتاد، فحثّ خطاه مطأطئاً رأسه، وتمنى ألا يراه، لكنه بادره قائلاً بصوت حاد:

- هيه.. مهدي، انظر إلى حالي...

لم يتوقف، بل توارى خلف باب منزله، قاطعاً على جاره السبيل إلى الثرثرة حول أولاده ومشاكلهم، وماذا يمكن أن يضيف إلى مسمعه وهو يعرف كل شيء عن شيطنتهم وفوضاهم؟ لطالما يشكو ويتحسر وهو يحدثه عن أولاده المزعجين، متمنياً لو كان عقيماً مثله. إنه يزعجه ولا يقدر مشاعره، زد على ذلك أن مهدي لم يكن مستعداً لسماع أي شيء في تلك اللحظة العصبية. لمحتة "عاتقة" ولاحظت شروده وشحوبه، وهذا ليس بالأمر الغريب، لكنها سألته بشكل عابر عما دهاه، فتوقف ليمسح العرق الجاف عن

جبينه، ولم يرد بشيء وكان سؤالها موجّه لشخص آخر، ثم واصل السير حاملاً الكيس الثقيل على كاهله الصلب إلى السطح، أما هي فقد شقت طريقها بلا اكتراث لتتجز عملها في بيت النار.

بعد قليل هبط خلسة، ورآها قرب التتور الطيني تخضب العجين، فأخذ الفانوس وعلبة الثقاب من الكوة، وخرج مسرعاً يقود حماره إلى التل.

وهناك تلفت في كل الاتجاهات، ولم يرَ أحداً في ذلك الوقت من الظهيرة. كان منفعلاً بشدة، فأهدر عدداً من أعواد الثقاب قبل أن يشتعل فتيل الفانوس. توغل بحذر في أعماق التجويف يسبقه ضوء برتقالي متراقص وذيل من دخان كثيف غير مرئي رائحته مميزة لاذعة. استقر في قلب غرفة كبيرة تبدو عالية السقف حيطانها سوداء مكفهرة، وعلى أرضيتها أكداس محروقة غير مميزة ورماد قاتم كثيف.

مدّ كفه بحذر وتناول قطعة متفحمة، وجلا ما علق بها من رماد وسخام أسود، فظهرت عظمة ساق بشرية بيضاء تنتهي بعظام مشط ناتئة. رمى القطعة من يده مجفلاً، وتجمد بموضعه للحظات قلائل، ثم انحنى وتناول كتلة رمادية كروية الشكل ونظفها باحتراس، فتجلّت جمجمة ذات أسنان صغيرة ناتئة لم تنقص منها سن. نحاها جانباً بخوف، وأخذ ينبش الركام بأصابعه الراجفة. برزت هياكل عظمية صغيرة متشابكة بفوضى عارمة، وصنصن شيء صلب تحت قدميه، وعندما رفعه إلى سواء عينيه اكتشف سلسلة حديدية طويلة لا

يعرف نهايتها، وعثر بالصدفة على أقرابٍ وخواتم متفحمة
داكنة.

دار في أرجاء الغرفة والعظام تططق تحت قدميه وتتهشم.
خفت ضوء الفانوس فجأة وأوشك أن ينطفئ. شعر بالاختناق،
وصار يسعل حتى انطفأ الفانوس لفرط ارتجاج جسده
المتكرر. لحسن الحظ كان هنالك بصيص ضوء يأتي من
الخارج، فتمكن من شق طريقه بين العظام، ونفذ عبر
التجويف إلى الخارج. عبَّ أكبر قدر من الهواء متصفحاً
السماء بانبهار، وعندما هدأ روعه وانتظم تنفسه، مدَّ نظره
إلى الجهات الأربع، فلم يرَ أي راعٍ في التل، والتفت إلى
الخلف ليتأكد أن التجويف مازال في موضعه، وأن ما رآه
كان حقيقياً.

فطن إلى أنه مازال يمسك بعض الأقراب المحترقة والخواتم،
فارتخت أنامله وتناثرت القطع الرمادية على الأرض. ثم عاد
والتقطها بحذر، وأخفاها بين ثيابه. وفجأة أطبق الوهن على
جسده، وبالكاد استطاع أن يرفع قدميه. كان حماره مازال
ينتظره بالقرب، وعلى الرغم من أنه بدا غير بعيد عنه، فقد
شعر أنه استغرق مدة طويلة ليصل إليه. انتبه الحمار إلى
اقتراب صاحبه، فتأهب رافعاً أذنيه. وبذل مهدي جهداً جباراً
حتى اعتلاه، ثم هوى نصفه العلوي على ظهره، وغاص في
خدر عميق. قاده الحيوان إلى داره دون أن يصادف أحداً في
طريقه، فالأهالي في ذلك الميقات يلتهمون غداءهم. والكلاب
والقطط تنتظر حصصها قرب الأبواب.

كانت عاتقة واقفة تنتظر زوجها بقلق قرب باب الدار، فقد تأخر عن العودة من التل، بينما الطعام يفترش الأرض ويوشك أن يبرد، وهو لم يتخلف عن وجبة الغداء منذ زمن بعيد. ولما رأت الحمار قادماً والرجل منبطحاً كادت تصرخ، لكنها أمسكت نفسها، واعترضت طريق الحيوان، وعندما رأت عيني زوجها المفتوحتين تتحركان انتابها الأمل، لكن ملامحه كانت شاحبة مصفرة وجسده ينتفض كالمقروور. لم تستطع زحزحته عن ظهر الحمار وكأنه مثبت بمسمار. فارتدت طاقية القش العريضة، وقادت الحيوان خارج القرية إلى حيث يتربع دار الصوفي عطية.

عندما وصلت إلى المسكن الصامت المنفرد كانت تعرف أن الوقت غير مناسب، فقد يكون الصوفي مسترخياً على فراشه بعد أن تناول طعامه، أو مازال على المائدة، لكن المرض يأتي بلا ميعاد مسبق، لذا صاحت على أهل المنزل، فخرج شابان قويان وحملا المريض إلى الداخل، وتبعتهما المرأة بتكلف وهي تدعو لهما بطول العمر، حتى انتهوا جميعاً وسط غرفة معتمة عارية من الأثاث إلا من فرش رقيق قذر إلى جواره لحاف قصير سميك من الشعر الناعم يخص الصوفي عطية، ولا يجرؤ أحد على الجلوس عليه، وسرعان ما ألقى المريض على فراشه بحذر، بينما جثمت المرأة على الأرضية العارية دون أن تتوقف عن الدعاء والابتهال. غادر الشابان، وصارت بمفردها تراقب الباب، وتنقل بصرها بينه

وبين وجه زوجها الشاحب كالميت، وهي لا تشك في أن معجزة ربانية كفيلة بإعادته إلى طبيعته.

بعد قليل دخل الصوفي عطية ممسكاً قميصه المسترسل إلى الأرض، فأسرعت صوبه باحتفاء بالغ، وأخذت تدعو له بطول العمر وجثت عند قدميه، فدفعتها بقسوة، وهو يقول إن الدعاء والاحتفاء والابتسامات حيل قديمة معروفة لإنقاص أجرته أو إلغائها. ثم أصلح عمامته البيضاء الدائرية الشكل، وجلس بموضعه الأثير، وهو ينظر إليها بنفاد صبر، فانتبهت وفكّت عقدة على طرف غطاء رأسها، وأخرجت عملة معدنية وضعتها في راحته متبسمة بخجل، فرماها جانباً وكأنها لا تستحق الاهتمام، والتفت إلى المريض، ثم انحنى وجسّه بمواضع عدة من جسده كما يجسّ الجزار خروفاً يرغب بابتياعه، وأثناء ذلك سردت عاتقة تفاصيل مرضه كما لو كانت تشكو غريماً إلى القاضي، فأوقفها الصوفي عطية فجأة بإشارة حادة من يده، ثم دقّ على الجدار بثقة، وسرعان ما أقبل الشابان يحملان موقداً ملتهباً يبرز منه سيخان حديديان ناحلان مدفونان في الجمر.

فكّ الصوفي عطية سترة المريض القذرة، وكشف عن صدره المشعر القائم البارز العظام. ظهرت على زغب بطنه بقايا رمادية غريبة لشيء محترق، كما لاحظ الصوفي طبقة من الرماد تلطخ منزر الرجل، وشيئاً صلباً مندساً تحت حزامه، فأوغل يده الغليظة، وأخرج قطعاً صغيرة متفحمة تجلّت على

شكل أقراط وخواتم تالفة. التفت إلى المرأة المنكمشة وصاح بصوت حاد:

- ما هذه الأشياء المحروقة؟

ردت بدهشة وهي تحدق فيها:

- لا أدري، لم أرها من قبل.

عاد ليسألها دون أن يخفف من غلظة صوته:

- أين كان مهدي حين داهمه المرض؟

- حسب ما أعلم كان يجلب التراب من تل المكراب.

لمعت عينا الصوفي عطية، وقال بنظرة ملؤها الجشع:

- ماذا؟ في المكراب! أيكون قد عثر على شيء ما هناك؟

قالت متوسلة:

- أرجوك، افعل شيئاً لأجله، إنه بحال سيئ ولم يتناول طعاماً منذ الصباح.

ابتلع الصوفي عطية لعابه المتدفق وقال بصوت ناعم:

- نعم، سأعتني به، وأجعله يفيق الآن.

ثم وخزه بطرف السيخ الملتهب أسفل الترقوة، فانتفض جسد مهدي، وشرع يصيح بألم وكأنه يحلم:

- آخ، نار، عظام كثيرة محروقة. من أحرق أولئك الصغار؟

سألت المرأة بقلق:

- هل أصيب بالجنون؟

- لا أظن ذلك، إنه سليم الحواس، ويعرف سرّاً ما.

قالها الصوفي وهو يبتسم بمكر، ثم صاح طالباً لمريضه طعاماً، وأطعمه بنفسه قطعة كبيرة من الخبز المغمّس بالمرق، وسقاه بعض شوربة الذرة الساخنة، ثم نفض الرماد عن مئزره الرث. ولم تمر لحظات حتى زال شحوب وجه مهدي، وشرع ينظر حوله مذهولاً. ثم قام وجلس دون مساعدة، وسألها أين هو رغم أن المكان ليس غريباً عنه.

طلب الصوفي عطية من عاتقة أن تسمح لهما بالانفراد بعض الوقت، فغادرت المرأة الغرفة باستياء، واتجهت إلى ربة المنزل وهي ترتعد، وبثت لها مخاوفها أن يكون مهدي مصاباً بمس شيطاني، ما يستدعي أن يعقد له الصوفي جلسات طويلة من المفاوضات والمحاكمات لإجبار العفريت على الخروج من جسده، وقد يكتنفها كثير من الإجهاد والعذاب للمريض والشيطان المتلبس له على السواء، لكن "سنبله" أمرتها أن تتوقف عن التشاؤم والظن السيئ، وذلك لأن زوجها ينفرد بالمرضى والمريضات غير الممسوسين، وهذا ليس غريباً أو خطيراً.

تحدثت المرأتان عن مواضيع نسائية متشعبة، حتى نسيتا أمر المريض، وأكلتا طعام الغداء وسط حلقة كبيرة من الأبناء والبنات، وشربتا بعض القهوة في انسجام تام، ثم تنبهتا معاً

أن الوقت قد طال وهو يداويه، أيكون مرضه مستعصياً؟
سألت ربة المنزل نفسها بارتياب، ولم تنظر في عيني
ضيفتها القلقتين حتى لا تثير مخاوفها.

كان الصوفي عطية وراء الباب الموصد مازال يشجع مهدي
ليبوح له بالسِر. في البداية سرد له مقدمة طويلة عن
أشخاص أصيبوا بالأعراض نفسها: صدمة شديدة، ارتخاء
وخدر شديدين، وهلوسة. لا شيء يصعق الأعصاب غير
العثور على شيء باهظ. ثم راح يسأله بلطف عن الموضوع
الذي أخفى فيه الكنز، ووعدته ألا يفشي السِر. وأعاد ما دفعته
عائقة إلى كفه، وطلب عوضاً عنه قليلاً من الذهب لقاء
مداواته وإنقاذه من الموت الحتمي، وفي النهاية توقف عن
الكلام ملصقاً على وجهه هالة من الأمل والتمني، لكن مهدي
نسف طموحه العريض ببضع كلمات واهنة:

- لم أجد شيئاً في التل سوى أكداس من العظام. لا توجع
رأسي بالثرثرة.

- لم تنكر أيها الجاحد؟ لم أطلب الكثير.

"أيعقل هذا؟" كَلَّم الصوفي نفسه بيأس، وقد أربد وجهه
وركبه الغضب، فأطلق لعنات وشتائم غريبة أثارت الخوف
في نفس مريضه، قبل أن يقذفه خارج الغرفة.

دعا الصوفي عائقة بصوت متعطرس، فأنت على عجل.
رمقت زوجها ثم دخلت الغرفة دون أن تبادله كلمة واحدة،

كانت خائفة أن يخبرها المعالج أن المرض مستعصٍ عن العلاج.

كان الصوفي واقفاً بتحفز وسط الغرفة وكأنه عريس متأهب للقاء عروسه، وفوجئ مهدي به يصفق الباب في وجهه بعصبية، ولم يفق من دهشته لبعض الوقت، فاستند على الجدار شارد الذهن، وانتقل الارتياح كذلك إلى سنبلة رغم معرفتها بطقوس زوجها المألوفة، فقد يختلي بامرأة مريضة ساعة من الزمن ويحدث الشيء ذاته عندما ينفرد بالممسوسين من الذكور، لذا بدت أخف قلقاً من مهدي.

مرّ بعض الوقت وهما في الداخل، فلم يطق الزوج صبراً واقتحم خلوتهما مهتاجاً، لكنه لم يجد شيئاً غريباً، ما دفع الصوفي عطية إلى طردهما من منزله في لحظة يأس وغضب، إذ لم يصل معهما إلى شيء مفيد. لا شك أن أسلوبه اللفظ هو السبب، هكذا فُكّر بتأثر، ومكث للحظات قبل أن ينطلق خلفهما راكضاً مبتعداً عن وقاره.

كان الزوجان يسيران في الطريق وعاتقة تتحدث بصخب، طالبة تفسيراً لما حدث، أما مهدي فقد شرع يحدثها بفتور عما رآه في التل، فغضبت لأنه لم يخبرها من قبل، وظلت تلومه وتعيده إلى ذنوب صغيرة قديمة لم يعد يتذكرها. في البداية أحس بالذنب ينخر أعماقه، ثم بالضيق لتصميمها وإصرارها على تكديره، ولعله لم يعتب على الصوفي عطية لجاجته واتهامه له بإخفاء الكنز المزعوم، وذلك لأن جذور عائلته تنتمي إلى طبقة الفقهاء السحمريين، وأولئك كانوا

أخف الناس عقولاً بشهادة كبار السن من الأهالي، لكن ما لا يعقل أن تظن امرأته أنه يخفي عنها شيئاً كهذا! إنه يهول الأمور أحياناً، لكنه لا يكذب أو يتصرف بصفافة. شعر بجرح عميق في نفسه، لاسيما عندما قالت له بشكّ: "أذكر أنك كنت متوتراً في الصباح، لا أظن ذلك يحدث لمجرد عثورك على عظام محروقة!". عندئذ أوقف الحمار، ونظر إليها نظرة غريم إلى غريمه، ثم صاح بانفعال:

- إنها عظام بشرية، أولئك الصغار أُحرقوا في ذلك المكان وهم أحياء، وهذا سبب توتري.

- وماذا عن الخواتم والحلق والأقراط التي عثر عليها الصوفي بين ثيابك؟

- تلك الأشياء تخص المحروقين، هناك فتيات أُحرقن أيضاً، لا تدعيني أفكر في إحراقك هذه الليلة. أرجو أن تغلقي فمك. لا أريد أن ينتشر الخبر في القرية.

- وهل تظنهم سيجهلون ذلك؟ كان معوض واقفاً على النافذة حين كنت في انتظارك، والرعاة سوف يرون التجويف الذي صنّعه.

لاح شعور الندم على وجهه فأجاب بانكسار:

- أنتِ على حق، كان ينبغي أن أُردم التجويف، أتمنى ألا يكون معوض قد رآني منبطحاً على ظهر الحمار، فهو جار ثرثار.

وأردف بعد هنيهة باهتمام:

- أرجو أن تعينيني هذه الليلة وتمسكي الفانوس بينما أسد الفجوة سريعاً.

فكرت قليلاً، وترددت قبل أن تعلن موافقتها بصوت واعد:

- لن نكون بحاجة إلى الفانوس لأن الليلة مقمرة، نحن في منتصف الشهر، هل نسيت؟

هز رأسه موافقاً، وسارا جنباً إلى جنب. شعر بالامتنان ناحيتها، وغفر لها سراً الانفراد مع الصوفي عطية في غرفة مغلقة، وتمنى أن تواته الفرصة ليضمها تحت إبطه حتى لا يراها أحد، وتعجب من نفسه إذ يغار عليها في هذا العمر، ومع ذلك أحس بدفق حنان يغزو صدره، فنزل عن ظهر الحمار لتمطّيه، فهي لا ريب منهكة، والمكان خالٍ من أصحاب المزاج السيئ الذين لا يروق لهم رؤية امرأة على ظهر حمار.

تحسّن الجو بينهما، وسمح لنفسه بمحاذاتها والتشبث بجذعها بدعوى مساعدتها على الثبات، وفي موضعٍ مستوٍ قفز بشكل مباغت وركب خلفها واحتضنها من الخلف وهو يقول مبرراً تصرفه الغريب:

- حمارٌ قويٌّ يستطيع حمل زوجين متعبين.

فصرخت بتذمر شديد:

- انزل أيها المجنون! ماذا لو ظهر أحدهم ورآنا بهذا الوضع الغريب! ألا تخجل من نفسك وأنت بهذا العمر.

واستمر في عناده وهو يشعر بانتصاب شيء، وفجأة سمع صوتاً يأتي من خلفه، فقفز إلى الأرض بحركة سريعة، والتفت إلى مصدر الصوت. رأى الصوفي عطية يجري رغم ثقل جسده، واضطرت عاتقة إلى النزول، متجمدة في موضعها بذهول، وشرعت تؤنب زوجها بنبرات مخنوقة:

- انظر، رأنا الصوفي راكبين معاً، يا للفضيحة!

قال بحنق شديد:

- ماذا يريد منا هذا الرجل؟

وصل الصوفي عطية، ومكث لحظات لاهثاً يحاول السيطرة على أنفاسه، وبعد قليل ضغط صدره براحتيه، مطلقاً زفرة قوية، واستطاع أن يقول بصوت غائر: "سامحاني، لقد أسأت معاملتكما في منزلي". ثم أعقب بصوت منكسر: "أنتما تعلمان إن عقل الصوفي خفيف كالريشة، وقد جئت أطلب المغفرة".

انفكت عقدة لساني مهدي وامرأته على حد سواء، وقالاً على التوالي:

- لا نحمل ضدك أي ضغينة.

- ياااه، لقد تجشمت عناء اللحاق بنا لتطلب الصفح. ما أطيب قلبك!

وانحنت عاتقة بتأثر لتقبّل يديه، فسحقت الغيرة قلب مهدي، لكنه لم يجرؤ أن يمنعها متأثراً بالموقف، وحسد الرجل على الامتياز الذي يناله من الناس، لاسيما النساء.

رفع الصوفي كفيه عالياً وقال بورع غريب:

- يتحتم عليّ أن أطمئن عليك، وقد رأيت أن أرافقك إلى منزلك.

بادرت عاتقة قائلة بإشفاق:

- لا تجهد نفسك أكثر، زوجي بخير.

تتحنح مهدي وقفز عالياً، ودار حول نفسه بخفة قرد، ثم أبرز ساعديه القويين قائلاً بتوتر:

- انظر، أنا بخير، أنا بخير.

ردّ الصوفي بغیظ:

- أنا أكثر مراساً منك بهذه الأمور، لست على ما يرام، أنت مريض! انظر كيف تقفز كالقرد.

فحصت عاتقة زوجها بنظرة قلقة وقالت بيقين:

- صدقت، إنه يتصرف بجنون.

امتلاً مهدي بالغمّ، لا يرغب بأن يأتي الصوفي إلى منزله. إنه فلاح فقير، لا يزور أحداً ولا يزوره أحد، فضلاً عن أن مجيء ضيف إلى منزله سيعيقه عن ردم التجويف، وقد يكلفه بعض النفقات، سيضطر أن يذبح طائراً من الدجاج،

فالصوفي لا يأكل طعامه بلا مرق أو لحم، ويعوزه التبغ
وبعض "القات" العال وقهوة القشر، ولن يكتفي الصوفي
بالقليل، وسوف يأتي الأهالي والمرضى لزيارته و...

- بِمَ تفكر يا مهدي؟

- هاه. أفكر في منزلي المبلل الذي غمره ماء المطر، أخشى
أنني لا أستطيع استقبالك.

هتفت عاتقة ببراءة طفل:

- لكنني نشّفت أرضية المنزل، وأخرجت اللحم والحصائر
لتجف.

جذبها زوجها جانباً وهمس بصوت حاد:

- ألا تدركين أننا سنسير إلى التل في المساء؟

- صحيح، لكن هذا لا يمنعنا من استقباله لبعض الوقت.

وجاء صوت الصوفي عطية الهادر:

- لا تخشياً من استضافتي، منزلي قريب وأستطيع العودة.

زال شجن مهدي، ثم نكس رأسه بخجل، فاستضافة الصوفي
عطية لا تعد من فائدة أيضاً، سترفع من شأنه في القرية،
ولكن هل كان له شأن في الأصل؟! فالفقر صديق قديم
لعائلته، إنه أجير صغير لدى المالك المراغة، ولا يطمع
بأكثر من الحصول على قوت يومه، ولحسن حظه لا يعيل
أطفالاً رغم رغبته القديمة بهم، واليوم أمسى يائساً لا يرغب

بشيء. مضى يفكر في أولئك الصغار المحروقين، في تلك
الحجرة، وعظامهم الصغيرة الهشة. ألم يدرك من فعل ذلك
أن رجلاً عقيماً يدعى مهدي سيأتي بعد زمن ويكتشف
جرمه؟ المساكين، لعلمهم صرخوا ملياً واستغاثوا ولم يسمع
نداءهم أحد.

كانوا يسIRON متجاوزين، وكلّ منهم يهيم في عالم مختلف.
إلى أن قال الصوفي:

- أمازلت تخشى أن أحل ضيفاً في منزلك؟

- لا، أنا حزين لما حدث في تلك الغرفة المحروقة.

ضحك الصوفي عطية وردّ بلامبالاة:

- لا تحدّثني عن العظام.

صمت مهدي، وساروا قدماً، والصوفي لا يألو جهداً في
التودد إليه، وأفاض في المديح على نفسه، ولم يكن هذا
ضرورياً، لأن الناس كلهم يحترمونه، لكنه جشع بعض
الشيء وعنيد، لا يريد أن يصدّق أن مهدي لم يعثر على أي
ذهب في التل.

أمام القرية رأوا حشداً من الرجال واقفين كما لو كانوا
بانظارهم، فأصلح الصوفي عطية عمامته، وشدّ قميصه
المترهل، وطبع على وجهه مسحة من الجدية والاعتداد
بالنفس، ومشى بخطوات متزنة ثابتة، فقد راق له أن يراه
أهالي سحمرّ بأحسن حال، وعلى عكسه تسرّب الغمّ إلى نفس

مهدي وامراته، فالناس لا يجتمعون على مشارف القرية إلا لأمر جلل، وأفصح الزوج عن قلقه قائلاً: "استر يا رب".

وقالت امرأته بشيء من الأمل: "لعلهم ينتظرون موظف الزكاة". فهتف الصوفي عطية بفرح: "هذا يناسبني، أريد أن أتحدث إليهم".

تعلق مهدي بثيابه قائلاً:

- أرجو ألا تتحدث عن أمر العظام المحروقة.

- هل تريني المكان؟

- نعم، سأريك إياه.

واصطف الملاك الصغار حول المالك المراغة والوجيه قحطان الذرب، وظهر الأجراء بعيداً عنهم كالعادة، ووجف قلب مهدي وامراته خوفاً، وتقدم بشكل حثيث محنياً هامته باحترام، حتى جثم تحت قدمي المالك المراغة ووجيه القرية فدفعاه بعيداً بغضب، وصرخ الأخير في وجهه: "ماذا وجدت في التل يا مهدي؟".

أنكر الرجل أن يكون قد وجد شيئاً غير العظام المحروقة، وكانت امرأته محقة في توقعها، لقد رآه جاره معوض محنياً على ظهر حماره بشكل مريب، فأبلغ وجيه القرية، وتتبعوا آثاره حتى وقفوا قرب التجويف، وهناك عثروا على الفانوس وعلبة الثقاب، ثم دخلوا ورأوا العظام المحروقة، وظنوا أن الرجل قد سرق الكنز ثم أحرق المكان ليخفي آثاره، فانطلقوا

إلى منزله ولم يلقوا له أثراً، وهذا أكد شكوكهم السابقة، لكن الرجل وامرأته جلبا معهما الدليل، وأشارا إلى الصوفي عطية، فالتفت الوجيه والملاك إلى الرجل، وتملكهم الخجل. فهو لا يخرج من داره إلا فيما ندر، وعند الضرورة فقط.

كان واقفاً بتجهّم واستياء لتجاهلهم حضوره المهيب، فاندفع إليه المراغة أولاً ثم الوجيه قحطان الذرب رافعين راحتيهما بالتحية وصافحاه بخجل. قال الأول بأسف:

- سامحنا، لم نرك مطلقاً، لقد أعمانا الغضب، ستعذرنا عندما ترى الغرفة المحروقة في التل.

- لا حريق بلا أدخنة، هل رأيت دخاناً يتصاعد من التل؟

التفت الوجيه قحطان إلى الأهالي، لكنهم هزوا رؤوسهم نافين. فقال بصوت ودود:

- أنت على صواب، لقد اقترف الماكر فعلته عند الظهر والناس هاجعون في منازلهم.

- أريد أن أرى التجويف، لا بدّ أن يكون المكان حاراً وهناك قليل من الدخان داخله.

- هذا رأي حكيم.

ساروا إلى التل، وتعمّقوا داخل التجويف يسبقهم الأجراء بالفوانيس، وجالوا بين أكداس العظام، واغترف الصوفي عطية بعض الرماد، تأمله وأدناه من أنفه، بينما الآخرون ينظرون إلى تعبيرات وجهه، أملين أن ينطق بكلمة واحدة،

لكنه حبذ أن يواصل تحديقه. تناول عصا مدببة الرأس من كف أحد الأجراء، وسددها إلى الحائط بمهارة محارب قديم، وفجأة سكنت العصا بالجدار، فصاح بصوت عالٍ:

- هناك غرفة أخرى يا رجال.. حطّموا الجدار.

عثروا على مطرقة حديدية رمادية متفحمة بالغرفة، وبأول ضربة منها تهشمّ خشب محروق وانفتحت ثغرة واسعة، فوسّعوها أكثر بأيديهم. ظهر شكل باب صغير، فدخلوا منه، ووجدوا أنفسهم في غرفة واسعة مكتومة الهواء، وانتابتهم نوبات سعال شديدة فخرجوا.

رفض الصوفي عطية التراجع رغم تذبذب ضوء الفانوس الذي انتزعه من كف أجير هارب. تقدّم ولعابه يسيل لكنه لم يجد شيئاً سوى أكداس العظام، فخرج جرياً وهو يسعل بشدة، واستلقى في الخارج بإعياء، وأخذ يلهث ويشهق مختنقاً. حفّ الجميع حوله خائفين، لأنه المعالج الوحيد في القرية، ولن يجدوا من يعتني به في حال حدث له مكروه، لكنه سرعان ما نهض ببطء قائلاً بحسرة:

- إنها مجرد عظام صغيرة.. كنت أظنه كنز المكرا ب.

هتف المراغة قائلاً بصوت أجش:

- ماذا يعني ذلك؟

- لا شيء يستحق الاهتمام.

عاد الجميع من حيث أتوا، ورفض الصوفي عطية البقاء،
قائلاً بضجر:

- اطلبوني حين يظهر شيء يستحق العناء.

-3-

بعد شهرين، أتى نجم زراعي جديد مبشراً، وتساقت
القطرات على رؤوس الأهالي، ودار جدال شديد بين عاتقة
ومهدي، وطلبت منه التوجه في الصباح الباكر إلى التل
للبحث عن التراب الجاف، لأن ما جلبه في المرة الماضية لا
يكفي، لكنه رفض كلامها جملة وتفصيلاً، فجعلت تناشده في
المساء قائلة بفضول:

- أريد أن أعرف ما يمنعك عن جلب التراب من المكراة!
أجاب بتصلب:

- لن أجلب التراب من هناك، لا تناقشيني في هذا الأمر، لقد
رأيت ما حدث لنا من مشاكل.

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- هناك تل بعيد يطل على قرية الأكمة.

- هذا شأنك، اجلبه من بلاد العجم إن أردت. أنت من سيتحمل
المشقة وليس أنا.

وعندما طلع الصبح رأى بعض الأجراء يتجهون ناحية تل المكرب حاملين أدوات الحفر والأكياس، فهم يخشون من تسرب الماء إلى منازلهم أيضاً، وانتظر الفضوليون منهم خروج مهدي ليكونوا قريبين منه، إذ استقر في أذهانهم أنه قد يعثر على شيء ما، ورأوه يسير وحماره وأدواته بعيداً قاطعاً الوادي، فلحق خلفه جاره معوض، ثم تراجع عنه بيأس، حين ظنه سيبتاع بعض البذور من قرية الأكمة، أو سيجلب حصص بعض الملاك الكسالى من الحبوب.

واصل مهدي السير حتى انتهى إلى تل صغير. تنفس الصعداء هناك، وارتاح قليلاً، ثم قام يتمشى باحثاً عن موضع مناسب ليحفر عليه. لمح عدداً من الرعاة في الجانب الآخر، ولم يكثرث، وقال لنفسه: "هنا لا يوجد أطلال، ولا عظام أو مشاكل". وراح ينبش القشرة العليا الصلبة، وهو يدندن بأغنية محلية ليسلي نفسه. كانت منازل قرية الأكمة تلوح بجلاء في الأسفل، وبوغت بعدد من الرجال يظهرون، وميّز كثيراً من وجوههم، كما عرف شخص وجيه[°] قرية الأكمة عبدالرحيم حيدر، فاستقام تلقائياً واستعد لاستقبالهم وهو لا يدرى سبب قدومهم. خاطبه الوجيه عبد الرحيم قائلاً:

- أنت تحفر في حدود قريتنا يا مهدي.

أجاب بصوت ناعم:

[°] كبير القرية.

- يعوزني بعض التراب لأفرش سطح منزلي. هل تسمحون لي بالقليل منه؟

- أصدقني القول، هل عثرت على كنز المكرب؟

- هذا غير صحيح يا وجيه عبدالرحيم، لقد عثرت على عظام ورماد وحسب.

سأله الوجيه عبدالرحيم بتهكم:

- هل منعك أهالي سحمر من الحفر في التل؟

- لا، لكنهم مستهترون جشعون، يتتبعون خطواتي، فقررت أن أبتعد عنهم.

- صحيح، إنهم كذلك، افعل هنا ما يحلو لك، لن يزعجك أحد. طاب صباحك يا مهدي.

وانصرفوا، وعاد يحفر من جديد، ورأى أن قوله كان مرضياً لغرور الوجيه عبدالرحيم، فالعلاقة بين ملاك الأرض في القريتين ليست كما يجب، وكل هذا بسبب المنافسة المحتدمة على الحقول الخصبة في الوادي. حاول مهدي أن يطرد هذا الخاطر من رأسه، لا شأن له بأطماع ونزاعات الوجهاء والملاك، فهو أجير صغير، لا يثير الانتباه، وعلاقته بالجميع طيبة، لأنه ببساطة لا يتدخل في شؤونهم. ولم تتكدر حياته إلا عند ظهور تلك العظام القديمة، ومع ذلك أنقذه الله قبل أن يفكر مالكة أو الوجيه قحطان الذرب في طرده من القرية.

واقشعر جسده فجأة، وتوقف عن العمل، وشكر الله بتأثر، ثم سجد وسط الحفرة بخشوع، فهو في العادة لا يصلي في المسجد خوفاً من الالتقاء بملاك الأرض والأجراء، إذ بدت له الصلاة الجماعية نوعاً من النفاق والتشهير، ومع ذلك فإنه كان يذكر الله بإخلاص في بعض الحالات، وفي مثل هذا الظرف بالذات.

بعد أن أنهى صلاته عاد يحفر بنشاط وأمان، حتى ظهر تراب جاف ناعم يشبه تراب المكرا ب، فارتعدت فرائصه، واستقام بوجل وراح يمسح بأكمامه التراب والعرق عن جبينه، ثم راوده التفاؤل وقال لنفسه بتهكم: "ليست كل القناني ماء، إنه تل أجرد أيها الرعيد". وتحول ارتياحه إلى فرح، فهذا التراب هو ما ينشده.

أخذ يجرف ويعبئ أكياس الخيش، وينحيا جانباً، ثم شدّ كيساً منها على ظهر الحمار، وبدأ يتأهب للمغادرة، لكنه أحس أنه نسي شيئاً من أدواته، فعاد إلى الحفرة وأخذ المجرفة، وتجمد في موضعه حين لمح شيئاً ما أبيض غائراً في التراب يلوح بشكل طفيف. انتابه الذعر، وسأل نفسه ما عسى يكون هذا الشيء، وعجب كيف لم ينتبه له من قبل. اقترب منه برهة، وألقى عليه نظرة فاحصة، فبدا كحجر أبيض غائص في الحفرة. حاول أن يفر، لكنه أخفق في ذلك لارتبأكه، ولعله لم يرغب فعلاً في المغادرة قبل أن يعرف ما هو هذا الشيء غير الظاهر. خاطب نفسه مشجعاً: "أيخيفك حجر جامد،

وأنت الفلاح القوي الذي كان العمال يستتجدون بك عندما يعجزون عن تحريك حجر في القرية؟!".

تذكر كيف كان بالأمس وكيف أصبح اليوم، صار يخشى من حجر غريب في الأرض، هل أضحي واهناً قبل الأوان؟ نظر ناحية الحجر وخاطب نفسه بعجب: "ماذا يفعل هذا الحجر اللعين في تل معزول؟". لا ريب أن امرأته عاتقة على حق، لقد أصبح مجنوناً دون أن يدري! انحنى ولمس الحجر بحذر، كان حجراً حقيقياً وليس وهماً، "لست مجنوناً كما يظنون، ترى كم يبلغ طول هذا الحجر؟". وشرع يجرف التراب بسرعة يحدوه فضول كبير. وفي كل لحظة يكبر الحجر وكأن لا نهاية له، وارتفع حجم التحدي، فراح ينبش التراب بجدية وعزم، ولم يتوقف حتى ظهر تابوت حجري مستطيل يسده غطاء من حجر، لم يكن حجراً عادياً كما توقع، بل هو تابوت رشيق منمنم من الرخام الأبيض، وهنا عرف حجم الكارثة التي وقع فيها.

خرج من الحفرة المتسعة، وأخذ يتلقت هنا وهناك. سمع أصوات الرعاة تصدر من مكان ما على التل، ولمح حماره المثقل بكيس التراب وهو يخبط قوائمه بالأرض، وأوشك أن يردم الحفرة على ذلك الشيء، ثم أحس بميل شديد لرؤية ما يحتويه التابوت قبل أن يطمره في التراب. أحس أن الغطاء الحجري يعوزه ذراعين قويين ليرتفع، فهمس في سره: "هل مازلت صلب العود أم غربت شمسك يا مهدي؟ سنرى الآن.."، وتملكه عنفوان التحدي، فتقدم بثبات وجعل يرفع

الغطاء بكل ما أوتي من قوة، فانزاح قليلاً، وراح يدفع أكثر وهو يتذكر موقفاً قديماً حدث في شبابه.

كان قد استدعي ليرفع حجراً ثقيلاً عن حفرة، بعد أن عجز عن رفعه بضعة رجال. أطلت فتيات القرية ورحن ينظرن إلى جسده الفتي المفتول العضلات، فاستبسل وصارع الحجر حتى رفعه أمام عيونهن المبهورة، وأصبحت قوته حديث القرية، وافتتنت به كثير من النساء. هل مازال قوياً كما كان في تلك الأيام الغابرة؟ هذه الأفكار التي مرت في رأسه جعلته يبذل جهداً جباراً يفوق قدرة أي شخص على التحمل، حتى استطاع أن يرفع الغطاء في النهاية، وقفزت عيناه إلى عمق التابوت ثم ارتدتا بفجعة. كانت مستلقية في قعره جثة إنسان التصق جلده بعظمه، فبدا يابساً مثل عود بالٍ متصلب، ولمح الأقران الذهبية في الأذنين القاتمتين، وعقداً كبيراً يكسو الصدر الجاف ينتهي بأهلة ذهبية نصف مستديرة، فيما تتربّع الخواتم وسط الأصابع المتخشبة، وكان بريق الذهب المغربي يخطف بصره الزائع، فانخلع قلبه وغمره العرق، وندم على إقلاقه سكينه هذه الميته.

إنها امرأة وجبهة لا ريب دُفنت بكامل زينتها وجلالها، لكن سُمعته أيضاً لا تقدر بثمن، لقد نجا في المرة السابقة حين عثر على غرف العظام المحروقة، لكنه سيئهم الآن بأنه أتى خصيصاً ليفتح هذا التابوت، ولن تبدو مجرد مصادفة. سيتفق جميع الناس ضده، وربما تنشب مشاكل كبيرة بين القريتين.

سمع صوت الرعاة قريباً، فأغلق غطاء التابوت. كان جسده يرتجف بانفعال، وقرر أن يردم الحفرة، وحينئذٍ ظهر الراعي محمد العزب، وهو شاب أحرق يغير بأغنامه على الحقول، وسبق أن أغار على حقول وادي سحمر، وطرده الفلاحون أكثر من مرة، واشتكوا منه إلى الوجيه عبد الرحيم حيدر، فوعدهم أن يردعه وينذر عائلته، وبالفعل لم ينزل واديهم مرة ثانية، لكن تهديده مازال قائماً، فهو وأغنامه يحومون حول الوادي، ما يشكّل قلقاً دائماً للفلاحين. وهاهو هذا الراعي البغيض يطل فوق رأسه ويسأله بحدة:

- هيه، ماذا تفعل هنا يا مهدي؟

خرج من الحفرة دون أن يجيب، وسار إلى حماره، وقاده مبتعداً، وسمع صوت الراعي يصرخ على رفاقه بدهشة:

- هيه تعالوا وانظروا ماذا وجدت.

واصل مهدي سيره مضطرباً، وبعد قليل من الوقت كان قد هبط من التل، وسمع في الأعلى أصوات متعالية. لم يجرؤ أن يلتفت، بل قطع الوادي وهو يحثّ حماره أن يسرع، وخُيّل إليه أنه يسمع خطوات أقدام تجري خلفه، ولما أصبح في حدود قريته التفت إلى الخلف، ولمح مجموعة من الناس يصعدون صوب التل، وغالبيتهم من قرية الأكمة دون شك. سمع صياحاً وكأن شجاراً يدور، ورأى بضعة أشخاص يفرّون، وآخرين يطاردونهم، ثم سمع صوت إطلاق نار متقطع، وصدرت صيحات استغاثة وكان شيئاً ما قد حدث.

كان أهالي سحمر قد انتبهوا إلى حدوث شيء غير طبيعي في قرية الأكمة المجاورة، لذا وقفوا بمشارف القرية ينظرون بذهول إلى التل، دون أن يتدخلوا بسبب مشاكلهم السابقة مع مجاورتهم، وخوفاً من إطلاق النار. حين ظهر مهدي فجأة عليهم يقود حماره باستعجال، كان وجهه مكفهراً شاحباً، فأقبلوا صوبه سائلين: "ماذا يجري في تل الأكمة يا مهدي؟".

أجابهم شارداً: "لا شأن لي".

- ولكنك أتيت من تلك الناحية!

- لا شأن لي...

اتجه إلى منزله، وبعثر كيس التراب على السطح بتوتر، وأهمل أسئلة امرأته المتكررة عما يجري، ثم أخذ عصاه وخرج شاقاً طريقه، وصار يمشي لا يدري إلى أين تقوده قدماه. لم يعد للندم أي جدوى، لقد انتهى أمره، هكذا فكر. ليس محظوظاً كما يظن الآخرون، لا شك أن هناك قتلى وجرحى سقطوا، وقد رآه الوجيه عبدالرحيم وأصحابه مستقيماً وسط تلك الحفرة، إضافة إلى ذلك الراعي السافل. سيكون هو الملام الوحيد، لأنه كشف عن التابوت ونصب لهم فخاً فظيماً. لن يظنوا أن جشعهم وسوء تصرفهم هما السبب، ملاك الأرض حمقى ومتسلطون، والأجراء يدفعون الثمن بمجرد أن يقترفوا ذنباً صغيراً، وعندما يحضر الجنود متأخرين كعادتهم، سيومئ الأهالي بأصابعهم إلى داره،

ويقولون إن الأجير مهدي صاحب سوابق، وسيفشون لعناصر الدولة سر الغرف المحروقة.

أحس بألم شديد في قدميه، وانتبه إلى نفسه حافياً وسط شعبٍ وعر مليء بالحصى المسنن، فقال لنفسه بيقين: "عائقة تقول الحقيقة، أنا مجنون لا شك، أين أذهب في هذه الساعة؟ وهل لفراري أي جدوى؟"، وهنا فقط أدرك أن الهروب سيزيد مشاكله تعقيداً، وسيثبت جرمه، ثم إن الأمور لم تتضح بعد، وأخذ يطمئن نفسه الخائفة قائلاً بثقة: "لم أطلق النار على أحد، ولم أحمل معي أي حلية أو خاتم من التابوت. كان بوسعي أن أسرق المرأة الميتة، لكني لم أفعل، ما حاجة رجل عقيم مثلي إلى النقود؟ يتحتم عليّ أن أخبر عائقة بما عثرت عليه قبل أن تسمع ذلك من الأهالي فتغضب".

عاد إلى القرية، ومشى بثبات، متجاهلاً جميع الإشارات الواضحة التي تنم عن تورّطه. كان المالك المراغة والوجيه قحطان الذرب في انتظاره قرب داره، وما إن رآه الأجراء حتى أحاطوا به من كل جانب، وساقوه أمامهم كنعجة ضلت طريقها، حتى وقف أمام الرجلين الساخطين، وانحنى وباس قدميهما بإذعان كما يفعل الأجراء حين يقعون في مأزق، ثم انتصب بثقة. لم يمنعه عن شرف التقبيل كالمرّة السابقة، ربما لأنه لا يبدو كالمذنب، والأمور لم تتضح بعد.

أطلت النساء والأطفال من السطوح، حيث لا يسمح لهم بالتواجد في مثل هذه المواقف الحرجة. ورأى امرأته على سطح الدار تلطم وجهها، ولم يؤثر ذلك في نفسه، لأنها تفعل

ذلك في معظم الأوقات، لاسيما عندما تنسى إطعام الحمار أو البقرة. وبعد أن سمع وجيه القرية كلامه المستفيض، تكلم كثيراً عن ضلوع مهدي في مشكلة أخرى خطيرة، فالنبش في أملاك قرية أخرى يثير الريبة، ويؤدي إلى مشاكل بين الجيران، خاصةً إن كان ذلك من أجل شيء آخر غير التراب، كما إن هذا لن يظل خفياً عن الدولة، وفي أي ساعة قد يأتي الجنود ويعيثوا فساداً في القرية و...

تحشرج صوت الوجيه وبدا محبطاً ومتعباً، فأشار إلى صديقه المراغة بعد أن صمت ليسترد أنفاسه، فبدأ هذا من حيث انتهى صاحبه قائلاً بتهكم:

- هل لديك حجة تدافع بها عن نفسك؟

- وهل تظنون رجلاً مثلي مذنباً؟

- نعم، لقد تسببت بمقتل راعٍ في التل وعشرة جرحى حالة بعضهم خطيرة.

ارتعدت فرائص مهدي وردّ بفجعة:

- وكيف حدث ذلك أيها المالك؟

- لقد اقتتلوا على المجوهرات وطعن أحدهم رفيقه في عنقه، والتقت عائلتهما ودارت بينهما معركة شديدة بالخناجر والفؤوس، ولم يفترقوا عن بعضهم حتى أطلق الوجيه عبدالرحيم حيدر النار عليهم وجرح أحدهم.

نكس مهدي رأسه بخجل، وقال بصوت حزين:

- لم أشأ أن يحدث ذلك. أنا رجل تعيس ولست محظوظاً كما
تظنون. كلما هربت من مشكلة تتعقبني أخرى. هل أقتل
نفسي بين أيديكم؟

وجثا على ركبتيه على نحو مؤثر، وأثار تصرفه شفقة بعض
الملاك الصغار رغم تكبرهم، لاسيما أن المشكلة تتعلق
بخصمهم العنيد الوجيه عبدالرحيم وأهالي قريته المتعنتين،
فقالوا بصراحة إن صاحبهم لم يفعل شيئاً يستحق التأنيب، لقد
أخذ كيساً من التراب، وبوسعه أن يعيده لهم إن شاؤوا أو
يدفع ثمنه، ولاقى هذا الرأي الاستحسان، وأعلن الوجيه
قحطان الذرب النفير العام للتصدي لأي فعل طارئ، فالأحقاد
تعمي الأبصار كما أفصح، ورصد أسماء رجال بعينهم
ليحرسوا القرية، فأهالي القتل قد يفكرون في أذية مهدي،
ولا ريب أن الجنود في طريقهم إلى قرية الأكمة، وقد يأتون
إلى هنا بحثاً عن مكتشف التابوت.

لا ريب أن دولة المشير عبدالله السلال حازمة، فقد صار
يسمى رئيس مجلس القيادة، وهو القائد الأعلى للجيش أيضاً،
ورفاقه الثوار يحاربون الملكيين وتساندهم القوات المصرية،
وأي مشكلة تافهة تدور يظنون أن وراءها مكيدة، ويُخشى أن
يهاجم الجنود القرية، أو يوسعون من دائرة المتهمين لتشمل
الوجيه والملاك والأجراء في سحمر.

على هذا النحو لخص الوجيه قحطان رأيه في ما جرى، ثم
اتجه إلى منزله ليرتاح مخلّفاً لهم جواً ملبداً بالمخاوف. وهكذا
شعر كل شخص في القرية أنه متورط أيضاً، وارتفعت

التأوهات والابتهالات من كل منزل، وانتابهم السهر والأرق والتوتر. وأخذ مهدي يبرر لامرأته ما حدث مدّعيّاً أن النحس حليفه، فكلما حفر أرضاً يجد شيئاً في انتظاره، وأقسم ألا يحفر أبداً، ولو غرق منزله وسط بحر زاخر من مياه المطر. ثم وصف لها ما عثر عليه، فازدرت لعابها المتدفق، وهمست بصوت حاد:

- يا لك من مخبول.. ليتك أخذت الحلي لأتزيّن بها.. لم ألبس شيئاً ذهبياً منذ أن اقترنت بك.

همس بصوت خفيض:

- أششش، أتريدين أن تتبرجي في هذا العمر! ما يدعوك إلى التفكير بالزينة في هذا الميقات العصيب؟

- لقد كنت طفلة يوم تزوجتك، وأنت شاب قوي كالبغل، لكن كدح العيش في منزلك جعلني محطمة قبل الأوان.

- كفاك تشدقاً بشيء لم أعد أتذكره، ولا أربغ في ذلك، انظري ما حلّ بأهالي الأكمة، يقال إن هنالك قتيل وجرحى. أملكين الجرأة لارتداء زينة امرأة ميتة؟!

- لو أخذت الحلي لم يكونوا وصلوا إلى هذا الحال، ولا أجد ضيراً في لبس زينتها.

- هيا، نامي، تصبحين على خير.

- وأين الخير؟ عجباً، كيف يأتيك النوم!

- أنا منهك ونعسان، ولا شأن لي بما حدث.

تركها للحسرة والسهر، وانطفأ كالفانوس. ولم يند عنه أي حركة حتى أشرق الصباح، فقام يتنسم الهواء النقي والأخبار الجديدة، وإلى تلك اللحظة لم يأت إليهم أي استدعاء. لقد بعثت القرية رعاتها بأغنامهم باكراً للرعي قريباً من التل الصغير، ومضى الأهالي يراقبون بحذر. وعند المغيب جلب الرعاة الأخبار، سمعوا أن الجنود هبطوا في الليل، واستعادوا الحلي المسروقة من أهالي الأكمة، وقبضوا على الراعي محمد العزب المتهم بقتل راع آخر إثر مشادة على قطعة حلي، كما بعثوا الوجيه عبدالرحيم والمتشاجرين إلى المدينة للتحقيق معهم وتأديبهم، ورأوا جنوداً وعمّالاً على التل يضعون على الصخور علامات باللون الأحمر، ما يعني أنه أضحي منطقة محظورة لا ينبغي الاقتراب منها.

بعد بضعة أيام غادر جنود أمن يريم إثر مجيء فريق صغير من قسم الآثار يرافقهم مجموعة من الجنود المصريين والمحليين، جلبتهم شاحنة قديمة وقفت بعيداً، واضطروا إلى مواصلة السير بأقدامهم إلى تل الأكمة. وقد بعث رئيس الفريق رسائل هادئة ودودة إلى وجهاء القرى المحيطة، وطلب منهم إسداء النصح للأهالي بعدم الاقتراب من المواقع والأطلال الأثرية، وقابل عينات عشوائية من الفلاحين، واستفسر عما دار في ذلك الموقع الأثري، وعن الشخص الذي اكتشف التابوت، واستطاع رئيس الفريق أن يجمع معلومات عن تقاليد المنطقة. ووضع عينه على أكبر قرية وهي سحمر، فبعث إلى الوجيه قحطان الذرب رسالة لطيفة

يطلب منه فيها تسليم مكتشف التابوت، لأن الجنود قادمون لاستلامه والتحقيق معه.

وهكذا جلس مهدي منكمشاً على مشارف القرية، والأجراء بجواره لا يفارقونه، مشتتون حوله كالتماثيل، عيونهم مفتوحة تتحرك في محاجرها بقلق وتراقب الطريق، وكان يطل من حين لآخر أحد الملاك سائلاً: "هل رأيتم أحداً قادمًا؟"، يهزون رؤوسهم بياس نافين، فينصرف ليظهر آخر يعيد عليهم السؤال نفسه. وعندما أتى المراغة ليسأل عند الظهيرة تجرأ أجيره معوض وقال بصوت خفيض:

- تعبنا أيها المالك، ما جدوى البقاء هنا إن كانوا سيأتون إلى القرية؟

- إياك أن تعيد مثل هذا الكلام السخيف، نحن نريد أن نوّكد لهم أننا مهتمون بما يجري.

- وهل نظل هكذا حتى المساء؟

- نعم، هذا ما يجب أن يكون، وآخر موعد للانتظار هو مغيب الشمس.

حلّ الصمت، وأوشك المراغة أن ينصرف، لكن الضجة ارتفعت في الجوار، ورأوا جنود التل قادمين بأزيائهم الرسمية المهيبة. ارتعش الأجراء واضطربوا، وتحرك أحدهم لإبلاغ الوجيه قحطان الذرب، فهو الوحيد الذي يجيد فنون التفاوض مع رجال الدولة وجنودها، والمراغة كذلك لا يقل شأنًا عن صاحبه، وطالما يظهران معاً، ويشكلان فريقاً واحداً

ضد مَلَآك الأرض في القرى المجاورة. استهل المالك كلامه مرحباً بالقادمين، والتفت إلى الأجراء وأمرهم أن يعدّوا الوليمة، لكن الضابط المصري الذي يتقدّم الجنود رفع صوته الصارم موضحاً أن جنوده لا يأكلون سوى المؤن التي تُصرف لهم من التموين العسكري، وقد جاؤوا لينفّذوا المهمة الموكلة إليهم ويعودون أدرأجهم، ثم قال بصوت بارد كالثلج: "دلّوني على أجير يدعى مهدي نصاري".

أشارت البنان إلى رجل أربعيني متوسط القامة أسمر ذي وجه مربع متورّد بفعل الخجل، وجبين عريض يرشح عرقاً، سرعان ما تقدّم بمشية مرتبكة قائلاً بتلعثم: "أنا مهدي نصاري. ماذا تريدون مني؟".

ألقي الضابط المصري مقدمة طويلة عن الواجبات الملقاة على عاتق الجنود في حفظ الأمن والسلم الاجتماعي، والضرب بيد من حديد على من تسوّّل له نفسه العبث بمقدرات الشعوب وتراثها وآثارها، وذكر لهم بعض بنود القانون المصري التي تؤيد هذه الفكرة.

كل هذا وعيون الرجال تتابع شفاه هذا الضابط الداهية اللبق. لم يسمعوا بشيء كهذا من قبل. وأخيراً عرفهم إلى نفسه قائلاً: "الرائد كمال بيومي، قائد جنود حماية فريق التنقيب".

حفظوا هذا الاسم، وراقت لهم ملابس الضابط، وحزمه، ولهجته المصرية العذبة المتمردة على قواعد اللغة العربية، وسوف يتحدّثون عنه فيما بعد في منازلهم.

في تلك اللحظة ظهر الوجيه قحطان الذرب والأجراء خلفه.
وصاح باهتمام: "ها هو الأجير مهدي".

انتبه كمال بيومي إلى الرجل القادم، وفكر في أن ينهي
مهمته حالاً. لم يكلف نفسه أن يتعرّف على شخص آخر غير
الفلاح المنكمش أمامه بخضوع. سأل بصوت حاد:

- أنت مهدي نصاري؟

- نعم، أنا هو.

- أنت الرجل الذي حفر في التل وعثر على التابوت؟

- نعم، بالتأكيد، هذا أنا يا أخي، ماذا تريدون؟

- أنت مطلوب، تعال معنا.

- هل تسمحون لي أن أجلب أغراضي وأودع امرأتي؟

- إذن سننتظرك صباح الغد، إياك أن تتأخر.

وغادر الرائد كمال بيومي والجنود، ونظر الأهالي إلى مهدي
بإشفاق، وتحدّثوا عن مصير مجهول ينتظره، وساروا إلى
منازلهم وهم يتحدّثون بصوت عالٍ عما جرى، وخطفت
جوهرة الكلام من أفواههم، وأضمرت أن تنذر ابنها الوحيد
بربر ألا يقترب من التل، فهو راعٍ غرّ كما تظن، لا يدرك
شيئاً عن المخاطر الجديدة، وكما هو متوقع أعلنت عن
تعاطفها مع مهدي أيضاً، ورأته يمر قرب منزلها دون أن
يرفع بصره، ولم تجرؤ هي على إثارة هذا الموضوع حرصاً
على مشاعره.

وقد بات الأهالي لهذا السبب يتجنبون مخاطبته، ويبتعدون عن طريقه. كان شاردًا مكفهرًا يفكر بمصيره القادم وهو يوشك على البكاء. لا يدري هل سيعود ثانية إلى القرية أم لا. قرر في النهاية أن ينجز بعض الأعمال الضرورية بما يملك من وقت، فانتقل إلى كبير الأجراء حمادي الحبيشي، وزفَّ إليه الخبر المؤسف الذي لا يجهله، وأوصاه أن يعتني بحقوقه أثناء غيابه، وأن يواسي امرأته في حال حصل له مكروه. ثم ذهب إلى عاتقة، وأنبأها أنه مطلوب إلى الدولة، ولا يدري ما سيحل به من وبال، لكنها لم تتأثر، فقد عاشت معه دهرًا، وتعرف كل شطحاته. إنه يبالغ ويمك خيالاً خصباً للظنون، وطالما أثار ارتباكها وحيرتها. قالت له بفتور:

- لو لم أعرفك جيداً لظننت أنك مقبل على نهايتك.

ردَّ عليها بصوت خفيض:

- الدولة لا تستدعي شخصاً عبثاً، لا أدري كيف سيكون حالك من بعدي.

- وهل تظن أنني سأغرق وسط الملابس السوداء بعد رحيلك! الوحيدة التي ستفتقد إلى ثرثرتك هي جوهرة.

- دعي سيرتها جانباً، لم أعد أقابلها مؤخراً.

قالت بتشفٍ:

- بورك الفتى بربر.

نظر إليها بعين الحنق. تبدو غيورة، هذا واضح من محياها ونبراتها المتهكمة المتشفية، ولعل الفقر هو السبب أو شيء آخر مجهول. كلّم نفسه بندم: "لمّ لم أسرق قطعة ذهب من المرأة الميتة؟ لعل أحد الخواتم كان سيدع هذه المسكينة تفرح وتحدّثني باهتمام. هل يستطيع كنز المكرب أن يرقّق طباعها؟ من يدري..."، ونام وهو حزين.

-4-

في الصباح أكل فطوره، كانت وجبة شهية. طبق من الحليب والسمن، وفطير المكرور الذي لم يذقه منذ زمن بعيد، وقهوة بُن بيضاء ممزوجة بحليب بقري طازج. قدّمت عاتقة تلك الوجبة الفريدة بصمت مطبق، وكأنها تمنحه فطوره الأخير بلا منّة أو مقدمات. وظلت تمارس عملها المألوف كما تفعل كل يوم. تناول فطوره بعجل، ثم شرب قهوته مقحماً شفتيه وسط السائل الحار، وكأنه مقبل على سفر طويل. ولما أنهى كل ما على الطبق أخذ منزره الوحيد الذي يلبسه في الأعياد، وغادر المنزل دون أن ينظر في وجه امرأته. لقد رغب حقاً أن يثني على طعامها ويودّعها، لكنها لم تكن في انتظاره. مازالت تظن أنه يبالغ في تصوير مخاوفه، وعندها حق في ذلك. فكّر مهدي على نحو إيجابي هذه المرة، فهو ليس سوداوي التفكير طوال الوقت، أحياناً يمر بحال من السلام

الداخلي، ويتصالح مع كل شيء. كان الصباح جميلاً قبل الشروق، والطبيعة هادئة نائمة باسترخاء مثير. العصافير الدورية تزقزق وتمشّط أجواء القرية بنشاط، وتتحوّل من دار إلى آخر، أو تتكدس بصورة جماعية ملحمية على المداميك الحجرية، أو تقف منفردة فوق مسامير البرق المعقوفة المتربّعة أعلى الدور، المسامير التي صنعها القدماء لامتصاص شحنات الصواعق.

لم يكن في الأجواء ما ينذر بأن هناك مشكلة عويصة، فتفاءل كثيراً، وعاش بهجة وصفاء تلك اللحظات متنشّقاً روائحها العطرية البكر، واستقبلت بشرته نسماتها الباردة المدغدغة، هكذا، وبكلّ بساطة، منحه الصباح بعضاً من هدوئه واعتدال مزاجه. لا ريب إن حرارة الشمس والضوضاء في منتصف النهار تؤثر على الأعصاب وتجفف الأدمغة.

عند مشارف القرية صادف عدداً من الأهالي المبكرين، فلاحون يحملون معاولهم، ورعاة يقودون قطعانهم باتجاه التلال المعشبة. كلهم بادلوه تحية الصباح بمودة واضحة. نظر إلى الرعاة وقطعانهم وأدواتهم بافتتان، فقد كان راعياً في مقتبل عمره، وقد لاحظ أن الأدوات تغيّرت منذ ذلك الزمن. أمسى يرافق كل راعٍ كلبٌ، ويتقدّم القطيع حمار يحمل جراب الماء المطاطي المنتفخ، وإلى جواره يتربّع جردل معدني مقلوب حائل اللون معوج ومحطم الهيكل، ويكون هذا الوعاء البطولي الكادح قد تعرض لحوادث قاسية أثناء عمله، فقد يتدحرج حين يفرغ منه الماء، أو يسقط عن

ظهر الحمار، أو يدوسه القطيع، وأحياناً يُنسى في العراء، حتى يعود إليه الراعي في اليوم التالي، ومع ذلك يعيش عمراً طويلاً، ولا يستغنون عن خدمته إلا عندما يُثقب من أسفله في أكثر من موضع، ومن ثم تصبح كلفة إصلاحه أعلى من ثمنه، وأوشك مهدي أن يسأل الفتى الراعي بربر عن عمر جردله، لكنه شعر أن هذا السؤال سخيّف للغاية، ولا يقال في غرة الصباح. فكّر أن بوسع المرء أن يتعلّم من الجردل كيف يقاوم صروف الزمن الصعبة، وألا يأبه بالضربات المتكررة المسددة لحياته.

راح يتأمل كلب بربر المشتور الأذنين، وسمع الفتى يناديه باسم "كمال"، وفوجئ وهو يشتمه ويركله دون سبب واضح، وتشاءم من تصرفه، واندھش أن يطلق الفتى على كلبه هذا الاسم. لقد كان في صغره شقيماً مثله يطارد الحيوانات بهدف التسلية واللعب، ولم يسبق أن ضرب حيواناً بتلك القسوة، فقد كانت أمه "تقية" تبرحه ضرباً حين تراه يمسك ذيل القط ويدخله نافذة بيت النار، وتقول له على الدوام بسخط: "لا تؤذِ الحيوان الأبكم، سوف يطاردك في أحلامك". وصار يخشى زمناً طويلاً أن تزوره الحيوانات أثناء نومه.

لا يظن جوهرة الوديعَة تضرب ابنها أو حتى تخيفه من عواقب أفعاله، بل إنها تبالغ في تدليله لأنه طفلها الوحيد. وتذكّر مهدي حين أتت جثة النقيب حميد حيدري إلى القرية، بشكل مفرع، لم يكن قد عرف بموته أحد، كان قد وعد عائلته أن يأخذها لتقيم في مسكن صغير في المدينة قريباً من

مقر عمله، وأذاعت امرأته "جوهرة" الخبر في القرية، وأخذت تودّع جاراتها، وتقول مازحة إن القرية ستنتطفئ بعد رحيلها إلى المدينة، لكن زوجها رحل عن الدنيا، وعاد في ذلك اليوم المشؤم مكفناً بالعلم الجمهوري، وحضر معه كثير من الضباط والجنود، وحملوه بخطوات عسكرية منتظمة إلى المقبرة.

وسرى الخبر في القرية بأن المصريين قتلوه، فغضب الأهالي واجتمعوا قبل دفنه، لكنهم لم يجدوا دليلاً أو خصماً يقاضونه، ولم يتلقوا أي معلومات عما حدث له، فانشغلوا بالبهجة والحضور المهيب الذي رافق موته، وإكليل الورد الذي أحاط جنازته، ولقب "شهيد الثورة البطل" الذي كُتب على شاهد قبره، إضافة إلى كلمات رفاقه المتكلمة الجوفاء، وهم يسردون مواقف النبيلة وأدواره البطولية في الحرب ضد الملكيين. وبعد بضعة أيام تلاشى كل شيء، ونسوا الحادث. فيما وقعت امرأته في نوبة حزن استمرت شهوراً، ثم خرجت للحياة مشمّرة الساعدين، ولم تنتظر أن تعيش على مآثر زوجها وراتبه الزهيد، بل أخذت المال الذي حصلت عليه من قيادة الشرطة العسكرية مقابل انتهاء خدمة زوجها الأبدية، وابتاعت خمسين رأساً من الغنم، واستأجرت حقلين، وأصبحت فلاحاً، وكأنها كانت تعلم أن أبناء الشهداء يموتون من الجوع دون أن يلتفت إليهم أحد. وصار ولدها "بربر" راعياً يجوب التلال المحيطة بالقرية، مترنماً بأغاني الرعاة الحزينة، كما بدا منطوياً، متشحاً باليتم والغموض وشيء من

البراءة والخبت. ومن يراه لا يظن أنه عدواني، ولهذا السبب تعجب مهدي من تصرفات بربر الذي تحوّل إلى مسخ قبيح. كان الكلب يهزّ ذيله باستمرار، جالساً القرفصاء مطلقاً صوتاً صغيراً مدللاً، وكلما حاول أن يلعب مع صاحبه، ينهره الأخير ويصرخ في وجهه، وكأنه يوشك أن يأكل من صحنه في أيام الجوع. كان هذا السلوك مخيباً لأمل مهدي ولنظريته عن الصباح الباكر المفعم بالسلام والهدوء، وأعظم من هذا فإنه كان يتشائم عندما يرى حيواناً نافقاً، وفي طفولته البعيدة أمثلة دامغة تؤكد ذلك، ستروى في الوقت المناسب. ووجد نفسه يسأل الفتى باهتمام:

- بربر، هل تطلق على كلبك اسم إنسان أم يخال لي؟

أجاب بتوتر:

- نعم، إنه اسم ذلك الضابط المصري.

- أوه، كان والدك ضابطاً جمهورياً مرموقاً. لكنك تزدرى كلبك المخلص وتضربه وتطلق عليه اسم إنسان، أليس هذا غريباً يا بني؟

- الناس هنا يزدرون الكلاب، أنت نفسك ربما تتحاشى أن تلمس كلباً. لكني غاضب لأن الجنود المصريين صاروا في التل القريب. أنا أكرههم لأنهم قتلوا أبي. ولا أظن أنني أسكت. أريد أن أمزقهم إرباً لو استطعت.

نظر مهدي إلى التل الذي يقصده، وخشي على نفسه. يشاع أن المصريين ضربوا المناطق الشمالية المتمردة بمدافعهم ودكّوا عشرات القرى، وأكثر من ذلك ينتشرون كالجراد، ويأكلون الأخضر واليابس. لكن كل ما يقال يكون مبالغاً فيه، الحقيقة هذي الأيام بعيدة المنال مثل كنز المكرا ب. قال بصوتٍ طغى عليه الأمل:

- الله في السماء يا بربر، ولن يدع المذنبين يفلتون من العقاب.

- الله، الله، الله.. هذا الاسم يتكرر منذ أن عرفت نفسي. ها قد أتوا ولن أدهم يفلتون.

- اسمع يا فتى، سمعت أن فأراً صغيراً تسبب بدمار سدٍ هائلٍ قديم، فاطمئن يا بني، لأن المشاكل تأتي من تلقاء نفسها دون أن نطلبها، ولا ينقصنا إلا الأمور الطيبة.

عوى الكلب إثر ركلة شديدة من قدم بربر المتشنجة، وسمعه يصيح ملوّحاً بعصاه في الهواء:

- تباً لك وللفران، لقد سمعت أنك ستذهب إلى الأوغاد.

انفصل مهدي عن الراعي الصغير الساخط، ولسان حاله يقول: ما بوسع هذا الفتى أن يفعل؟ إنه فقط ينفّس عن غضبه ويركل كلبه المسكين، وهذا كل شيء، وسار في طريقه ثم فكّر أن عليه ألا يستخف بتهديدات الفتى، وقال لنفسه بيقين: "لا بدّ أن أحذّر الوجيه من نوايا هذا الفتى الساذج". وهذا روعه بعد هذا القرار.

ثم ما لبث أن ضحك بمرارة، كيف يحذر الوجيه قحطان وهو لا يدرك شيئاً مما سيجده أمامه هناك، قد لا يعود، وربما يدفن حياً في ذلك التابوت الحجري. ورغم خوفه الشديد صعد إلى التل، ووصل مع أشعة الشمس الدافئة، وتصدى له جندي مصري، وعندما أخبره عن سبب قدومه اقتاده إلى خيمة بيضاء عريضة، استلقى على أرضيتها ثلاثة أشخاص نائمين. كانت أنفاسهم المتعبة المضطربة تشير إلى استغراقهم في النوم، وتكشف عن إرهاقهم الجلي. انتظرهم في الخارج، وشعر بالملل، فمدّ نظره بحذر إلى حيث عثر على التابوت، ثم قام يتجول في الجوار بجراًة، ولسان حاله يقول إن كانت حياته ستنتهي هنا أو يُقاد إلى السجن فما الجدوى من الخوف والحذر الآن. وعند الحفرة التي حفرها سابقاً وجد التابوت خاوياً مشقق الجدران، مكسوراً من أطرافه، مرمياً بإهمال فوق كوم من التراب، وسأل نفسه عن مصير جثة المرأة المتييسة، هل دسّت في التراب، أم ألقيت في جزء ما على التل بعد أن سلبوا حليها الذهبية؟

عثر بالقرب على عدد من الحفر والتجاويف، واكتشف أن الرجال المتعبين في الخيمة ينقبون عن شيءٍ ما هناك، وجلس القرفصاء ممسكاً رأسه بين راحتيه، واستمر على وضعيته الثابتة المحتارة حتى سمع شخصاً يناديه، فاتجه صوب الخيمة. كان المنقب المصري بانتظاره، وصافحه بابتسامة عريضة قائلاً بانبساط:

- صباح الخير يا مهدي، أنا قنديل عبدالنور.

ردّ التحية بمثلها، دون أن يبتسم، وسأل باغتمام مشيراً إلى
التابوت:

- أين ذهبت جثة المرأة؟

ضحك قنديل وأجاب رامياً ذراعه في الهواء:

- لقد دُستّ بمكان ما في التل. إنها امرأة ميتة كما تعلم.

- والحلي والمجوهرات؟

- لا، وهل يعقل أن ندفن حليها معها! أرجوك.. لا تهتم، كل
شيء يسير على ما يرام. لدينا عضوان من قسم الآثار
المحلي.

وظهر رجل ربة مجعد الشعر يلبس معطفاً، ويمسك بيمينه
كعكة يأكلها، واليد الأخرى تقبض على كوب قهوة يتصاعد
البخار الساخن منه. كان هذا هو فرحان الحمق مؤرّخ
ومدوّن محلي، وبعد أن قدّمهما لبعضهما، هزّ الأخير رأسه
هزة خفيفة متكبرة مستعيضاً عن المصافحة، وقال بتهكّم وهو
يتلمظ طعامه:

- أديك خارطة للقى الأثرية في المنطقة؟

- لا، أنا فلاح أمّي، لقد جنّت إلى هنا لأستخرج قليلاً من
التراب، فعثرت على التابوت. ماذا تريدون مني؟

كان يتكلم بتوتر وخوف، فبادر قنديل عبدالنور قائلاً بكلمات
حادة مخاطباً رفيقه:

- اسمع يا فرحان، أنت تقوم بدور مخبر قدر، ولن أسمح لك أن تخيف هذا الرجل البسيط، إنه محظوظ كما سمعت.

هزَّ فرحان رأسه وانكمش كحلزون، وأوحى ذلك إلى أهمية قنديل في الفريق. فهدأ مهدي وشعر بالامتنان، وقال باحترام:

- أنت طيب يا أخي، وكان ينبغي أن أهديك رطلاً من السمن، امرأتي عاتقة تعدّه بشكل جيد. سأعود إليك في الغد.

- لا تهتم بالسمن، أنت ستعمل مع فريق التنقيب، يمكنك المغادرة اليوم، وفي الغد أراك هنا في الصباح الباكر، عليك فقط أن تبصم على ورقة التكليف.

- ماذا؟ أنت مخطئ يا أخي، فأنا كما تعلم فلاح وليس لي خبرة في هذا الشأن.

- أتظن أنني لا أؤمن بالكرامات والحظ؟ ثم إنك ستحصل على أجر يومي، ومكافأة دسمة في حال عثرنا على شيء نفيس.

- لا أدري، أخشى أن أخيب أملك، فأنا لم أخلق سوى للفلاحة في الحقول، ولا أظن المالك المراغة يقبل أن أهجر أرضه.

- دع أمر مالك الأرض لي، لن يرفض.

وصاح قنديل على فرحان طالباً منه بلهجة حازمة أن يجلب استمارة ومحبرة وورق رسائل، فأتى بتناقل يحمل ورقة رسمية مكتوبة ومحبرة، وبدا عليه الامتعاض، وهو يقول بصوت رخو متشائم:

- لا أظن أن يكون مفيداً في الفريق.

أمسك قنديل إبهام مهدي وغمسها في الحبر الأزرق، وطبع بصمته في آخر الورقة وأجاب بتفاؤل:

- أتعلم إن معظم القبور الفرعونية التي استخرجت من وادي الملوك اهتدى إليها فلاحون عفو الصدفة!

- نعم، يحدث هذا، لكنهم لم يكونوا ضمن فريق تنقيب.

- أراهنك على هذا الفلاح.

وضحك قنديل، ورقصت غدة عنقه المنتفخة، وأذن لمهدي أن يغادر بإشارة من كفه، ولاحظ الأخير التنافر العجيب بين جسدي الرجلين المصري والمحلي، طباعهما متنافرة وقسمات وجهيهما. فالأول سمين مكرش أبيض بحجم ثور عاش في القرية ذات يوم، ويبدو ضحوكاً متفائلاً غدياً كقدر مليء باللحم، والثاني نحيل ناشف كعود قصب في أيام القحط، ويلوح مكشّر مقطّب الحاجبين على الدوام كمن ينتظر حلول فاجعة قريبة. وعرف أنه ينظر إليه بتعالٍ ومقت وكأنه جاء لكي يسلبه منصبه، فحبذ أن ينصرف قبل أن يلتهمه المؤرّخ بعينيه المتورمتين.

-5-

كان في المنحدر العالي أغناماً، ورأى كلب بربر الأسود الوديع، وحاول أن يتذكّر اسم الحيوان دون جدوى، وتلّفت

في كل الاتجاهات دون أن يلمح الراعي، أين بوسعه أن يذهب؟ وفكر أن الفتى اقترب كثيراً من المنطقة المحظورة، وتنبّه إلى ضرورة تنبيه وجهاء القرية إلى سلوكه المريب، إنه يبدو فتى وديعاً مسالماً في القرية، لكنه ليس كذلك، ولا يستبعد أن يفعل شيئاً سيئاً فيلحق الأذى بنفسه وبالآخرين. أمه امرأة طيبة كادحة منهمكة في العمل بحقولها ومنزلها، ولن تتردد عن توبيخه إن أساء التصرف، وهو نفسه معجب بشخصها، لأنها استطاعت أن تعيش بين وحوش بشريين لا يلتفت أحدهم إلى جاره إلا ليسخر منه أو يترصد عيوبه.

سمع مهدي حفيف شيء فوق رأسه، فانحنى بشكل غريزي، وحينئذ ارتطم بالأرض حجر سريع وتدحرج للأسفل، فأدرك أن هذا الحجر أخطأ رأسه، وشاهد بربر في الأعلى يقف بشموخ كالمتحدي، وذعر مهدي وأسرع في مشيه. أيقن الفتى قد رآه يضع بصمته على الورق، ومن ثم يظنه متحالفاً والرجال الذين قتلوا والده؟ هل يراقبه هذا الشقي؟ دارت في رأسه أسئلة كثيرة محيرة لا جواب لها. وأيقن إن بربر أعلن الحرب عليه، ولا ينبغي أن يسكت. وهكذا أسرع مبتعداً عن مجال الخطر، متوقفاً أن تنهمر أحجار أخرى مميتة، لكن ذلك لم يحدث. كان حجراً واحداً. لا ريب أن الفتى بعث إليه تحذيراً.

دخل القرية لاهثاً خائر القوى ومنفعلاً، في رأسه أشياء كثيرة يود أن يعملها، ولا يدرك أي منها أكثر إلحاحاً. غير أن حفيف الحجر وصوت ارتطامه العنيف مازال يدوي في

رأسه. لذا سار لا يلوي على شيء متخطياً المنازل، يرد على تحيات النساء والرجال بهدوء مصطنع، حتى وقف متردداً أمام منزل الأرملة. لم يعد يأتي مؤخراً ليتحدث إليها ويمارحها، فقد أمسى ولدها بربر أكثر غضباً وعدوانية، وأصبح يتجهّم حين يراه. هل يزعجها الآن بما اقترفه فتاها الراعي؟ يكفي المسكينة ما تلقى من عناء في الوادي والمنزل. وماذا ستفعل من أجله؟ ستوبّخه، أو حتى ينال علقه شديدة من يدها، لكن من المحتمل أن يتفاقم غضبه أكثر، وقد يتضاعف شره. وذلك لأنه مراهق عنيد ومدلل، ليس هناك أصوّب من الصمت إذًا. وتقهقر إلى الوراء وقطع بضع خطوات فأوقفه صوت الأرملة الشهي:

- مهدي، رأيتك من النافذة، تبدو مغتماً، ماذا حدث؟

رأى جوهرة مبتسمة قرب الباب متوثبة كفرس جامح، فأجاب باضطراب:

- هاه، لا شيء، اطمئني.

- أتفكر أن تطلب يدي أيها الوغد؟

- ليس اليوم يا جوهرة، يجب أن أذهب.

- ماذا جرى لك؟ أخبرني...

لم يجب وكأنه لم يسمع. أسرع إلى منزله، وتسلل إلى الداخل دون أن تشعر عاتقة، ومكث بعض الوقت يفكر كيف يتقي شر هذا الفتى العنيد، ثم خرج شاقاً طريقه باتجاه منزل

الوجيه قحطان الذرب، فوجد المالك المراغة هناك ولفيف من الملائك الصغار، كانوا يتحدثون عن المنقبين والجنود بانفعال. بدت وجوههم كالحة يغشاها الغم والحيرة وكان هنالك مشكلة تشغلهم أو حادثة وقعت، وأحس أن عليه أن يطلعهم على تحركاته الأخيرة ومخاوفه. لا يدري كيف ستكون ردة فعلهم حين يدركون أنه وافق على العمل لدى فريق التنقيب. يخشى أن يعنّفه المراغة على فعله، فهو متعنت وثرثار ومبتز، ويضطهد الأجراء الذين يفكرون في التخلي عن أرضه. اقترب ببطء من المالك المتعنت وانحنى باحترام لكي يبوس قدميه كما جرت العادة، لكنه دفعه للأعلى، وبادره قائلاً بسخط:

- أعلم بما دبّرت أيها الخبيث.

تضرّج وجه مهدي بالاحمرار، فقد أهين للتو، وأكبر داهية تصيب الأجير هو أن يمنعه المالك عن تقبيل قدميه، وهذه هي المرة الثانية التي يدفعه عنه ويحرمه من هذا الشرف. سرت رعدة شديدة في جسده، وحاول أن يتذكّر ذنوبه الأخيرة، فلم يجد شيئاً سوى إضماره هجر الحقول والعمل مع فريق التنقيب. هل صار المالك يتنبأ بما تكنه الضمائر، أم أن قنديل بعث إليه أحد الجنود وكشف له الأمر؟ أراد أن يتكلم منافحاً عن نفسه، لكن صوت الوجيه قحطان الذرب صدر عارماً:

- أهذا ما يشغلك يا صاحبي؟ دعنا نفكر في المصيبة الأخرى التي وقعت فوق رؤوسنا.

تجراً مهدي وسأل قاطعاً على مالك أرضه السبيل للرد على
وجيه القرية:

- ماذا حدث أيها الوجيه؟

- هل صرت مالكاً يا مهدي دون أن أعلم؟ دعني أتكلم،
فالمشكلة الأخرى لا تخصك.

"وهل هناك مشاكل عديدة؟ استر يا رب"، همس لنفسه.
وانتابه كثير من الغم، وخفض رأسه لائذاً بالصمت كما تعلم
من المرحومة أمه. أخذ المراغة نفساً عميقاً وأضاف قائلاً
للوقيه:

- أيها الوجيه، أخشى أن يكون الفاعل أحد أهالي قرية الأكمة.
من تظنه يجرؤ على قذف الجنود وفريق التنقيب بالحجارة؟

ولاحظ الأجير مهدي أن الرجلين اكتفيا منه، وصرفا
وجهيهما بعيداً، وهذه إشارة واضحة أن بقاءه في المقدمة لم
يعد مناسباً، فضلاً عن نظرات الملاك الصغار الحاقدة. لم
يكن الحال موافياً للكلام، لا أحد يدرك أن لديه كلاماً خطيراً
يود أن يفضي به إليهم بخصوص تصرفات الراعي الصغير
وتصريحاته الخطيرة. انسحب مهدي إلى الخلف كما ينبغي
لأجير أن يفعل، فانتقل الحديث إلى صغار الملاك، وقال
عمر العميس بتوجس:

- ليس أمامنا من حيلة سوى انتظار عودة الرعاة
واستجوابهم، فقد يعرفون شيئاً.

- وهل ننتظر حتى يعودوا في آخر النهار؟
ردّ المراغة على صديقه المغتمّ العجول قائلاً:
- الاقتراب من التلال الآن أمر خطير، فالجنود لا ريب
غاضبين ويصوّبون أسلحتهم متربصين بالفاعل.
- هل تستطيعون أن تحصوا الرعاة الذين سرحوا قطعانهم
ناحية التلال القريبة من الأكمة؟
- أجاب مالك صغير يدعى غانم المحنش:
- قرينتا صارت كبيرة، وعدد الرعاة في تزايد مستمر.
- صاح وجيه القرية بنزق:
- هذا ليس جواباً، سوف ننتظرهم قبل المغيب على مشارف
القرية ونستجوبهم.
- مطّ مهدي عنقه وهمهم ليلفت انتباههم إلى نفسه، واقترب من
دائرتهم شبه المغلقة، لكن صغار الملاك دفعوه إلى الخلف
دون أن ينظروا في وجهه، إنهم يفعلون ذلك مع كل أجير،
ألن يتخلوا عن هذا التصرف الأرعن هذا اليوم؟
- عرف مهدي أنه يهدر وقته، فغادر المكان وهو يشعر
بالحنق. وفكر أنه قد يجد فرصة في آخر النهار، وتمنى ألا
يلتقي بأولئك الملاك الصغار المغرورين قرب وجيه القرية،
لا يدري ما يدعوهم إلى التبجح، فقد كانوا في يوم من الأيام
أجراء بسطاء، ثم بطريقة ما امتلكوا بعض الحقول، وأجروا
الأرض ليحظوا بامتياز الملاك، وكان بوسعهم أن يفلحوا

حقولهم بأنفسهم، ومن ثم يستفيدوا من غلالها كاملة، لكنهم شاءوا أن يظهروا كأثرياء، ودائماً ما يفعلون أشياء سخيفة مثيرة للشفقة، أحياناً ينفخون جيوبهم بأوراق فارغة ليوهموا الناس بأنها نقود، ويتحدثون كذباً عن آلاف الريالات التي كسبوها من الغلال، وبينما يظهرون بمظهر الوجهاء، وينتفشون وسط أثوابهم الرخيصة، تستعير نسائهم خفية الطحين والسمن من نساء الأجراء، وقد يأتي اليوم السابق لعيد الأضحى دون أن يكون لديهم أضحية، ومن ثم يتسللون خفية في المساء ويرهنون شيئاً من حلي نسائهم لدى أحد الرعاة مقابل كبش العيد، لكنهم مع ذلك يحرصون على إخفاء فقرهم، ويظنون أن لا أحد يعرف الحقيقة، لكن الأجراء يدركون كل شيء، ورغم ذلك يكتمون السر، متظاهرين بالجهل التام.

بدا مهدي غاضباً، وهو يدنو من منزله ببطء، كان في عوز شديد لشخص يبادل الحديث. لمح عاتقة جالسة تطعم بقرتها، فدنا منها، وأحس أن ذلك سيبدو غريباً، إذ لا أحد منهما يقاطع الآخر أثناء عمله، صارا في المنزل كغريبين، لا يتكلمان سوى القليل من العبارات عند الضرورة، ولم يعودا يتقابلان سوى بضع لحظات عند تناول الطعام. في المساء يتجهان إلى الفراش بصمت ويستلقيان بإنهاك، ثم يولي كل منهما الآخر ظهره، وينامان. ولعله ذات يوم أحس بنزوة جارفة في جسده، فاحتضنها من الخلف، لكنها أجفلت ودفعته عنها وهي تقول باستنكار: "هل جننت يا رجل؟"، وعرف أنه

فعلاً مجنون، ومذ ذاك لم يعد يستمع إلى نزواته، لكنه الآن يريد أن تصغي لكلامه، إنه ممتلئ إلى شحمتي أذنيه بالهموم، ولا يدري كيف يمكنه أن يشرح لها عن وظيفته الجديدة في التل، هل يخبرها أنه لم يعد أجيراً للمراغة؟ لا شك أن هذا النبأ أشبه ما يكون بخبر النعي، ومع ذلك ينبغي أن يفصح عما يدور في نفسه كرجل جسور.

ولم يكن صعباً على امرأته أن تُدرك أن شيئاً غير اعتيادي قد حدث. فاقترا به من ملجأ البقرة بحد ذاته أمر نادر، ولا يستبعد أن يكون وراء ذلك شيء فظيع، أما جنونه وخرابة أطواره فلم تعد تشك في صحتها.

وسمعتها تقول بتأوه:

- أووه، استر يا رب.

جلس على نتوء حجري بارز، وراح ينكش التراب بعود جاف عثر عليه في الأرض، فتابعت تقول بتوجس:

- ما بالك تنكش التراب كالديك المسعور؟

لم يكن أمامه مجال للمناورة، ولا يعرف كيف يبتدئ الكلام، لكنه حبذ أن يبدأ بالخبر المستساغ، فأعلن عن ضجره من سوء أخلاق الفتيان، ولاسيما الرعاة، فقد كاد أحدهم يقوده إلى حتفه بواسطة حجر ألقاه من مكان مرتفع، ويبدو أن هذا الفتى هو من ألقى الحجارة على الجنود وفريق التنقيب المرابط على التل، وهذا مجرد احتمال قوي. وما زال الأهالي يبحثون عن الفاعل. شعر بإصغاء امرأته واهتمامها،

وانتظارها المزيد، فانتابه الفرح لأنه استطاع جذب انتباهها،
وحبذ أن يكتفي بهذا القدر من الكلام، لأن ما بقي في
حوصلته لا يسر، فانتفضت عاتقة من موضعها وقالت بلهجة
غاضبة:

- من تظنه ألقى الحجارة؟ لا تكتم عني شيئاً.

- بربر.

زمت شفيتها بلا مبالاة وردت باستبعاد:

- أنت مخطئ، ذلك الفتى اليتيم لا يفعلها.

- ما أنا على يقين منه هو أنه رمانى بالحجر، لم أرَ راعياً
غيره على التل.

- دعك من هذا الأمر، وأخبرني ماذا أراد منك أولئك
الأغراب؟

- ليسوا أغراباً، لا يجوز أن تتعتيهم بهذا اللفظ، إنهم فريق
تنقيب وجنود جاؤوا من طرف الدولة.

- أياً كانوا، ماذا يريدون منك؟

عاد إلى نبش التراب بالعود وأجاب دون وعي:

- عرضوا عليّ أن أعمل معهم في التل.

لم تفهم عاتقة للوهلة الأولى، وصمتت، فتجراً ورفع عينيه
إلى وجهها متلصصاً بحذر، وبعد لحظات أجفالت فجأة
وصرخت بصوت مزعج:

- هاه، ماذا قلت؟ يريدونك أن تعمل معهم، وهل وافقت؟

صمت وعاد ينكش التراب بتوتر، فمضت تولول وتلطم
وجهها معقبة بصوت فاجع:

- يا ويلنا، لن يبقي علينا المراغة، سيهلكنا. يا ويلنا، ما أبشع
هذه النهاية...

- المراغة لن يجرؤ أن يعصي أمر قنديل رئيس الفريق.
أرجو أن تعدي له أجمل رطل سمن في حوزتك، لقد قطعت
له وعداً.

- أي قنديل وأي رطل سمن؟ المالك لا يخشَ أحداً. يا ويلنا...

- اسكتي أرجوك، لم أعد أجيراً عند هذا الرجل، ليس في يدي
أو يده حيلة. الأهالي جميعهم في ورطة ويبحثون عن قاذف
الحجارة على الجنود.

كفكفت دموعها، وانتبهت إلى هذه المشكلة الأفدح، فاستغل
الفرصة، وانسلَّ إلى المنزل ليفكر بهدوء في ما ينبغي عليه
أن يفعل. لقد كتم عنها أن المراغة منعه عن تقبيل قدميه،
خشي عليها من وقع هذا الخبر المفجع الذي لا أمل وراءه.

مضى الوقت دون أن يتوصل إلى شيء من التفكير، فهو
غير معتاد على إبرام الحلول، عاش معظم عمره دون تفكير،
لأن الأجير يتلقى التعليمات والأوامر من مالك أرضه،
والأخير هو الذي يفكر ويأمر. وما زال يتذكر عندما كان
صغيراً أن أمه الأرملة الجبارة "تقية" طاردته في أرجاء

القرية لتجبره أن ييوس قدمي المراغة الأب، لكنه كان سريعاً مثل أرنب بري، وصغيراً بحيث لم يدرك حجم الحرج الذي أصاب الأم. يومئذٍ عادت خائبة الرجاء، وسقطت عند قدمي المالك باكية معذرة عن سلوك ولدها القبيح، ووعدت أن تجلبه إليه مزقاً من لحم، فقال لها المالك بصرامة: "ما زال صغيراً لا يفهم، وحين يكبر سيلتزم بالتقاليد. لا أريد أن تمسبه بسوء يا تقية". وفعلاً لم تلمسه كما طلب المالك، وكان محظوظاً. وبعد قليل من السنوات، إثر بلوغه الحلم، صار ينحني ويقبل القدمين دون خجل.

أما اليوم فهذا التقليد أخذ في التلاشي، بعد أن أطاح الجمهوريون بالملكيين، فقد دخلت إلى البلد أفكارٌ وسلع جديدة، وصار الفتيان أكثر تمرداً على التقاليد. ولن تجد أياً منهم ينحني للملاك وكبار السن. وتفيد الأخبار أن الجيش المصري ما زال مرابطاً في صنعاء كحارس أمين للجمهورية. ويدّعي ملاك الأرض أن المصريين يغتصبون النساء وينهبون الخزائن ويزرعون الفوضى في كل مكان. وكذلك يطالبون بمساواة الأجير بالمالك وتوزيع الأرض على الجميع بالتساوي. ورغم إغراء هذا الجزء الأخير إلا أن الأجراء لا يؤمنون أن في الدنيا التعيسة حالٌ أفضل من حال، لذا يخشون أن تتغير تقاليدهم، كما يخشى الساهر من انبلاج الصبح قبل أن يداهم النوم. هكذا كانت حياتهم، بأئسة وسعيدة. وهائلة وشحيحة. وبات مهدي يجري مقاربة سريعة للماضي والحاضر، محصياً مزايا كل زمن.

وفكّر حتى دفر العرق إلى ملبسه، وشعر بوجع في صدغيه، ولم يجد تفسيراً لسبب خشية الناس أن تنفرط تقاليدهم، وسرعان ما تنبّه إلى شعور قوي يخامرّه، شيء يشبه الخوف من المجهول، الخوف من الولوج إلى قلب حرية لا آخر لها سوى الفوضى، فأمزجة الناس وأشكالهم وأفكارهم غدت متمرّدة وخطيرة، ويخشى أن ينفلتوا من عقالهم، ويحطموا أنفسهم وممتلكاتهم، وفي هذه الحالة يتحتم حمايتهم وتكبيّلهم، وقد رأى ملابس فتیان قلائل منبوزين عادوا من المدينة، بينطلونات كسراويل العجائز وسترات غريبة، وقصّات شعر مائعة. وظلّ يتقيأ طوال النهار، وسمع الضابط حميد حيدري يقول بأن الحرية ليس لها ثمن، وعلى الناس أن يتنازلوا عن بعض ما يظنوه صحيحاً لينالوا القليل منها، وإلا فإنها بعيدة المنال عن الخائفين المخدّرين بأوهام الخلود. وانضم إليه عدد من الفتیان المتحمسين، وشجعهم على الذهاب إلى المدينة للدراسة، ولكنهم عادوا بملابس إفرنجية معطرّة، وأجساد رخوة مدهونة، وصاروا يحركون أفواهاً رخوة تمضغ العلكات، قائلين بنبرات ذات رنة أنثوية: "إما حرية كاملة غير منقوصة، أو عبودية كاملة أيضاً. فالحرية لا تتجزأ أو تؤخذ على جرعات، وليس لها حدود أو ثوابت إلا القانون".

كلامٌ غريب وخطير وغير مفهوم نطقت به شرذمة من الفتیان الشاذين. لم يعودوا ينشدون القليل كمن سبقوهم من المناضلين، وهذا بعث الخوف في نفسه من النظام

الجمهوري، ومن مبادئه الجريئة التي تسخر من التقاليد والنظام الطبقي في البلاد . لم يدرك أو يتصور البتة أنه في طريقه ليعيش مغامرة لم تخطر له على بال، ولم يكن ليرى شيئاً لو بقي إلى الأبد مختبئاً في قريته. وهو بطبيعة الحال لم يكن يحبذ أن يغادر أرضه، لكنه سيُقذف خارجها مجبراً. كان يظن أنه سيموت، ولن ينجو من مكر قنديل عبدالنور.

صار من الصعب عليه أن يفكر بشكل جيد، أو يختار، لأن حريته كانت محدودة، فهناك من يفكر عنه ويضع له الخيارات التي يتبعها، لم يكن في الغالب يجهد نفسه بالتفكير، وهذا يبرر الإرهاق الذي أصابه. وكان من الطبيعي أن يخطئ، ويندم على تسرّعه بقبول العمل مع فريق التنقيب، وهكذا ظنّ أنه خُدع و غُرر به، وخاف أن يصبح شاذاً ومنبوذاً في القرية، فأعضاء الفريق يرتدون بنطلونات واسعة وسترات قصيرة الأكمام، وجوههم مُرد متوردة لاسيما قنديل رئيس الفريق، أما الجنود المصريين، فقد بدت أشكالهم غير مريحة رغم ما يدركه عن رفعة شأنهم وأهميتهم. ولا ريب أن العمل معهم مجازفة غير مأمونة رغم ما لصحبة الأعراب من إغراء، فقد يطردونه في أي لحظة، ومن ثم يخسر حقوله. لا يدرك كيف سحروا عقله حتى وافق على مراقبتهم.

في النهاية أوقف عجلة تفكيره، وراح يتفقد المعاول والرفش والأدوات الزراعية التي سيستعملها في ذلك الصيف، وفكر أن يشحذها وينظفها مما علق بها من تراب وحصى، وشغل

نفسه بهذا حتى سمع نداء الغداء، ووضعت عاتقة طبق العصيدة الحار والخبز، وجلست أمامه معلقة آهة تعب مكتومة، فأعلن بصوت خشن عن إغائه عقد العمل الجديد، وعن قراره الأخير باسترضاء المالك، ثم نظر إليها متعشماً المؤازرة، وقد ظهرت على وجهه مسحة ارتياح و يقين، لكن أحزنه أن يسمعها تقول بصوت كسير:

- أخشى أن يكون الأوان قد فات.

- لا تقولي ذلك، سأذهب إلى المراغة في منزله، فامرأته "تقوى" تقف دائماً في صف الأجراء.

وابتلع طعامه بعجل، ومسح يده بمنزره الرث الداكن الذي يخفي الأوساخ، وانطلق إلى منزل المالك، وألصق أذنه بالباب، وأحس بالهدوء النسبي الذي يرافق الجلوس على المائدة، فانتظر بأدب جمّ حتى يفرغ أهل المنزل من وجبتهم، وحين سمع أصوات الأقدام تتحرك بالداخل قرع الباب بخفة، وجاءه صوت المراغة الفظ:

- من بالباب؟

صاح بصوت ضعيف كالمواء:

- أجيرك مهدي.

- ماذا تريد أيها العاصي؟ ألم تطعمك أرضي حتى تفكر أن تهجرها وتعمل مع أولئك الأوباش؟

شعر بالخدر في ساقيه، حتى سمع صوت تقوى وكأنه غيث
مدرار بعد قحط:

- ادخل يا مهدي، لست غريباً.

تردد في الدخول حتى جاء صوت المراغة اليأس واهناً
يأمره بالدخول.

وانفتح الباب، فدخل يمشي الهوينى منكساً رأسه إلى الأرض،
ورأى الرجل بين أولاده وبناته يحتسي القهوة، فانكبّ على
قدميه، ولم يستطع المالك أن يمنعه بحضور امرأته تقوى،
فسمح له مرغماً واكتفى بالقول بنزق:

- لم تعد أجيري.

- لكني لن أعمل مع المصريين.

تدخلت تقوى قائلة بتملق:

- امنحه الأرض، إنه في منزلك، مهدي أجير طيب.

صمت المراغة ليعطي موافقته طعماً لذيذاً كنكهة القهوة التي
يشربها، وطلب غليونه المحلي، وأشعله بتأنٍ، وظلّ الجميع
في انتظار قراره. كانت ملامحه قد لانت، وحركاته تنبئ عن
فرج قريب. تسمّر الأولاد والبنات بمواضعهم احتراماً لتلك
اللحظة المرتقبة، بدوا متعاطفين مع الأجير المسكين الجاثم
بأرضية الغرفة كالمذنب. أخيراً نفث المراغة دخان غليونه
في وجهه وكأنه ينفحه ببركاته، وأعقب قائلاً ببرود:

- عد إلى الأرض، لقد عفوت عنك.

انبسطت الوجوه بفرح، وقفز مهدي وقبّل قدمي المالك،
وانصرف وهو بمنتهى السعادة كما لو أنه رُزق بمولود.

-6-

في آخر النهار اجتمع الأهالي على مشارف القرية ينتظرون
عودة الرعاة، فقد غابت الشمس خلف الشفق البرتقالي منيرة
الأفق البعيد بألوان زاهية، لكن الرجال لا يابهون للسماء
وجمالها وبهجتها، فليدهم ما يشغلهم. كان الوجيه قحطان
الذرب يقف متحزراً محاطاً بملاك الأرض الصغار، ويظهر
إلى جانبه صديقه المؤلف المراغة بمعطفه الأسود المنفوش،
والأجراء يقفون بعيداً عنهم، ولا يجرؤون على الاقتراب.
أقبل مهدي نصاري مهرولاً مثقلاً بالسر الذي يحمله، ووقف
بين الأجراء متردداً، ثم تقدّم خطوة واحدة جريئة، وأثار ذلك
حفيظة الفلاحين، ونبّهه جاره معوض قائلاً باستغراب:

- هل جننت يا مهدي؟

تراجع خطوة وحكّ قرن رأسه وأجاب:

- لدي ما أريد قوله للوجيه، شيء هام جداً.

- لن تستطيع الآن، ألا ترى بعينيك؟

رمى مهدي بصره إلى حيث أشار جاره، فلاحظ أن الوجيه
والملاك يتأهبون لاستقبال الرعاة، الذين أقبلوا بقطعانهم من
طرق متفرقة. واقترب أول الرعاة من الجمع، فاشتدت

عضلات وجه مهدي وهو يراه، ودنا دون شعور من حلقة
الملاك، ودبّ الفضول في نفوس رفاقه، فاقتربوا بحذر،
وتوقفوا خلف مهدي، وشعر الملك الصغار بهذا الزحف
الناعم والاقتراب، لكنهم لم يستطيعوا إثارة الموضوع،
فاكتفوا بتوجيه نظرات صارمة إليهم، وذلك لأن وجيه القرية
قحطان الذرب شرع يتحدث سائلاً الفتى الصغير بحزم:

- هل رأيت شخصاً يتسكع قرب تل الأكمة يا بربر؟

قال الفتى بمكر:

- رباه! لم أرَ أحداً، ماذا حدث أيها الوجيه؟

صاح وجيه القرية في وجهه بسخط:

- لا شأن لك، انصرف الآن.

سار خلف قطيعه دون أن يرف له جفن، فهو ابن ضابط
شهيد من ضباط الثورة الأوائل، ويحمل في وجهه بعض
ملامح والده المهيب، ولحق به مهدي وهو يقول في سره
بحقد: "يا له من ماكر، لقد رأني قريباً من التل ولكنه لم
يتكلم، لأنني سأفضحه. لن أغفر لك يا بربر". واقترب منه،
فأشاح الفتى نظره بعيداً، وراح يدندن بلحن أغنية محلية،
وألقى في وجه مهدي نظرة بريئة، ما أغاظ الرجل الراشد،
فاندفع صائحاً في وجهه بنزق:

- بربر، لم فعلت ذلك يا بني؟ هل أنت معتوه؟

تجاهل الفتى كلامه، وتتنحى عن طريقه، وأخذ يصرخ في كلبه ويركله: "كمال، ابتعد عني أيها الخائن. سأقطعك إرباً". وأحس مهدي بالخوف، وكان الكلمات موجهة له شخصياً، وارتاب أكثر، وأيقن إن الفتى ليس متزناً وبريئاً كما يظن الجميع، وعاد محتدماً إلى الحشد، فرأى الوجهاء يستوقفون الرعاة الآخرين، ويوجهون إليهم الأسئلة الكثيرة، ويثقلون عليهم بالخطب الفخمة عن واجبهم في مراقبة التل الذي يقطنه فريق التنقيب، وعن الكوارث السوداء التي تهدد القرية في حال استمر المذنب يمارس عمله الفظيع، ثم استشرى الغضب في أصوات الملاك، وامتدت أيديهم الغليظة إلى أجساد الرعاة، وأمسكوا بياقات مآزرهم المهلهلة القصيرة، وأخذوا يهددون باعتقالهم إن تكرر الحادث.

رجع مهدي إلى منزله وهو مشحون بالغیظ، وانتقل الألم إلى معدته، فتقلصت واشتعلت ناراً، وصار يتدحرج بألم في أرضية غرفته. أسرعت عاتقة وجلبت قُرْعَب^٦ الحليب، وأطفأت حريق أحشائه بجرعات دافئة طازجة سكبته في ثغره المفتوح. بعد قليل هدأ وجعه فاعتدل جالساً، وجسده ينتفض كالمحموم، وسمعت امرأته صوته الضعيف وهو يصدر وسط اصطكاك أسنانه:

- بربر شيطان...

صاحت امرأته بغیظ:

^٦ ثمرة قرع صغيرة جوفاء مفتوحة من الرأس، يُحفظ فيها الحليب واللبن.

- ماذا جرى لك يا هذا؟ دع الفتى اليتيم وشأنه.

- الشيطان ليس بريئاً.

- نم يا رجل، أنت محموم.

استلقى على الحصيرة الباردة الوحيدة في الحجرة، فألقت عليه لحافاً غليظاً تدخّره لليلي الشتاء، ونامت جواره مولية وجهها باتجاهه، وكأنها تخشى أن يموت دون أن تشعر.

حين أفاق فجراً كان شاحباً كالميت، فارتعبت زوجته، وجلست تراقبه بقلق، حتى رأت اللحاف يتحرك فوق بطنه، وعندئذٍ تنفست الصعداء، ومضت إلى بقرتها وحلبتها، وجعلت تسكب الحليب في دُبْيَةٍ كبيرة جافة، ثم أضافت بعض الماء ليتسنى لها أن تنفخ جاراتها الكسولات بعض اللبن، وهزت الحَلَّةَ ملياً حتى راب الحليب، وكشطت الزبدة الطافية على سطح السائل الفقاعي اللزج، إذ اعتادت أن تجمع أرطال السمن، والأكثر يذهب للمالك المراغة الذي يأخذها مقابل العلف والقصب الذي تأكله بقرتها من أرضه. سخنت الزبدة المتجمعة على قدر صغير، وسكبت السمن السائل وسط أنية فخارية فارغة، وترددت قليلاً، ثم أخرجت من مخبئها أخرى أكبر حجماً مليئة بالسمن القديم الجامد مسدودة بكسرة جافة من مِحْجَانٍ^٦ الذرة. كان قلبها ينتفض حقداً على مهدي، إذ يضرب وعوداً ويبيدي كرمًا للناس دون أن يسألها عن مقدار

^٦ ثمرة قرع كبيرة جافة ومجوفة.

^٧ المِحْجَان: كوز الذرة الشامية، ويقصد به هنا الجزء الجاف الخالي من الحبوب.

السمن الذي تكنزه، فهو أجير تعيس الحال، لا يطعم البقرة ولا يخلبها، ولا يقترب من مأواها، ولا تظنه يتذكر عمرها ومواليدها.

سمعت تحركات جاراتها، وأصوات الفلاحين المبكرين، وهم يخرجون من منازلهم، ويتبادلون تحية الصباح، فغادرت بيت النار وهي تحمل الأنية الفخارية بحرص، ودخلت حجرة زوجها متحفزة لإيقاظه بعنف، لكنها رأتة مشمراً يرتدي مئزر العمل المترب، فتوقفت الكلمات في حلقها، ونظرت إليه بدهشة وقالت بارتباك:

- هل تنوي أن تذهب إلى الحقول؟

- نعم، سأحرق حقل المردم، لأثبت للمراغة أنني لم أعجز بعد.

- ورطل السمن هذا، هل ستبعثه للرجل...؟

- تقصدين قنديل، إنه ينقب عن الكنوز كما فهمت، ولم يتحمس حين أخبرته، ناهيك أنه سمين وجسده مليء بالدهون.

- ولكنك ضربت له وعداً.

- احتفظي بالسمن، لم أعد أرغب بالعمل مع أولئك المصريين. لا أود أن أقابل قنديل أو غيره.

- ألا تخجل؟ لقد وافقت على العمل ووعدته بالرطل، ثم تنكث بوعدك دون أن تقدّم لهم تفسيراً؟

- أنتِ تتصرفين عكس ما أريد، ولو كنت قررت الذهاب إلى التل لاختلقت عشرات المشاكل لتعيقيني عن العمل مع المنقبين.

وخرج محتداً واثقاً من نفسه، كان يظن أن من حقه أن يتراجع في أي لحظة، دون أن يلحقه أي عتب، فالوعد الذي قطعه لقنديل أتى سهواً في لحظة امتنان، أما الحبر الذي لطّخ به إبهامه فقد مسحه حال عودته، وهو رجل أمّي لا يفقه شيئاً ومن السهل خداعه، وتعجب كيف استطاع أن يقتنع بشيء فظيع كهذا، لكنه بمجرد أن استيقظ من النوم كان قد نسي كل شيء. لا ريب أن هذا المصري الخبيث من بقايا سحرة فرعون، لا يمكن أن يفعل ذلك سوى ساحر. هناك تهديد آخر لا يجب أن يغفل عنه، وهو الراعي بربر، لن يدعه هذا الشيطان في حاله إن تعاون مع قنديل ورفاقه. إنه فتى مجنون لا يدري أحد ما يدور في رأسه.

وهكذا وجد نفسه أمام منزل كبير بثلاثة طوابق وله ملحقات وحظيرة واسعة، وكلها يملكها حمادي الحبشي، وهو أجير ميسور الحال في سحمر، ويقال إنه يتصيد حقول الملاك المفلسين كما يتصيد القط الجرذان الصغيرة، ويطلق على نفسه لقب أجير بتواضع مآكر، يفعل هذا حتى يبتعد عن مجالس الملاك ومناسباتهم، ومن حسناته كذلك أنه يضع زربته في خدمة الأجراء، فيعيرهم الثورين والمحراث دون أجر.

وقف مهدي وطرق الباب المفتوح تأدباً، فخرج حمادي لاستقباله، واندھش وهو يرى العلف المبلل والقصب على ظهر صاحبه، فقال بلهجة جادة:

- لم تسطع نجمة نيسان في الأفق بعد، أين عقلك يا مهدي؟

نظر مهدي إلى السماء بقلق، وردّ بحدة فلاح فطن خبير بمعالم الزراعة:

- وهل أنتظر حتى تلمع الخبيثة بعد يومين ثم آتي إليك ولا أجد الثورين والمحراث؟

ضحك حمادي وأجاب مازحاً:

- ليس هذا غريباً عليك، فدائماً تفاجئنا في كل موسم.. خذ الثورين والمحراث أيها الخبيث.

حمل المحراث وملحقاته، وساق الثورين أمامه مزهواً، ثور أحمر هرم بقرنين معقوفين، والآخر أبيض يافع. كانت تلك أسعد لحظاته، ظنّ أن الدنيا بأسرها صارت في قبضته، وأخذ يسبح في أفكاره المستثارة، سيشير إليه الأجراء مغتاظين ساخرين من تصرفه كما يفعلون في كل موسم، وفعلاً سمع همسات استنكار تدور حوله، لكنه لم يقف ليجادلهم، بل سار في طريقه متجاهلاً، مترنماً بلحن أغنية قديمة مجهولة المصدر، فبرزت عضلات صدره المكشوف وساعديه المشمرين، ولم يعد يحس بثقل المحراث وطعام الثورين، بدا وكأنه يحمل سلة فارغة أو حزمة قصب جافة. كانت حمولة يتعذر على رجل عادي أن يتحملها، ورغم ذلك اجتاز الطرق

المتعرجة باتجاه طرف الوادي البعيد حيث يقع حقل المردم، وانطوت المسافة سريعاً، وجعل يركب المحراث عند طرف الحقل مخاطباً الثورين بلغة يفهمانها. كل ثور له اسم معروف، الأحمر زهر، والأبيض نَعِم. شرع يحرث عائماً وسط عمله، غير آبه بأي شيء في محيطه. وأطلق صوت المَهَيِّد، فهزَّ الثوران رأسيهما وكأنما تملّكهما الطرب والحماس، وتقدّما شاقين الأرض بجسارة.

كان زهر الهرم يمشي بوقار شيخ كبير، لأن رصيده حافل بسنوات من الخبرة، لكن نَعِم على خلافه كان حروناً، عجول الخطي، وقليل الصبر. حاول كثيراً أن يمشي على هواه، متخطياً رفيقه، وكأنه يريد أن يثبت قوته وشبابه، فرفع مهدي العصا الطويلة في الهواء مهدداً، ورغم ذلك لم يستعملها، أراد فقط أن يحد من غرور الثور وحرنه، وأجدى التلويح باستعمال العصا نفعاً، وسرعان ما انتظم الثور الأبيض، وسار على درب رفيقه الهادئ بتناغم مثير، فانضبط إيقاع العمل كما يتمناه أي فلاح يحرث الأرض، وهذا أتاح لمهدي أن يعود ويترنم بمَهَيِّد⁹ الفلاحين..

يقول على ابن زايد يا ليت لي قلب سالي

أحرث على الثور الأبيض ولا علياً ولا لي

يقول علي ابن زايد ما زايد إلا أنت يا الله

حولين من المال يكفي أو ولد إذا أصلح الله

⁹ ترانيم خاصة يرددّها حارثو الأرض، ومعظمها حكّم زراعية قديمة متوارثة.

يقول علي ابن زايد يا ليتني من سحرّ

أحرث بثور الحبشي وأكل من البر الأحمر

وما أخاف من عسكر التل ولا من أحجار بربر

وجاشت نفسه وتأثر، وبدا وكأنه متصلّ بقوة غامضة تمنحه الثبات والقوة، وصار بوسعه أن ينظم أقوال كثيرة لعلّي بن زايد من تأليفه، وبينما هو يترنم سمع ارتطام شيء ما على الأرض، رنا صوب التل المقابل، ورأى الأغنام والفتى الراعي، فتعجب كيف يستطيع بربر أن يقذف حجراً إلى حقله البعيد، ثم فطن إلى أنه يستعمل مقذافاً مطاطياً، فقد كان راعياً ذات يوم ويعرف هذه الأداة، لكنه الآن لن يأبه، لأنه وبكل زهو يحرث الحقل، وهي لحظة مقدسة لا يمكن لمباهج الدنيا أو كوارثها أن تشغله عنها.

رفع صوته أكثر مترنماً بالمهيد، فاخفى الراعي وأغنامه وراء التل، ولم يعد يرى أي شيء غير الثورين زهر ونعم. حتى نسي نفسه وجوعه، كان العرق يغشى وجهه، ويقطر على ملابسه، وبعد لحظات هيئ له أنه رأى امرأة في الطرف الآخر من الحقل. بدت تشير له بتوتر وكأنها تحدّثه أو تناديه، فأدرك أنه ترنم كثيراً بحيث انسدت حاستا البصر والسمع لديه، فأوقف الثورين، وجعل يمسح العرق حول جفنيه، ويزيل ما علق على حاجبيه ورموشه. وثبت نظره إلى القادم وأصغى. وفرح وهو يشاهد عاتقة تقترب، كانت

تحمل على رأسها غداءه، وحينئذٍ أحس بالجوع، فقاد الثورين إلى ظل شجرة طلع تقف بمؤخرة الحقل، وفكَّ المحراث.

أناخت امرأته حمولتها، وانتحت جانباً لتطعم الثورين بعض العلف، وقالت بصوت طافح بالغضب:

- كيف أناديك دون أن تجيب ندائي!

أجاب زافراً الهواء من صدره:

- لم أسمعك، كنت خلف الثورين أرفع صوتي بالمهيد.

- اليوم أصيب جندي بحجر وقع على رأسه، والخوف الآن يعم أرجاء القرية. والوجيه وملاك الأرض مجتمعون، ولا أحد يدري من فعل ذلك.

- لا شأن لي بهذا، لا أحد يريد أن يسمعي.

- لعل الجندي جاء يطلبك لكي تصعد إلى التل، ألا تكثر بما يجري في القرية؟

- وهل أنا الرجل الوحيد في سحمر!

- لا أدري، هم يظنون أنك رجل محظوظ كما سمعت، لهذا السبب يبحثون عنك.

- بل يريدون أن أخسر أرضي.. فليبحثوا عن الفاعل، بربر يملك مقذافاً مطاطياً.. انظري، كان على ذلك التل، وقد قذف حجراً باتجاهي.

أشار إلى التل المقابل، فنقلت عاتقة بصرها إلى هناك، ثم
رنت إليه باستنكار وقالت:

- أنت معتوه لا شك! التل بعيد...

- إنه شيطان ماكر و...

قُطع كلامه حين تعالت أصوات النداء من الجوار، كان هناك
أجير يصيح قائلاً إن وجيه القرية والملاك في انتظاره، ولا
ينبغي أن يتأخر، فرمى اللقمة من يده بحنق، وحمل المحراث
وساق الثورين أمامه بإحباط، وعاد متبرماً.

-7-

انتشرت حالة من الهلع في القرية في وقت مبكر من
الصباح، وتحركت الأقدام والأيدي بقلق، واشتعل الوجيه
قحطان الذرب غضباً حتى أوشك أن يحترق واقفاً. أما
الأجراء الذين هرعوا يزفون الخبر إليه، فقد توقفت قلوبهم
لبعض الوقت، وماتوا خوفاً، ثم انبعثوا ليشهدوا على هذا
الحدث غير المسبوق. وراحوا يلومون بعضهم بفجاعة: كيف
يموت رجل مجهول دون أن تشعروا!

لا أحد يعرف الموضع الذي وقع فيه الحادث، ومع ذلك لن
يستطيعوا أن ينكروا أنهم عثروا عليه في تخوم قريرتهم، يبدو
أن الرجل لم يستسلم، بل زحف ساحباً وراءه خيطاً طويلاً

من الدماء حتى سقط قرب القرية، وقد عثرت عليه إحدى القرويات وظنته في البداية خرقة حمراء، ثم لمحت إلى جواره قطعة سلاح غريبة، فانتابها الشك، واقتربت منه بما يكفي لتعرف بأنه إنسان غريب همد ملطّخ كلياً بالدم.

وسرعان ما استدعي الصوفي عطية إلى المكان ليفحص الجثة، فأقبل مهرولاً يحدوه فضول شديد لاكتشاف ما يجري. وتلصص على نبض الرجل وأنفاسه، فظهر الأمل على محياه، وطلب من الأجراء حمله إلى منزل الوجيه قحطان الذرب، الذي يستقبل الغرباء ومبعوثي الدولة، وهناك وفي مجلس كبير مفروش بحصائر بيضاء استبدلوا ثيابه، فتسنى للصوفي أن يتفقد جروحه، ووضع على الجرح مسحوقاً أخضر مستخلصاً من أشجار مجهولة، ثم ربط رأسه بقطعة قماش بيضاء، واستطاع أن يجزم أنه أصيب بحجر في رأسه، وخسر كثيراً من الدم، وأكد أن حاله خطير، وخاطب الأجراء قائلاً بحدة: "إن لم يفتح عينيه حتى المساء ينبغي أن تبعثوه إلى مستشفى يريم ليموت هناك".

كانت ملابس المصاب معلقة على مشجب قريب، وتلفت النظر بلونها الأحمر القاني، فأشار وجيه القرية إليها طالباً أن تُفتّش ثم تُغسل، ولكن قبل ذلك يتحتّم أن ينظروا في جيوبه عسى أن يجدوا ما يشير إلى هويته، فأسرع أقرب أجير وفتشها بعناية دون أن يجد شيئاً، ثم ألقى بها إلى أجير آخر فأخذها إلى أقرب امرأة رآها، فغُسلت وجُففت فوق نيران تنور مشتعل، ثم جُلبت بسرعة إلى المجلس، وما إن رآها

الوجيه قحطان الذرب على جسد الرجل المجهول حتى صاح مصعوقاً، ثم استند على الجدار وراح يصدم رأسه عليه، فأمسك به الملاك الصغار المرتعشون، وقادوه إلى موضعه وهم يواسونه على شيء مازالوا يرتابون في صحته. مكثوا واجمين ملتحفين الصمت، ولم يعد أحد يسمع سوى طنين الذباب وزفرات أنفاسهم، وفجأة ضرب وجيه القرية كفاً على كف وقال زافراً بحزن:

- ها قد رأيتم بعيونكم، هذا الرجل جندي، ابحثوا أولاً عن طاقيته العسكرية وأعيدوها إلى رأسه لنرى ماذا سنفعل.

انتقل الاضطراب إلى الأجراء المندهشين، فأكلوا جزءاً من شفاهم، وנתفوا زغب لحاهم وشواربهم. ولكن هذا لم يدم طويلاً، إذ يجب التفكير في حل سريع.

دار الهمز واللمز في أرجاء القرية بأن المصاب جندي من جنود تل الأكمة، فناحت النساء، وتبلدت وجوه الأطفال على شيء لا يدركون ماهيته أو أخطاره، وذهب نفر من الأجراء ليبحثوا عن الطاقية المفقودة حتى وجدوها، فجلبوها إلى المجلس وكانت مثقوبة بفعل الحجر، ثم سلّموها لأمر امرأة في ترقيع الثياب الممزقة، وطلبوا منها أن تعيدها كما كانت، ومكثوا شاخصين إلى وجه الجريح، يتحدثون همساً عن عواقب موته، وما الذي يتوجب عليهم فعله لتفادي حدوث ذلك. وهل يبعثون بالخبر إلى رفاقه في التل أم يلقون به على قارعة الطريق حيث وجدوه؟ وفجأة فتح الجندي عينيه، وسأل قائلاً بصوت متقطع:

- آخ، أين أنا؟

أجاب الصوفي عطية بفرح:

- أنت في الجنة.

- جئت.. لا أدري...

- لا عليك.. ارتح قليلاً...

حاول الجندي النهوض، فهرع وجيه القرية بنفسه ليساعده، وحشا خلفه الوسائد، وشرح له أنهم عثروا عليه جريحاً في مكان بعيد عن القرية، ويبدو أنه تعثر بشيء ما ووقع أرضاً وصدم رأسه، وهناك جرح سطحي صغير، ويتحتم أن يرتاح. ثم صاح على الأجراء أن يجلبوا بضعة أطباق محلية من حبوب الوادي، ولحم فرخ "بلدي"، ومرق طيب يغسل الروح بالعافية، على أن تكون الوجبات خالية من الدسم والفلل الحار، وسدد إليه الصوفي عطية نظرة ذات مغزى واضح، فابتسم له من قبيل الاعتذار، ثم تبدلت سحنة وجهه إلى تجهّم وحنق، وكأن لسان حاله يقول إن هذا ليس وقت تبادل العتب، فهناك جندي جريح، ويتحتم أن يخرجوا من هذه الورطة بأي حال من الأحوال، وهو مجبر على تقديم النصيحة كالمعالج.

شرع الجندي يئن ويمسك رأسه متألماً، وأشار قحطان الذرب إلى الصوفي أن يقدم له مسكناً، لكن الأخير رفض يديه في الهواء للتعبير عن خلوها من أي شيء، وقال بثقة:

- الألم سيزول بعد قليل. إنها مجرد ضربة صغيرة بحجر.
هتف الجندي بألم:

- نعم، تذكرت. لم أتعثر، لقد وقع حجر على رأسي.

- ليس حجراً... لا أدري، لعلك تعثرت...

- بل رماني أحدهم بحجر.

- سنحقق في الأمر حالاً.

خرج وجيه القرية منزحاً إلى باحة القرية، ولحق به ملاك الأرض، وبدا الأجراء صامتين كالغرباء، وأعلن الصوفي عطية أن مهمته انتهت، وبدا خجولاً، وأخذ يعتذر عن زلة لسانه، ويبيدي أسفه، وادّعى أن الجندي كان على وشك إدراك ما أصابه، ومهما يكن فإن على أهالي سحمر أن يقبضوا على الفاعل قبل أن يقترب جريمة أخرى، وقد جاءت الأمور سليمة هذه المرة.

لكن الوجيه لم يسكت، وصرخ بملء الصوت، لاعناً تلك الساعة المشؤومة من الصباح، وهدد أن يقوم بوضع القيود على أقدام جميع الرجال والفتيان والرعاة، فما حدث أمر خطير، والجندي ليس حيواناً برياً أو جرواً حتى يُقذف بحجر، فهو جزء من سرية والسرية جزء من كتيبة... إلخ، وحياته أغلى من حياة ألف قروي، وموته أشد فجيعة من سيل يجرف قرى عديدة، فالمنازل يمكن إعادة بنائها، أما الجندي فقد دُرب وأنفقت عليه أموال طائلة، وأصغر شعرة

من رأسه ينبغي أن تُصان وتُحمى، أما أن يُجرح ويسقط أرضاً كخرقة حمراء فهذا شيء مهول، والدولة لن تسكت، وستأتي بجيشها وقضّتها وقضيضها، وتعسكر فوق رؤوس القرويين، وتطالب بإحضار الجاني، ولن تكفي الغلال المخزونة لتموين العساكر ليوم واحد، وسوف يطلبون إرشاً^{١٠} عظيماً، ولن تفي أثمان المنازل والحقول سداده، وعلى الناس أن يذكروا الأيام الرهيبة لجنود الدولة المتوكلية. كان عكفي^{١١} واحد كرية الخلقة يأتي متجهماً، ويقف بأبواب المنازل ممسكاً سلاحه بشكل عرضي، ثم يطلب من السكان أن يخلعوا الأبواب، ويوسّعوها ليتسنى له الدخول، وكان بوسعه أن يجلب الأهالي ويقودهم أمامه كالنعاج إلى العامل أو نائب اللواء. ولم تمض سوى بضع سنوات على قيام العهد الجمهوري، ولكن هذا لا يعني شيئاً، فالجندي هو نفسه لم يتغير سوى بملابسه، وهذا طبيعي. كان يلبس المقطّب والطيار^{١٢}، والآن يرتدي زياً رمادي، بنطال وسترة وطاقية حمراء وسلاحاً ألياً أصغر حجماً من البنادق القديمة، وهو مدرّب على القتال والقفز، ويستطيع أن يغرّو القرى ويقتحم المنازل، ويفكّ النار على ساكنيها. لا أحد يستخف بهؤلاء الحرّاس، ولعلمهم لم يأتوا للتنقيب عن الكنوز وأسرار القدماء، فالمعروف أن أسلافنا كانوا فقراء، والحكايات التي تدور عن وجود كنوز وممالك قديمة ما هي إلا قصص ملفّقة،

^{١٠}الإرش: مبلغ مالي يقدّم تعويضاً للجريح.

^{١١}العكفي: الجندي في عهد الملكية.

^{١٢}المقطب إزار أبيض والطيار حزام جلدي يحوي رصاص البندقية.

فالقرويون يحفرون طوال الوقت، ولا يجدون شيئاً،
والمحفوظ وجد عظاماً محروقة كثيرة، وما يُحكى عن
العثور على تابوت امرأة تلبس مصاغها في تل الأكمة، هو
ذريعة لاستقطاب الجنود، ولعل الأجير مهدي جاسوس، فهو
وإن كان أجيراً فقيراً ونزيراً، يستطيع أن يدّعي العثور على
تابوت من الرخام، فالدولة كما يشاع تجنّد أكثر الأشخاص
سذاجة وبعداً عن الشبهة، ولا يجب أن ينسوا أن الجمهوريين
الماكرين يستعينون بالمصريين، وهؤلاء أمكر أمة في
التجسس واستراق السمع، بل ويفوقون الشياطين بدرجات،
وهاهم يصنعون موقعاً أمنياً على ظهر تل الأكمة، ويريدون
أن يضموا إليهم جاسوسهم مهدي ليكافئوه على خدمته، ويبدو
أنه سعد هذا الصباح ليأخذ المكافأة، وينقل إليهم أسرار
القرية، وها هم يبعثون جنودهم فرادى ليمتحنوا القرويين،
ويروا مدى استجابتهم وانصياعهم للنظام الجمهوري، يبدو
أن الجاسوس قد أفاض عليهم أنباء خاطئة بأن الأهالي
مازالوا ملكيين حاقدين على الثورة، وإصابة جندي بتخوم
القرية سيؤكد هذا الظن. ينبغي أن يُقبض على الجاني أولاً،
ثم يُسلّم للدولة، وعلى كل رب منزل أن يرفع على سطح
داره علم الثورة، نعم، يجب أن يذهب شخص إلى المدينة
ليجلب هذه الأعلام، مع العلم إن رئيس مجلس القيادة هو
رجل عسكري صارم رغم ما يشاع عن فكاهاته وهزله وقلة
حيلته...

لم يتوقف الوجيه عن الكلام إلا حين رأى المراغة آتياً على عجل، لاهتأ لفرط سرعته وتوتره، فسأله إن كان قد علم بما حدث، فأوماً المالك الكبير بالإيجاب، وأفصح أنه سمع بالخبر خارج القرية، وهو في طريقه إلى سوق يريم، ففقل راجعاً ليرى ما يجري. وأراد أن يسمع بعض المعلومات، ويسأل الجندي عما دفعه للقدوم إلى القرية، لكن صديقه قحطان الذرب وقف في طريقه ومنعه من تحقيق مرامه، وأوضح له أن الصداقة لا تعني شيئاً عند الكوارث، ولا ينبغي أن يقاطع الجندي عن أكل وجبته، فهو جريح ومتعب، ولا يجوز سؤاله عما حدا به للقدوم، فالجنود هم الذين يطرحون الأسئلة، وهذا أشبع سؤال يوجّه لجندي، بل إنه شتيمة محضة، لسبب بسيط، وهو أن لهم الحق أن يتحركوا بثقة عالية بحثاً عن عدو أو لص أو مجرم، أو حتى أن يذهبوا لارتكاب مجزرة، فالعساكر مجبولون منذ الأزل على طاعة الأوامر والتكتم، إنهم صناديق مقفلة أو أقفال بلا مفاتيح، لا يفتحها إلا من أفلها، وهكذا اقتضى الحال ألا يعترض طريقهم أحد. وقد أتى زمن كان القروي يجد عائلته في الشارع، بينما بضعة جنود قابعون في منزله، فلا يجرؤ أن يسألهم عن سبب قدومهم، حتى وإن أفاق قروي من نومه ورأى جندياً على سطح داره، فلا يتحتم أن يغضب أو يتعجب، وذلك لأن الجنود يعتلون المباني والقمم لاصطياد المخالفين والسفلة، وهل بوسع قروي أن يتخيل عسكرياً ملكياً أو جمهورياً يقرع بابه بأدب، ليسمح له بالدخول؟ لن يستحق اسم "جندي" إن تصرف بلطف، لن يحترمه الناس، وقد يفصل من عمله

بتهمة الخيانة العظمى، ولكن هذا الجندي يبدو مثل شيء هش قابل للكسر عند أقل هزة أو حركة. حتى أن حجراً صغيراً جعله يئن كامرأة توشك أن تلد، ولولا أن طاقيته امتصت الضربة لكانت جمجمته انكسرت كبيضه، ومهما يكن فهو جندي، ولا يجب الانخداع بمظهره الوديع وهدوئه، فليس هناك ما هو أكثر وداعة وخمولاً من الحيات المرقطة، ومن كان يصدق أن أجيراً فقيراً هادئاً جلب لنا كل هذه المتاعب، وبفضله صرنا محاصرين بالجنود المحليين والمصريين؟! وسدد الوجيه إصبعه إلى وجه صديقه المراغة بحركة مباغته صارخاً:

- إنه أجيرك مهدي الذي صار يعمل في التل.

انتفض جسد المراغة كأنما لم يتوقع أن يسدد أحدهم إصبعه إلى وجهه ويحدثه بتلك الطريقة المستفزة، ولولا الود والعيش والملح الطويل لكسر تلك الإصبع، وبدلاً عن ذلك رد بسخط:

- لا ترفع صوتك في وجهي، لن يجرؤ أجيري مهدي أن يخالفني، وهو الآن يحرث حقل المردم.

فوجئ وجيه القرية بالخبر، فأجاب بصوت مضطرب:

- هكذا إذاً، لم يصعد إلى التل! وعلى كل، هذا لا يجعلني أنفي ضلوعه في استقطاب الجنود.

- أتعلم شيئاً، لعل هذا الجندي أتى ليبحث عن مهدي، فكبير المنقبين كما تعلم يريد أن يعمل في التل.

- وهل تؤمن أنهم جاؤوا للتتقيب؟ كلا يا صديقي، لا تكن ساذجاً، إنهم يظنون أننا ملكيون أو ملاك أرض غاشمون. ويودون إعادة توزيع الأرض كما فعل ضباط الجيش في مصر، وما التتقيب إلا ذريعة للحضور، وما أجيرك إلا جاسوس.

تكدّر وجه المراغة وفكر قليلاً، ثم سأل:

- وكيف عرفت ذلك؟

- هذا واضح، إنه عهد جديد، وكما تعلم فإنني أستطيع أن أقرأ، وقد بعث لي أحد أقاربي من صنعاء كوم جرائد قديمة الإصدار وأنا أتصفحها في المساء.

- إن كان الأمر كما تزعم فلا يجب أن نسكت. هلا أخبرتنا ماذا نفعل؟

قتل قحطان الذرب طرف شاربه، وأجاب:

- أرى أن نعيد الجندي معززاً مكرماً إلى التل، وبمعيته مهدي ليعمل لديهم، ثم نرفع الأعلام الجمهورية على سطوح منازلنا، وبهذا نبرهن للدولة أننا جمهوريون.

- وحقولي من يحرثها ويعتني بها؟

- ليس هذا وقت التفكير بحقولك، دعنا نتجنب عواقب هذه الفاجعة أولاً.

وتعجب حمادي الحبيشي من حديث الذرب، وتفسيره للأمر. لم يتكلموا عن الجاني، وكأنهم يظنون أن الأمر لا يعدو أن

يكون ذريعة للإيقاع بهم، فقال بصوت ضعيف سمعه
الأجراء القريبون منه: "أريد أن أستعير بعض هذه الجرائد
من الوجيه". ولكنه كما عهدت الناس لا يمارس النميمة بشكل
واسع، ويطيب له أن يُعلّق على الموضوع بصورة ساخرة
غير مستفزة ولمرة واحدة فقط.

-8-

هناك بعيداً عن القرية كان التل ميداناً لتحركات قنديل وقلقه،
يجول في أرجائه ويرسل نظراته إلى الطرقات، يواكب خطاه
الخبيران المحليان في مجال الآثار، عثمان وفرحان، الأول
متخصص بقراءة الخطوط والرموز القديمة، وقد بدا محايداً
صامتاً، والثاني مؤرّخ جاد وعملي، ودائماً ما يبدي آرائه
بكل صراحة ولا يسكت على شيء يراه باطلاً، وما زال يردد
على مسمع رئيس الفريق بأن الحظ الحسن لا يمكن أن يفيد
في التنقيب، ولا يظن أن فلاحاً بانساً مثل مهدي يملك شيئاً
من الحظ، وإن كان يملكه حقاً لتحوّل حاله وشكله إلى
الأفضل، ولكن رئيس الفريق أكد حاجته إلى عنصر محلي
يزوّدهم بالمعلومات عن المواقع الأثرية والطرق الآمنة،
ويساعدهم على اختيار العمال الجيدين للحفر، وما الحظ
الحسن إلا أمنية يتمناها كلما خرج في مهمة تنقيب، وإن كان

هذا القروي محظوظاً كما يزعم القرويون فما المانع أن يروا
أكذوبة السكان المحليين.

كان الجنود قابعين بضجر تام يراقبون الطرق بتحفظ وانتباه.
خمسة جنود محليين وستة مصريين، وجندي محلي غائب لم
يرجع بعد من القرية. قائدهم كمال بيومي مصري جريء من
شرطة التدخل السريع المصرية، متخصص في اقتحام
المواقع والتحصينات الدفاعية، وقد خاض دورة مظلات في
الفرقة السابعة للجيش المصري، ووصل إلى منصب قائد
كتيبة التدخل السريع، قبل أن يتعثر حظه وينتكس وتتقاذفه
أمواج الأقدار إلى هذا التل الأجرد. كانت ملامحه آخذة
بالاكفهار والتجهم، والريح والبرد والحرارة صبغت بشرته
بلون بني يشبه لون قهوتهم الصباحية، ويبدو مستاءً محبطاً،
لأنه مكلفٌ بحماية الفريق والجنود، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً
بمحض إرادته، إذ يتلقى التعليمات من رئيس الفريق المدعو
قنديل عبدالنور. بدا وكأنه يأسى على سنوات خدمته
وبطولاته، ويعتب على قيادته التي جعلت منه خادماً لفريق
أثري لا يجيد التصرف في الأزمات.

وقنديل هذا ذو عينان زرقاوان ورمشان شقراوان مسهبان،
وبشرة بيضاء تميل إلى الصفرة ، كما ورث عن أمه
الأيرلندية بعض النمش وحاجبين أشقرين خفيفين، ورغم ذلك
فإن لهجته المصرية سليمة لولا بعض التشوهات اللفظية،
التي يبررها بأنه عاش طفولته خارج مصر، وأنه عاد إلى
بلده بعد انفصال والديه، إذ سحبه والده الصعيدي إلى هناك

بقوة القانون، واستأجر لهم شقة في الجيزة، وهناك اهتم بالآثار ورافق عدداً من فرق التنقيب المصرية والأجنبية كما يزعم، ثم طلبه الجيش المصري للقيام بمسوح أثرية في هذا البلد، وكان يظنها رحلة عادية ممتعة، فسافر بحراً إلى عدن، ثم انتقل إلى صنعاء، وشاهد الجبال الشامخة المسننة في طريقه، والأهالي الناحلين الحفاة الأقدام والعراة الصدور، وتوقع أسوأ المتاعب.

كانت حكايته تبدو مجتزئة وخاوية من التفاصيل التي تهتمهم، مثلاً لم يعرفوا بعد هل يملك معلومات دقيقة عن وجود مواقع أثرية في هذه التلال؟ وأين كان يقيم قبل أن يلتقوا به في مدينة يريم؟ فالجنود استقدموا من صنعاء، وكذلك المنقبان المحليان، وكانت تلك أول مرة يرون فيها وجهه، إضافة إلى أن تصرفاته بدت لغزاً غامضاً يستعصى حله. فهو كالأجانب يحبذ الحلول العقلانية، ويشرب قهوته دون أن يحدث صوتاً، ويستعمل تلغرافه كثيراً باعثاً رسائل مشفرة إلى جهة يدّعي أنها عمليات الجيش المصري، ناهيك عن شكله الذي يشبه الخواجات.

بدأ الضابط كمال بيومي يتحرك بقلق وضجر، وأحس قنديل بتجهّم وجه الضابط ونفاد صبر الجنود، الذين كانوا يريدون أن يهجموا على القرية، ليستعيدوا زميلهم المفقود، إذ ظنوا أنه وقع أسيراً بأيدي الأهالي، لكن قنديل كان يملك وجهة نظر أخرى، ويريد أن يوضّحها للجنود الغاضبين. لذا طلب أن يجتمع الفريق والجنود أمام الخيمة الكبيرة، وراح يفسر

لهم ما يجول في ذهنه، استفاض مدافعاً عن أسلوبه المرن في التعامل مع الأهالي... لم يعد القرويون سُذجاً كما كانوا قبل الثورة، أمست عيونهم مفتوحة على المواقع الأثرية، ويخشون عليها من اللصوص، ويظنون أن في هذا التل الأغبر ما هو أعظم من كنز توت عنخ آمون، لذلك فإنهم لا يتسامحون مع الغرباء، لكنهم كالكلاب الوديدة مستسلمون لملاك الأرض والوجهاء، وهذا الجندي الذي ذهب إلى القرية هو جندي محلي، ولا يمكن أن يُعتقل أو يُمس بأذى، وقد بعثه لكي يجلب الأجير المدعو مهدي، وهو المسؤول بشكل شخصي عن سلامته، فالاتصال بالناس أمر هام أثناء التنقيب، إذ لا ينبغي أن يعملوا بمنأى عن نظر أحد السكان المحليين، ولا ريب أن الأخبار تصلهم عما يدور في المناطق الشمالية من حروب بين الجنود المساندين للثورة والمتمردين، ولعل الضابط كمال بيومي يتذكر ضحايا الجميمة، وكم من كمائن نُصبت للجنود والضباط المصريين بعد ذلك الحادث، وقد سمع عن متمرّد اختبأ وسط جلد ثور نافق، وأخذ يتصيّد الجنود دون أن يشعروا بمكانه، وحين عثروا عليه كان قد أفنى خمسين جندياً مصرياً. فهو لاء القرويين لهم مخالب يبرزونها بشكل مفاجئ، لم لا يدركون أنهم وسط نار متقدة، وتصرفاتهم الهوجاء قد توججها أكثر؟ ليس لديهم قوة كافية هنا، ويخشى أن يكون الأهالي قد اتخذوا قرار المقاومة، والحجارة التي تساقطت على التل ليست سوى إنذار لهم بالمغادرة، فالبحر يكون هادئاً مدة من الزمن، ثم يضطرب دون إنذار...

عند هذه العبارة انفجر الضابط كمال بيومي كبركان محبوس، وأوضح أن معظم السكان المحليين فقراء بئس، وقد رأهم عندما زار القرية، كان الوجيه وملاك الأرض يرتعدون خوفاً أكثر من الأجراء، ويستطيع أن يجلبهم مربوطين بالحبال إلى التل، وهو يراهن بشرفه العسكري على ذلك.

أجج رأي الضابط غضب قنديل عبدالنور، وقال إن هذا الكلام لا يجوز، ولن يسمح له أن ينفذ خطته الدنيئة، ومثله ينبغي أن يسكت ويعيش متكرراً في هذا البلد. ويمكنه أن يتخيل لو كان هناك شخص من أقارب ضحايا الجميمة يعيش على مقربة من التل، هل يتوقع أن يأتي إليه ليصافحه ويشكره على فعله؟ لن يحدث هذا، وكما يقولون هنا إن كل ظفر يكون تحته دم، والآخذ بثأره بعد عام مُتَعَجِّل، لا شك أن لكل مجتمع فلسفته الخاصة في الحياة، لكن الدم هنا لا يضيع، وإذ يكاد يخلو البلد من القضاء المدني والقوانين يصبح كل شخص هو قاضي نفسه، ولهذا حري بشخص ارتكب مجزرة هنا أن يغادر حالاً إلى مصر، فالناس قد يكونون غاضبين وليسوا خائفين كما يظن، فالغضب والحمى والبرد وأشياء أخرى تجعل الأجساد تنتفض والأسنان تصطك. ذلك أنهم يعيشون بمناطق تكون رطبة في مثل هذا الموسم، وسط طقس ممطر بارد يخدر العظام. وها هو الوقت يقترب من الظهيرة، دون أن يشعروا بالدفء بفعل الغيوم.

انزعج الضابط كمال بيومي من كلامه وقال بحنق:

- هل تسخر مني يا أستاذ قنديل؟

ردّ قنديل ببرود:

- اسمع، أتحب أن أستغني عن خدماتك وأعيدك إلى صنعاء؟

تردد الضابط قليلاً قبل أن يجيب بعناد:

- لم أطلب تسريحي رغم أنني أرغب في ذلك.

- إذن، عليك أن تتبع تعليماتي دون جدال. أليس كذلك؟

- نعم يا أستاذ، أنا رجل عسكري ملزم بتنفيذ تعليماتك.

- الآن زاولوا أعمالكم المعتادة وانسوا أمر الجندي المفقود.

تفرق الجميع، وبعد قليل أرسل قنديل عبدالنور باقي الجنود المحليين الخمسة إلى القرية للبحث عن صديقهم، وزوّدهم برسائل إلى الوجيه قحطان الذرب، وأمرهم بحسن التصرف، وقد بعثهم بدون أسلحة، إثباتاً لحسن نواياه، ورغم ذلك أحدث ظهورهم نوبة فزع بين الأهالي، فأعادوا الجندي الجريح، واستقطبوا مهدي للعمل في التل. ولم يعترض المراغة تحت ضغط صديقه الوجيه، وكان هذا مقابل إلغاء مسؤولية السكان المحليين عما أصاب الجندي من أضرار، وطلبوا من الجنود أن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يطلقوا النار على أي شخص يقذفهم بحجر أو يعتدي عليهم بأي شكل من الأشكال، وكتبوا وثيقة تثبت هذا الاتفاق.

إثر ذلك سار كل شيء على ما يرام، لم تعد الحجارة تنهمر على التل، وكان الجاني خشي من عواقب أفعاله. صار على

مهدي أن يختار العمال الأميين الذين لا يفقهون أي شيء غير الحفر، وأصبح مكلفاً بدفع أجورهم، والإشراف على سير عملهم. في البداية طلب منه قنديل أن يجلب حماره وأكياس الخيش، ثم يبحث في التل عن تراب يغطي به سطح داره، كان عليه أن ينتقي موضعاً يراه مناسباً للحفر، على هذا النحو جعله يمشي وحيداً وهو يحدّق في المكان، بينما تواروا داخل الخيام ليبدو الأمر طبيعياً، وفعل مهدي ما طلب منه، ووقف على بقعة مستوية، وصرخ على العمال المختبئين داخل الخيمة أن يحفروا تحت قدميه، فأقبلوا مسرعين، وشرعوا يحفرون، وأتى عضوا الفريق المحليان وهما يضحكان على أفكار قنديل الغريبة، فهو من قرية صعيدية يؤمن أهلها بالكرامات والحظوظ وقيمون حفلات الزار الصاخبة للتواصل مع أرواح الموتى، أو توسماً للشفاء من الأمراض.

لاحظ قنديل وجوم الفلاح المحظوظ ويئسه، فقال يخاطبه بحماس:

- أرجوك، أزل هذه المسحة المتشائمة عن وجهك، تفاعل يا أخي.

ردّ مهدي بصوت ساخط:

- لست محظوظاً كما تظن، لقد كانت صدفة.

- سأحوّلك إلى رجل غني، ليس عليك إلا أن تؤمن بأنك ستعثر على شيء قيّم.

- لم أحلم في يوم ما أن أكون غنياً.

- انظر إلي، أنا رجل صعيدي أوّمن بالحظ السعيد.

ثم ضحك بتصنّع، وأخرج سيجاراً كوبيّاً وجعل يمجّ الدخان ويطلقه في الهواء بتوتر. كان يرتدي قبعة دائرية ونظارة عاجية، ويبدو بشاربيه الحليقين وقبعة رعاة البقر الأمريكيين كالمستكشفين الأجانب.

أخذ النشاط يدب في الفريق بعد العثور على بضع جرار فخارية مسدودة، وانبسطت ملامحهم وسال لعابهم وكأنهم عثروا على مقبرة ملكية فرعونية. حثّ قنديل العمال على مواصلة الحفر ريثما يفحص محتويات الجرار، وصعب فتحها بجميع الوسائل، فأخذ إزميلاً حاداً ونقر إحداها من عرضها، فتناثرت على الأرض مادة سوداء ناعمة تشبه الكُحل، وكانت كل الجرار تحوي هذه المادة الغريبة. اكتست وجوه المنقبين بالخيبة، أما قنديل فقد أخذ عينة من المادة ودسّها داخل مغلف صغير، فأوحوا له أنهم يريدون سبائك ذهب صفراء تلمع بشدة، وجنيهات ذهبية حميرية، أو تماثيل برونزية، لأن كل هذه الأشياء مطلوبة ولها قيمة أثرية عالية.

رأى مهدي قنديل يتفرس في خارطة صغيرة، فاقترح عليه أن يسيروا إلى تل المكرا ب ليستكشفوا سر الغرف والعظام المحروقة، لأن هنالك المزيد منها مطمورة تحت التل، فأجاب قنديل: "لست مؤرخاً أو باحثاً عن أسرار هؤلاء القدماء الأغبياء، كل ما أريده هو العثور على توابيت

موتاهم". ثم خاطب فرحان الحمق نافثاً دخان السيجار من أنفه كعادم سيارة تالف:

- هلا ساعدتني في تفسير سر إحراق هذه العظام فأنت مؤرّخ الفريق!

- إنه فلاح مخرف، لا تدعني أحرق أعصابي، لأنني لا أظنه يفهم شيئاً مما سأقوله.

وتابع بتهكّم مخاطباً مهدي: "لعل القدماء الذين سكنوا قريرتكم قد قدموا قرابين بشرية لآلهتهم، فأحرقوا أجمل الفتيان والفتيات، فهذا كان شائعاً في بعض الممالك القديمة".

ضحك الجميع على هذه الطرفة، وصمت مهدي، إذ لم يجد في رأسه أي تعليق مناسب، لأنه ببساطة لا يعرف شيئاً مما دار في العالم القديم. أسهبوا في الحديث عن الكنوز والآثار الخالدة، ورددوا ألفاظاً كثيرة مثل الذهب، الأحجار الكريمة، البرونز، العقيق الأحمر، والفضة، والزئبق... وسرد قنديل تفاصيل عجيبة عن الكنوز الفرعونية التي عثر عليها في وادي الملوك، والمتاحف التي نُقلت إليها، والمسلات والمعابد، والأهرامات التي تتوسطها توابيت ملوك مصر القديمة. وقال كمال بيومي لنفسه: "هل يود هذا الماكر إيهامنا أنه مصري قُح؟ ومع ذلك أنا ملزم بالتقيّد بتعليمات هذا الرجل المشبوه، وليس بعيداً أن يكون هناك ضباط مصريين يعملون لحساب جهة أجنبية".

كان قد تجرأ وفتش حقيبة قنديل، ولم يكن ما عرفه شيئاً واضحاً، إذ وجد صوراً لمواقع وأطلال أثرية في يريم وظفار ومأرب، وصادف رسالة وحيدة صغيرة مكتوبة بالمداد السري يتحدث فيها بأنه لم يجد صعوبة في الحصول على تفويض بالتنقيب في موقع غرب مدينة يريم، وعلاقته جيدة بالضباط المصريين في صنعاء، ولم يذكر أسماء من ساعدوه ولا الجهة المرسل إليها، وفي نهايتها حرفي G.M، كما لم يعثر على أي بطاقة هوية له، ولا ريب أنه يخفيها في ملبسه ولا تكاد تفارقه، لأنه لا يستطيع أن يجتاز الحواجز الأمنية بدونها، وهو مكلف بمراقبته وليس بمراقبته، وقد شدد قائد المنشآت الذي كلفه بالمهمة أن يتبع تعليماته بحذافيرها. لقد بات يكرهه لأسباب شتى، وما فتئ يردد على مسمعه حادثة الجميمة كلما اختلفا في الرأي، ومع ذلك لم يكف عن أداء مهمته في حماية الفريق، وظلّ يراقب الطرق بحذر، ويوزع المهام بين الجنود، ولا يهتم بما يفعله المنقبون، وكان الإخفاق بادياً على وجوههم، وهذا ما لاحظته وتمناه.

تحولوا بعد ذلك إلى عدد من المواقع قريباً من الموضع الذي عثر فيه مهدي على التابوت، ولم يجدوا شيئاً ذا قيمة، عثروا فقط على قبور مسقوفة وجثث متحللة وبعض الخواتم الفضية، والمادة الكحولية وهي تظهر تحت جماجم الموتى.

كان العمال يأخذون أجوراً والجميع يستهلكون طعاماً وماءً ليلاً ونهاراً، واضطر قنديل إلى إيقاف العمل، وصرف العمال على أمل أن يدعوهم في وقت لاحق. بدا محبطاً

مكفهر الوجه، والفريق كله كان في وضع صعب، وأنذرهم الطاهي المصري "عم حسنين" إن علب الفول والطحين الأبيض والمؤن الأخرى تكاد تنفد، وأن برمىل الماء النظيف شبه فارغ، وإثر ذلك قام مهدي بجولة خيرية عابرة إلى القرية، وتعشم بأكثر شخص سخي النفس وهو حمادي الحبيشي، وطرح عليه الموضوع بشكل مؤثر، فقدم الأجير الكريم حمارين محمّلين بالطحين والعدس والسمن، وقادهما الفتى الراعي بربر في الصباح التالي بمعية قطيعه. رآه مهدي يدخل التل بمواد الإغاثة، عارضاً عليهم مساعدته بدمائة عالية، وحظي الفتى بتقدير كبير، وأطرى عليه قنديل بشدة، وأذن له أن يرعى في التل. حاول مهدي أن يتفحص نوايا بربر من خلال ملامحه، فاصطدم بمزيج مألوف من الخبث والوداعة، وحين التقت عيناها، نكس الفتى رأسه إلى الأرض بانكسارٍ وندم، وخال له أنه يشعر بالخجل، فقد مرت أسابيع عديدة دون أن يتعرّض الفريق والجنود للقذف بالحجارة.

سرعان ما انتشر خبر الضائقة المعيشية التي يمر بها المنقّبون، وسمع وجيه القرية والمراغة والملاك الصغار عن قافلة حمادي الحبيشي، فثارت الدماء في عروقهم، ووقعوا مترددين بين بخلهم الفطري والخوف أن يظهروا كأشخاص أغنياء لا يحبون فعل الخير، كما كرهوا أن يتفوق عليهم حمادي الحبيشي ويحظى بتقدير الجنود وفريق التنقيب، وهكذا طاب لهم أن يظهروا بمظهر المغيبيين الكرماء،

فجمعوا من الأجراء الشيء الكثير، وأضافوا القليل، وسار بربر إلى التل بقافلة كبيرة من الحمير، يتقدمها حماري وجيه القرية والمراغة. وأوصاه الأخير أن يذكر اسميهما ويؤكد على مسعاهما الحميد، وفعل الفتى حسب الوصية، وفرح قنديل وأعضاء الفريق، وبعث بالشكر إلى الوجيه وصديقه والأهالي، واندesh رئيس الفريق لهذا المسعى الحميد، وصار يضحك جذلاً، ويؤكد على طيبة هؤلاء القرويين وسذاجتهم. كانت الأعلام الجمهورية الكبيرة ترفرف على رؤوس منازلهم، وتلوح بجلاء بألوانها الثلاثة الأسود والأحمر والأبيض، وأدرك ما يعتمل في نفوسهم من شك، واعترف للضابط بأنه حكيم.

وبعد قافلة الإغاثة باتت علاقة الفريق بالقرويين طيبة وواضحة، وصار "بربر" معروفاً في التل. بات يرضى هناك كل يوم، ويدخل ويخرج دون أن يعيقه أحد. وصاروا يدعونه للغداء معهم، فيأتي مع كلبه ويأكل بأدب، ويجعل نفسه خادماً لهم، ولا يتكلم إلا إن وجهوا له الكلام، وبدا وجهه بريئاً نقياً رغم سمرته.

لكن مهدي صار يراقب ما يجري بقلق، لم يجد في نفسه ارتياحاً للفتى رغم ما يبذله من جهد. كان الضابط كمال بيومي كذلك يشمئز من مجيء هذا الضيف الجديد، ويرمقه بارتياح.

وفي يوم وهم يأكلون الطعام، طلب قنديل من بربر أن يعطيه فكرة عن التلال المغطاة بأطلال قديمة، وتبدو مناسبة للتنقيب

عن الآثار، فاستفاض الفتى، وذكر عدداً من الأماكن، ثم ذكر اسم جبل بعيد زاره وعدد من الرعاية في الشتاء الماضي، وأمضوا هناك وأغنامهم نهاراً سيئاً، وفي موضع ما وبينما كان جالساً ينبش التراب بعصا كانت في يده، ظهرت قدم تمثال صغير كحلي أملس لجندي صارم بحجم الكف، يحمل رمحاً بيده. اشتعل الاهتمام بعيني أعضاء الفريق، وهتف فرحان الحمق سائلاً بجشع:

- ماذا فعلت بالتمثال يا بني؟

ردّ بربر بنبرات قاسية ضاغطاً على أسنانه:

- قذفت به على صخرة، فطار أشلاء.

صاح قنديل بقهر:

- لم فعلت ذلك يا بني؟ ألم تدرك أنه من البرونز الثمين؟

- لم أعرف هذا، أنا أكره الجنود بعد مقتل والدي النقيب حميد حيدري...

سكت بربر خافضاً رأسه، وكأنه ندم على قوله، وامتنع وجه الضابط كمال بيومي وصاح بحدة:

- أهو والدك أيها الفتى القذر؟ لا ذنب لي في ذلك، لقد دفع ثمن تهوّره، لا يجوز أن تكره الجنود من أجل ذلك.

استدرك بربر مصححاً:

- أقصد، كانت نظرات ذلك الجندي مخيفة، وبدا رأس رمحه أحمر قانٍ وكأنه ملطخٌ بالدم.

ضحك قنديل وأجاب بتلّك:

- رأيت يا بني جندياً أو محارباً يحمل في يده وردة؟ تلك هي مهنتهم!

عاف الضابط كمال بيومي الطعام، وخرج حانقاً من الخيمة، وهو يشتم الفتى ويهدد باعتقاله إن رآه مرة أخرى، ولحق به قنديل إلى خيمة الجنود، وألفاه يتصرف وكأن الشياطين سكنت جسده، ويقول إنه لم يأتِ إلى هنا لكي يُهان على لسان راع صغير قدر، فهو جندي ناصري أخذ تدريبه على يد نخبة من أقوى المدربين العسكريين السوفييت، وأوسمته وشهاداته لن تستطيع أن تحملها عربة شحن بمفردها، ولم يشعر بالغبن طيلة حياته حتى قذفه القدر إلى هذا البلد اللعين المليء بالرجعيين والأميين، وقد قام بواجبه على أكمل وجه، ودفع ثمن أخطاء قادته، ولا يريد أن يسمع أي لوم يوجه إليه حول ما حدث في الجميمة، فقد قام بتنفيذ الأمر العسكري، وهو يدرك أن هناك اجتماع وجنود محليين تحت مرمى القذائف، لكنه جندي أعمى مطيع ملزم بتنفيذ التعليمات، ولا مجال للعواطف في عمله، وقد دفع النقيب حميد حيدري ثمن غلظته برضا تام.

كان هذا الضابط يعمل مدرّباً لكتيبة الشرطة المحلية، وقد تلقى أمراً من قيادته بأن يقود سريتين استطلاعيتين، لتكون

دليل الكتيبة المصرية المتجهة إلى منطقة المتمردين في بني حشيش، وقد التقيا في مكتبه بمقر القيادة المصرية ، ودرسا الوضع ونظرا إلى خارطة تقريبية لمنطقة سيئة السمعة ، وحددا النقاط الهامة التي يتحتم التمرکز عليها، واتفقا ألا يتم الهجوم حتى تأتي إشارة من النقيب حميد عبر التلغراف. وهكذا توغل وجنوده وسط القرى والتلال الصغيرة خارج صنعاء، وليس معهم سوى عربتي نقل وبنادق خفيفة ومتوسطة، وعربة اتصال قديمة prt13، واستقبلهم الأهالي بالترحيب كما شرح له باللاسلكي ، وأتى بعض وجهاء بني حشيش معلنين انصياعهم للنظام الجمهوري لكي يُبعدوا عنهم شبح الجيش المصري الرهيب، وطلبوا التفاوض، وهنا وجد النقيب المحلي نفسه متورطاً بذلك الطلب الضارح للأهالي، لكنه لا يملك تكليفاً بالتفاوض مع أحد، وهو كرجل عسكري ملزم بالتقيّد بالتعليمات، ومع ذلك درس الأمر من جميع جوانبه كما قال ، وحبذ في النهاية أن يمارس دوراً يقي الجميع من كلفة الهجوم.

كان لسوء حظ ه يثق أن الهجوم لن يتم إلا ب عد أن يبعث إشارته، فلتفق مع مشايخ قبائل بني حشيش أن يلتقوا في الصباح التالي فوق جبل الجميمة، و عند الموعد تداعى إلى المكان وجهاء المنطقة وحشود كبيرة من الأهالي، وجاء قادة التمرد وعدد كبير من عناصرهم خافضين أسلحتهم، معلنين اعترافهم بالثورة، رافعين العلم الجمهوري فوق رؤوسهم، وقد وافقوا على دخول الجنود المحليين فقط إلى منطقتهم

للإشراف على إنشاء مراكز أمنية ومنشآت خدمية، وهذا ما كانوا يرفضونه في الماضي بشدة، وكرروا الشرط ذاته، وهو إيقاف الحملة المصرية المتأهبة لمهاجمتهم.

وقد أعلن النقيب حيدري لهم أنه مقيد بالتعليمات القادمة من قيادته، ويتحتم عليه ألا يبرم اتفاقاً دون إذن قائده، وه ذا الأخير لديه قائد ينبغي أخذ موافقته، ولعله وزير الدفاع الذي سيأخذ الموافقة من رئيس مجلس القيادة، القائد الأعلى للقوات المسلحة، ولا يظن أن يرفض الرئيس هذا الاتفاق، وسيستغرق الأمر لحظات من الزمن، وبالفعل أجرى اتصالاً مع قائد الشرطة، ونقل إليه خبر الاتفاق الجديد، استمهله الأخير بعض الوقت، فلتنظر بتامل صعود الخبر إلى رأس هرم السلطة وهبوط القرار ، وانتظروا معه دون تامل، وأثناء انتظاره اتصل النقيب حميد به، موضحاً أن موقفه صعب للغاية، وأنه سيقدم استقالته إذا انتهت الأمور بسلام، لأنه خالف الأمر العسكري، وفاوض المتمردين دون تعليمات.

وبعد ساعة زمن أنبأه قائده أن لا أحد من عمليات وزارة الدفاع يجيب على اتصالاته، ما ينم عن أن القرار ليس في أيديهم، وطلب منه مهلة قصيرة ليتصل بغرفة عمليات القوات المصرية ، وبعد قليل أمره صارخاً بالانسحاب الفوري من المكان لأنهم سيضربون المتمردين ، فتلكأ في التنفيذ رغم لهجة قائده الصارمة، إذ شعر بخيبة أمل كبيرة، وفكر كيف يفسر الأمر للأهالي المنتظرين . هل يقول لهم :

دعوني أعود و جنودي سريعاً كما طلبت قيادتي، وأنتم ابقوا هنا و انتظروا مصيركم القاتم؟ و أتخيله وهو واقفٌ أمامهم بوجه أسود كالليل، لا يستطيع النطق، ويقال إنه أنذرهم بالابتعاد عن الجبل، ولكن لم يسعفهم الوقت للهروب بسياراتهم، إذ كان هو (قائد الكتيبة المصرية المقدم كمال بيومي) في تلك الأثناء، يتلقى الأمر بإطلاق النار من قائده، وسرعان ما وجّه الأمر إلى سرايا المدفعية صارخاً: "اضبطوا إحداثيات جبل الجميمة بدقة.. تاهبوا لإطلاق النار على المتمردين.. اضرب".

وهكذا نزلت عليهم القذائف، حاملة معها الجواب المميت، ومما لا شك فيه أنهم قُصفوا أيضاً بواسطة الطائرات الحربية لأنهم سمعوا أزيزها في الجو، وكان لا بدّ للقيادتين المصرية والمحلية أن يقدّما قرابين يضحوا بهم في هذا الحادث، ولكنه قدّم للتو استقالته من منصبه فرفضوها، ثم أصدروا بعد ذلك أمراً بإقالته، وأسقطت رتبته إلى رائد، وأُقيل قائد الشرطة المحلية ونائبه ورئيس العمليات وأسقطت من تاريخهم العسكري عدة رتب، وأحيلوا إلى التقاعد، وبقي القادة الكبار في مناصبهم. وطار الخبر إلى بعض الصحف العالمية رغم التعتيم والتكتم، وقد حاول القضاء المحلي الهش إصاق التهمة بالمتمردين، ولكن كان هنالك جرحى وناجين من السريتين أفشوا الخبر لرفاقهم وأقاربهم قبل أن يختفوا في ظروف غامضة.

وبعد أن أُقيل من منصبه، أُحيل بعد ذلك إلى قسم حراسة المنشآت، وصار يُقذف - عن قصد - من موضع إلى آخر ككرة قدم، إلى أن انتهى به الحال إلى رأس تل أُجرد معزول بمنطقة نائية، ويستطيع أن يجزم بأن الأمر لا يعدو أن يكون لعبة خبيثة لتدميره نفسياً واللعب بأعصابه. ولعلها بدأت منذ خروج أقوى الألوية في الجيش المصري إلى هذا البلد العتيق، والمراد منها ألا يعود أي جندي من هناك سالماً، فإذا لم تتخطفهم بنادق المتمردين العتيقة، فإن الأمراض والأوبئة ستقضي عليهم، وكشف الرائد كمال بيومي ساعديه وساقيه ليثبت صدق نظريته. كانت البثور تسيل قيحاً وتتكوّم على طول بشرته القاتمة، فالحشرات والماء الملوّث والطقس السيئ وأشكال الأميين المخيفة بخناجرهم الحادة على أوساطهم، كل هذا أشعره بأنه في كوكب غريب، ولا يظن أنه سيعود سوى جثة هامة، وقد رأى التشفي في ضحكات بعض قادة الكتائب الأخرى. لم يضحكوا عن طيبة كما يضحك البشر، ذلك أنهم تحدروا من سلالة تماسيح نهر النيل التي تفغر أفواهها طوال الوقت، لكنها لا تبتسم كما يظن السذج، بل تبحث عن شيء تمزقه. إنهم أناس متعصبون مدهنون محتالون شرهون جشعون ومترفون، وإذا يرتدون جميع الأقنعة الجميلة، تنقصهم البراءة، وها هم يستخفون بهؤلاء الأميين الطيبين، ويعاملونهم بعجرفة كما لو كانوا قطعان بهائم رغم أن حياتهم لا تخلو من الحيوانية، لكنهم في النهاية بشر سُدج بعيدون عن الحضارة.

وأعلن أنه لم يعد يطيق البقاء في هذا التل، ويكره هذا الفتى الراعي الذي ينوي أن يقودهم إلى الهلاك. إنه ابن النقيب حميد حيدري، وهو نسخة صغرى منه، وقد سمعه ذات يوم ينادي كلبه باسمه، لذا سيطلق النار عليه إن لم يبتعد عن طريقه. وأمسك بياقة قميص قنديل وصاح بهوس: "أخبرني الحقيقة عما يدور في هذا المكان، هل يريدون تصفيتي هنا؟".

تخلص قنديل منه، وربّت على كتفه متبسماً، وطلب منه أن يهدأ ويصبر، وشرح له إن الصدف قادتهم إلى هذا التل، وأن هذا الفتى الساذج لا يدرك شيئاً عنه، وقد عثر على تمثال حقيقي، وينبغي أن يقودهم إلى الموقع، فهو الذي كان يقذف الحجارة على التل، وهو من أصاب الجندي بالحجر، ويستطيع أن يأمر باعتقاله في أي لحظة، لكن الوقت غير مناسب الآن. وخاطبه قائلاً برجاء: "دعه يقودنا إلى الموقع، وبعد ذلك افعل به ما تشاء، بوسعك أن تعتقله أو تقتله، إنه فتى مراهق، ولا تسلني كيف اكتشفت أنه الفاعل لأن هذا سر من أسرارى". ثم ذكّره أن قسماً وافراً من الكنز ينتظره في الموقع الأثري، نصيب يليق بمكانته وجهده، وسيعود إلى مصر ثرياً، ومن ثم تزول البثور عن جسده، ويصير أبهى وأحسن حالاً من ذي قبل، أليس هذا أجمل من منصبه السابق الذي يتباكى عليه؟

ضحك الضابط فجأة بصوت عالٍ، ثم سدد إصبعه إلى وجه قنديل نافثاً كلمات سامة جعلت الرجل أمامه يتضاءل

وينكمش، إنه يعرف كل شيء. قنديل عبدالنور شخص وهمي، والرجل الحقيقي الذي يقف أمامه هو عميل كبير يشرف على تهريب وبيع الآثار المحلية، ويعمل لصالح جهاز استخبارات أجنبي.

همس قنديل بصوت صارم: "اخفض صوتك أيها المعتوه، إن لم تكف عن الثرثرة سأبعث بك إلى المحكمة العسكرية.. كيف تجرات وفتشت حقيبتى أيها البغيض؟!".

وخرج متمراً، بدت عليه سحنة الرجل الحازم المشحون بالغضب، وطغت على صوته النبوة العسكرية، وهو يأمر الفريق بالتأهب للسفر إلى الموقع، ورأى مهدي غير بعيد عن الخيمة يجلس ساهماً ينكش التراب بأصابعه، فصاح عليه بصوت حاد خالٍ من اللطف القديم:

- ماذا تفعل هنا؟ هلا استأجرت بعض الحمير ودعوت العمال القدامى؟ يعوزنا عشرة حيوانات قوية على الأقل. لا أريد عاملاً جديداً.

- سأفعل، لكني أحتاج للمال.

- ألا تحسب النفقات السابقة؟ يتحتم عليك أن تعمل حساباً دقيقاً على الورق، وتضع لكل بند خانة يقابلها الرقم الذي أنفقته، لا أحب هذه العشوائية، إننا نقوم بعمل دقيق ومنظم.

- كما تعلم، أنا رجل أمي، ما تعطيني أنفقه، وقد وزعت الأجور للعمال في حضورك.

- صحيح، أعرف أنك لا تسرقني، خذ آخر مال في حوزتي.

وأمسك ورقة المائة بجشع، وبالكاد نزعها مهدي من يده، وهبط مهدي من التل خائفاً جاراً جسده الخائر، لم يصب بمثل هذا الشعور بالخوف والخمول مطلقاً.. شعر بنفور شديد من رئيس الفريق، الآن فقط رأى الوجه الحقيقي لهذا الرجل، وجه صارم منفر متجهّم، ومع ذلك هو مجبر على مرافقته بموجب عقد العمل، وتصريح وجيه القرية ومالك أرضه، أما بربر فإنه غير مجبر على مرافقتهم، كان قنديل وكمال بيومي يتحدثان عنه بشكل مريب، سمع أشياء أخرى معقدة ومربية نفتها الضابط الغاضب في وجه قنديل. ولم يعد يفهم شيئاً..

كان يحدث نفسه بقلق، وفجأة رأى بربر يمشي بخفة فريدة أسفل التل، فاستجمع ما بقي له من جهد ووسّع من خطواته حتى أدركه، وشرع يقول منبهاً: "هيه، بربر، يا بني، أوصيك أن تحذر...".

أطلق الفتى ساقيه وهرب بأقصى سرعة، وسأل مهدي نفسه بعجب: لا شيء يستحق الجفاء! ليتني أعرف ما يدور في رأسه!

وأسرع لا يلوي على شيء، ودار على منازل العمال والأجراء، وجعل يطلب الحمير من أصحابها، عارضاً الريالات أمام أعينهم، ولم يكن سهلاً على أي فلاح أن يتخلى عن حماره في ذلك الموسم من العام، لكن الأجر كان كبيراً، وهو نفسه ضمّ حماره وفاز بسبعة ريالات. كانت معظم

الحمير ما تزال في المرعى، فانتظر عودتها حتى الغروب،
وجعل يفاوض أصحابها عليها، ورفض البعض متعللين بأنهم
في عوز لها، واستجاب آخرون، وصار يقودها فرادى إلى
زربيته، وذهب يبحث عن الحمار الأخير، من أين يجلبه؟ لقد
مرَّ على معظم الأجراء، ولم يعد يحضر في ذهنه أي حمار
في القرية، وبينما هو يفكر نهق حمار من زريبة مجاورة.
كان ذلك هو حمار "جوهرة". وشعر بالارتياح، هل ستقبل
الأرملة أن تؤجِّره حمارها أم ستتذرع بأنها في عوز إليه
لحمل المياه للأغنام؟ اقترب من المنزل، وتردد للحظات، ثم
طرق الباب برقة، وسمعها تسأل عن الطارق، فأجاب
بصوت رافع يوحي بالثقة والأمان:

- أنا مهدي، وأريد أن أستأجر الحمار.

فتحت الباب وقالت بعجب وهي تضحك:

- أهلاً مهدي، هل قلت إنك تريد استئجار الحمار؟

- نعم، ألم يخبرك بربر؟ سنذهب مع فريق التنقيب إلى جبل
بعيد، وهو الدليل.

- نعم، لقد أصرَّ أن يذهب، وسأضطر أن أطعم الغنم الحشيش
الجاف، وهذا سيتلف بطونها. ماذا أعمل؟ ولدٌ شقي.

مدَّ لها سبعة ريالاً وهو يقول مواسياً:

- لا عليك، إنه في سن الطيش. خذي أجر حمارك.

- سبعة ريال، هذا مبلغ مغرٍ.

- نعم، إنه كذلك.

أخذتها غير مصدّقة وهمست مازحة بنبرات مثيرة:

- وكم ستدفع إن أردت استئجار صاحبة الحمار؟

أجاب بخجل:

- جسدي كله فداك، لو أستطيع أن أعطيك نفسي لفعلت.

ضحكت بصوت خافت وردت هامسة:

- احذر أن يسمعك بربر، إنه حارس عنيف لأمه، وأراه هذه

الفترة يجمع الخناجر والمدى الحادة، أنا حقاً قلقة عليه.

همس لها قائلاً:

- يجب ألا يقترب من التل، هناك ضابط مصري لا يجب أن

يراه، لكن الفتى كما تعلمين لا يطيق رؤيتي.

- نعم، إنه عنيد، لا أدرك ما يخطط، سأفعل ما بوسعي،

اذهب الآن.. خذ الحمار من الزريبة.

انقلب مزاجها فجأة، وتحوّلت إلى الجدِّ. بدت متكدرّة،

وأوصدت الباب بقسوة، فأخذ الحمار من الزريبة، وابتعد

مشفقاً، متجهاً إلى منزله. لا يمكن أن يكون عاشقاً لهذه

المرأة، إنه فقط معجب بشخصها وبخفة روحها، مدهشة مثل

نسمة هواء تدغدغ الوجه، سمراء مكتنزة لسانها ينقط عسلاً،

جميلة حين تبتسم أو تضحك، فيتجلى ثغرها عن أسنان

صغيرة ناصعة رُصّت بمهارة، لكن أمام كل شيء مستحب

عقبات. عاتقة وإن بدت لا مبالية لن تزغرد بفرح، وبربر كذلك يقف له بالمرصاد، ناهيك عن مشاكله الأخيرة، وسوء الحال، وزجر هذا الأمل الخائب من رأسه، وشعر بالرضا وهو يرى العشرة الحمير مكدسة قرب منزله.

-9-

في الغداة، قبيل الشروق شُدَّت الأمتعة على الحمير، وظهر بربر على قارعة الطريق. كان مهدي متأهباً يشرف على العمال، ولاحظ أن قنديل ينظر إليه بانفعال، أوضح له أن أجر كل حمار هو سبعة ريالات، وردَّ له ثلاثين ريالاً، فسأله قنديل بحدة:

- هل أتى الدليل؟

- نعم، إنه منتظر في الطريق، والعمال سيأتون معنا.

- هذا أفضل، لن يعوزنا أي شيء آخر. أليس كذلك؟

- نعم، جاهزون للانطلاق.

والتفت إلى الضابط كمال بيومي وأضاف قائلاً بحزم:

- انتظرنا هنا.. احترس على الموقع، لقد تركت لك الجنود المصريين والطاهي ونصف المؤن وجهاز تلغراف، وأنت تعرف كيف تستخدمه إن حدث أمر طارئ.

تبسم الضابط وأجاب بتهكم: "أمرك يا باشا".

فانطلقوا للتو، بربر والجنود المحليون في المقدمة، ومهدي وأعضاء الفريق في الخلف إضافة إلى العمّال القرويين، وأثناء السير سأل قنديل عن طبيعة جبل "الرزاعي" الذي يتجهون إليه، مستفسراً عن سكانه، والحيوانات البرية التي تعيش فيه، والطقس هناك، وغير ذلك من الأمور التي يتحتم أن يعرفوها، فتولى مهدي الرد. الأهالي عشائر بدائية متناحرة تكره الملكيين والجمهوريين وجميع البشر على حد سواء، يعيش أفرادها وكثير من قرود الربّاح الجبلية الشرسة، ولا فرق كبير بينهم في الشكل والسلوك، وكأنهم من سلالة واحدة، لكنهم بشر وهذا أمر مؤكد، إذ يتكلمون اللغة المحلية مع تلحين بسيط في الصوت يميّزهم عن صياح القروء، ولكل عشيرة زعيم متسلط يسير وراءه كثير من المرافقين المسلحين، ودائماً ما يتقاتلون على الأراضي البكر، ويتنافسون على المناطق المرتفعة كما تفعل النسور، إذ يتيح لهم الارتفاع أن يراقبوا أعداءهم ويعيشوا آمنين، والأفاعي والعقارب هناك متنوّعة الأشكال والأحجام، وهي سامة ومخاتلة والأصغر منها بحجم الكف، والنمور تخرج ليلاً لصيد فرائسها، وتنافسها الضباع، ويقال إن الجان يحتلون الجبل، ويسمع الأهالي بكاء أطفالهم الغريب يصدر في الليالي شديدة السواد، وأكثر السكان هناك يصابون بالجنون، إذ تتلبّسهم العفاريت عندما يقتربون من الأطلال المهجورة، والكنوز هناك محروسة بثعابين كجذوع الأشجار، وتكون

مرصودة بأسماء أشخاص بعينهم، ولا يستطيع شخص غيرهم أن ينالها، وأي رجل يحفر هناك يظهر له الثعبان الحارس ويلتف على جسده ويعصره كالليمونة...

عندئذ صرخ قنديل فجأة بهلع:

- كفى، ما هذا الهراء؟ أتريد أن تبث الرعب في نفسي؟

- لا تغضب يا أخي، كانت أمي تحدثني بذلك فأتشبت بملابسها خائفاً.

- ماذا؟ ألم تزر الجبل من قبل؟

- لا، بل هذا كلام المرحومة أمي، ولعلها زارت الجبل ذات يوم، فقد كانت أقوى من عفريت.

- لعلك كنت شقيماً، وقد أرادت أن تخيفك وتردك عن الذهاب بعيداً خارج القرية.

- لا شك في ذلك، فقد كنت شيطاناً مريداً، وراعياً مثل بربر وأكثر شقاوة منه.

هتف قنديل على بربر، فأتى على عجل، وسأله عن الأشياء التي قالها مهدي، فصمت قليلاً وكأنه يتذكر ثم قال بنبرة مشددة:

- كنا ثمانية رعاة، وكنت الأصغر، ذهبنا إلى الجبل وبقينا سويعات قليلة فقط، إذ رأينا هياكل عظمية لأغنام متناثرة هنا وهناك، فعدنا أدراجنا للتو خائفين.

- هل يعني ذلك أن كلام مهدي صحيح؟

- إنه يبالغ، لكن الجبل لا يخلو من الضواري والقروء،
وبوسعنا أن نشعل ناراً متأججة، ولن تجرؤ الحيوانات على
الاقتراب.

- هل يمكنك أن تبيت معنا ليلة واحدة؟

- نعم، أنا مجبر على البقاء ليلة واحدة معكم.

- أحياناً يكون الناس أكثر خطراً من الحيوانات.

- إن كنت تقصد سكان الجبل فإنهم يبدوون معزولين ولا
يحبون الغرباء.

ثم نظر الفتى إلى مهدي بهدوء قبل أن يعود أدراجه، وتعجب
الأخير كيف يبدو مزاجه هادئاً أمام الآخرين، وحين يقابله
على انفراد يتصرف بعدوانية.

لم تتوقف المجموعة إلا مرة وحيدة للراحة والأكل وإطعام
الحمير، ثم واصلوا السير، ولم يحدث شيء خارق أثناء
الرحلة، مضى كل شيء على ما يرام، عشر ساعات كاملة
أمضوها حتى رسوا على الجبل. وهناك ربطوا الحمير على
سيقان أشجار صغيرة لتكون على مرمى أبصارهم، وتركوها
لتأكل العشب الجبلي الكثيف. ثم ضربوا خيمتهم جوار
الموضع الذي ظنّ بربر أنه عثر على التمثال فيه. بدوا
بعيدين ومعزولين، بحيث ظنوا أنهم بمنأى عن عيون السكان
الجبليين، لكنهم بعد قليل بوغتوا بالأهالي يحيطون بهم من

كل حذب وصوب، كانوا غاضبين شاهرين الخناجر والعصي الغليظة والبعض يصوبون بنادق البارود القديمة إلى أجساد المنقبين، ولم يقف الجنود مكتوفي الأيدي، وفعلوا ما تدربوا على فعله، فانتشروا واتخذوا وضعيات دفاع خطيرة، ومن يراهم منبطحين لا يشك أن الأمر جد حقيقي، وأن الرصاصة الأولى ستنتقل بين لحظة وأخرى. بدا أن الرحلة ستنتهي نهاية مأساوية ولن ينجو منهم أحد، تطوع مهدي لمفاوضة المهاجمين، بينما أمسك قنديل التلغراف بدافع غريزي، وبعث إشارة الاستغاثة، وكانت أقصر وأسرع رسالة طارئة تثير الانتباه، وهي عبارة عن كلمة واحدة كررها عدة مرات: "نجدة، نجدة..."، وأضاف الرمز الذي يدل على هوية المرسل. وحدد إحداثيات الموقع كما ظهرت على شاشة الجهاز، لكن هل سيمهلهم هؤلاء السكان البدائيون المتتمرون حتى تأتي النجدة؟ أمسى رئيس الفريق يعول على حنكة مهدي في تهدئتهم، ومن ثم إطالة أمد التفاوض معهم. وسمعه يصيح بأعلى صوته:

- نحن من طرف الدولة، ومعنا تكليف بالتنقيب.

لم تتغير تعبيرات وجوههم، وكأنه يتكلم بلغة أخرى، أو أنهم صم الآذان، فأشار إلى الجنود وتابع صراخه:

- هؤلاء جنود.. عسكر.. هل تفهمون؟

نظروا إلى بعضهم باستغراب، وبدوا كأنهم لا يفقهون شيئاً من كلماته، فأردف سائلاً بيأس:

- أيكم الزعيم؟

تقدّم عدد من الرجال من مواضع متعددة، وعرف مهدي أن أولئك زعماء العشائر، ويتحتّم أن يخاطب كل زعيم على حدة، فاقترب بما يكفي وهو يرتعد، ويخشى أن يصاب بإطلاق نار من الأمام أو الخلف، ثم استأنف صارخاً:

- أيها الزعماء ألا تعرفون الدولة؟

تكلم أحدهم قائلاً بنبرات حادة:

- هل تبحثون عن الدولة هنا؟ ماذا تريدون أيها الأعراب؟

انسحق قلب مهدي، وشعر بالإحباط، هل يعقل أنهم لا يعرفون الدولة؟ وهل يشرح لهم ماهيتها؟ وكيف يشرح ذلك؟ من أين يبدأ؟ وهل سيفهمون؟ هو نفسه لا يفقه شيئاً عن الدولة سوى أنها عصابة متسلطة تمتلك القوة، وتجبر الناس على طاعتها، مقابل أن توفر لهم الحد الأدنى من الأمن والخدمات والسعادة، ولعلمهم هنا لا يعرفونها إلا حين ينتهون من حصد غلالهم، ومن ثم يأتي إليهم جباة أفضاظ لتحصيل الزكاة كما يحدث في سحمر وغيرها من المناطق. وقد لا تعني الدولة لهم شيئاً أكثر من آفة تمتص قدراً من أموالهم وأجسادهم ولاسيما أوقات الحروب. صاح مهدي بصوت مفعم بالضيق:

- لا نبحث عنها في الجبل، بل جننا من طرفها، ولسنا أعراباً، ألم تسمعوا عنها حقاً؟

ودُهِش حين قال أحدهم بنزق:

- أجئتم تطلبون محاربين أم غللاً؟ لقد سلّمنا الزكاة إلى أيدي القبّاضين^{١٣} قبل بضعة أعوام، ولم يعودوا ثانية.

وشرح لهم مهدي أن المصريين جاءوا للتنقيب في الجبل مكلفين من الدولة، وأن الكنوز سوف تباع وتعود عليهم بالفوائد، وهنا استشاط قنديل غضباً وصاح بقهر:

- عليك اللعنة من مفاوض، ما هذا الكلام؟ لا تقل كنوزاً، إنها آثار وبيعها يعد جريمة كبرى، أنت تثيرهم أكثر.

وبالفعل ثاروا وانتفضت عروق الغضب والحمية في جباههم وأصداغهم، وصاح الزعماء بعصية:

- ماذا؟ مصريون يبيعون الكنوز! يا ويلكم أيها الأعراب! هيا، غادروا أرضنا حالاً.

وتحقّزوا للهجوم، فأوحى إليهم المفاوض أن يهدؤوا حتى يصلوا إلى حل غير القتال، وروى لهم إن المصريين ليسوا أجانب كما يظنون، بل هم جزء من العرب، وقد أتوا ليساندوا الثوار الجمهوريين ضد الملكيين، فخرجت عيون الزعماء من محاجرها وصرخوا:

- ماذا نسمع، أهنالك حقاً ثورة على حكم مولانا أمير المؤمنين الإمام الناصر أحمد حميد الدين؟ هل أنتم حقاً من الثوار الجمهوريين؟ لن تفلتوا من أيدينا.

^{١٣} اسم يطلق على جباة الزكاة في عهد الملكية.

وساءت الأمور أكثر، وغشي العرق وجوه المحاصرين،
وصبَّ قنديل اللعنات على مهدي الذي يوجب غضب السكان
المحليين أكثر، ووصلت المفاوضة بين الطرفين إلى طريق
مسدود، وتبادلوا إطلاق النار، وانبطح مهدي ساداً أذنيه
براحتيه وهو يتوقع أن يموت في أي لحظة، وأثناء ذلك
سمعوا هديرًا مخيفاً في السماء، وسقطت على سكان الجبل
كتل كبيرة ذات انفجار مرعب، فصرخوا وتفرّقوا في أرجاء
الجبل فارين. وظلّ الهدير ينبعث بين فينة وأخرى، وأحسوا
بالأمان رغم أن الخوف الذي صنّعه التفجيرات في نفوسهم
أكبر مما صنّعه السكان المحليون، ولاحظ قنديل اصفرار
وجوه رفاقه لاسيما القرويين فقال بزهو متنفساً الصعداء:

- اطمئنوا، لقد رمت الطائرة عليهم قنابل صوتية، إن مهمتنا
الآن محاطة بالعناية الجوية.

ثم ألقى نظرة نارية إلى وجه مهدي وتابع بسخط:

- وأنت كدت تلقي بنا في التهلكة، يبدو أنك تريد لنا أن نخفق.

- لم أقصد ذلك، لقد نطقت بما سطع في رأسي دون تفكير.

- لا يجب أن تفاوض مرة أخرى.

- نعم، أتمنى ألا أقع بمأزق مماثل.

جالوا في الجبل مستغلين الضياء الأخير للنهار. بدت المواقع
الأثرية بكرةً لم تُمس، ففطنوا إلى أن الجبل معزول ومحمي
بالأساطير المخيفة والوحوش والسكان الجبليين الرهيبيين،

ولا يجرؤ على صعوده سوى شخص يود الانتحار أو مجنون، أما عوامل التعرية فقد قلبت الأطلال رأساً على عقب. كان المكان صامتاً موحشاً تكسوه الشجيرات والصخور وبقايا مساكن قديمة. رأوا بضع سحالي وعقارب تختبئ بين الأحجار والشقوق، واعترفوا بأن المبيت هناك سيكون جنوناً محضاً، وحبذ غالبيتهم أن يغادروا قبل حلول الظلام، لكن قنديل افتنن بالأطلال البكر المهيبة، وظلّ يتأمل الأحجار النضيدة المربعة بتمحيص، ووقف مبهوراً أمام رسوم حيوانات برية منحوتة على الصخور، فأصرّ على أن يبقوا بعض الوقت وينقبوا عليهم يجدون شيئاً. وهكذا نصبوا ثلاث خيام كبيرة بموضع مكشوفٍ مستوٍ، وبعد أن فرغوا منها كان الظلام قد خيم.

كان هناك بعض الأشجار الجافة المقطوعة مكدسة بالجوار، بدا أن أحد الحطابين قد اجتثها وتركها هناك لتجف، فجمعها العمال، وأشعلوا ناراً متأججة، ثم شرعوا يفحصون المكان، مستضيئين بالمشاعل. وقادهم بربر إلى الموضع الذي عثر فيه على تمثال الجندي، فحفروا بعض الوقت، لكنهم صادفوا تربة خشنة غير مبشرة، لذا انصرفوا يائسين، وساقهم مهدي إلى موضع آخر بعيد، وهو منحدر معشب لا يبدو أنه يحوي شيئاً، فاستشاط قنديل غضباً، ونظر إلى مهدي متجهماً، وقال بارتباب:

- أتريد أن تبدد وقتنا أيها الفلاح الخبيث؟

ردّ مهدي متظاهراً بالحنق:

- سامحني يا أخي، لن أحشر أنفي بهذا الأمر.

وشرد رئيس الفريق قليلاً، ثم قال بضيق:

- احفروا هنا قليلاً لنرى حظ هذا الرجل التعيس.

وبدا و كأنه لم يعد يؤمن بالحظ الحسن، أو يجد فرقاً بين أن يحفر هنا أو هناك، وذلك لأنهم انتهوا إلى رأس جبل كبير مكتظ بالأطلال القديمة، والعتور على شيء فيه كالعتور على مسمار وسط مستنقع كبير، ولهذا بدت علامات تشاؤمه واضحة على تقاسيم وجهه، فجلس جانباً يدخن بشراهة صارفاً نظره عن مكان العمل.

كان بربر يقف بالقرب ممسكاً بمشعل مضيء، بينما جعل العمال يحفرون مطلقين أهازيج العمل الصاخبة، ناثرين التراب على جوانب حفرة أخذت بالاتساع، وبعد أن أزالوا الطبقة العليا السطحية التي كانت تغطيها الأعشاب الخشنة، ظهرت تربة ناعمة مبشرة تتبعثر بأيديهم كالطحين، ولم يعن لهم ذلك شيئاً، وفي تلك الأثناء سمعوا صياح القروذ يأتي من مكان قريب، فاستقام رئيس الفريق مصيحاً السمع بانتباه، أما مهدي فقد كانت جميع حواسه مشدودة تتابع تلك التربة المبتوثة، وأحس بذلك الشعور الذي انتابه يوم حفر في تلي المكرب والأكمة، وهو الخوف من ظهور شيء ما، وحين اختار هذا الموضع لم يكن مخلصاً في اختياره. لقد أراد فعلاً أن يبدد الوقت، ولكن على ما يبدو أن الأمور تمشي عكس ما يريد، لذا استأذن ليقضي حاجته في الجوار، فأذن له قنديل،

ونصحه ألا يبتعد. أخذ مشعلاً واتجه إلى خلف شجيرات قريبة، ونثر بوله في العراء، ثم أطلق صوتاً غريباً رهيباً، وعاد وهو يجري بخوف، ووجد الذعر مسيطراً على الفريق، وأطلق جندي النار لإنذار الحيوان المجهول بالابتعاد، وعجزوا عن اكتشاف الحيوان صاحب ذلك الصوت الفريد، فقال قنديل متهكماً:

- يدعى مهدي، وهو حيوان محلي ساذج.

وضحكوا وظنوها مزحة، وقهقه بربر بشدة. لم يره أحد يضحك من قبل، فتلبد وجه مهدي بالسواد، وقال بارتباك:
- أتظنون أنني أخدعكم؟ سترون أنني لا أكذب.

- لا تستطيع تقليد الأصوات بشكل جيد، وهذه هي المشكلة.
أتريد أن تفرعنا؟

صمت مهدي على مضض، واكتفى بالتجهم، وتفادى نظرات قنديل الصارمة، ولكن صوت حيوان حقيقي انطلق من الجوار، فانفرج وجه مهدي بتشفٍ، ونظر إليهم بثقة رغم اختلاف الصوتين، وكأنه يقول: هل سمعتم؟ أنا على صواب. تطلع الجميع حولهم منصتين، ولمعت عينان من موضع قريب، فأطلق الجنود النار. فاخفت العينان وساد الهدوء مرة أخرى، وعاد العمال يحفرون، وشعر مهدي بالغم، وهو يرى هشاشة الحفرة. بينما صار قنديل يتحرك حولهم بقلق، وأفصح أنه يخشى أن يهاجمهم رجال العشائر أكثر من خشيته من الحيوانات، لذا حثَّ الجنود على الانتشار حول

المكان، واعترف بأن قراره بالبقاء هنا كان خاطئاً، وأن سلامتهم أغلى من جميع كنوز الأرض. أخيراً صاح على العمال بصوت مضطرب:

- ماذا تفعلون؟ إننا نبدد الوقت، المكان هنا خطير، سنغادر عند الشروق، هيا، إننا في غاية الإجهاد، اذهبوا للنوم.

وسار يائساً باتجاه الخيمة، وفجأة خرج صوت أحد العمال من الحفرة قوياً:

- هيه، وجدت شيئاً، انظروا...

رفع العامل شيئاً طويلاً في الهواء، ولاح لهم على شكل سيف أنيق، فتجمّد قنديل مصعوقاً بضع لحظات، وكأن أحدهم أنبأه عن عودة والده الميت من المقبرة، ثم ارتد مسرعاً، ونزع المشعل من كف بربر، واقترب من الحفرة. كان العمال يخرجون سيوفاً وخناجر مطعمة بالفصوص النفيسة وعتاداً حربياً قديماً، وظلوا يخرجونها حتى فكروا أنها لن تنتهي، وصرخ قنديل على الجنود بانفعال:

- تعالوا أيها الحمقى.. ساعدوا العمال، واحذروا أن تحطموا شيئاً، بل اطلبوا رزم الكراتين وعجلة اللصق من الخيمة.. هيا أسرعوا.. دعوا جندياً واحداً للحراسة.

وصمت قليلاً، ثم انطلق يصيح بهوس:

- احضروا المزيد من المعاول.. سنوسّع الحفرة.. سنحفر جميعاً.. ساعد الجنود يا بربر.

فأسرع الفتى متحمساً، وجلب معولين إضافيين، وجاء الجنود بقطع الكرتون المتراسة وعجلات اللصق وأكياس الخيش الفارغة، وعمل الجميع على توسيع الحفرة بكل طاقتهم، وجرفوا التراب بعيداً. ساعدهم مهدي مكرهاً، وقلبه يشتعل ألماً وحقداً على نفسه، لا يدري كيف تحدث الأشياء البغيضة! لا ريب أن قنديل سيأخذ كل شيء، لن يعطي أحداً شيئاً، إنه جشع وبخيل للغاية و... فجأة أصاب بمعوله تمثالاً وحطمه نصفين محدثاً صوتاً، وصرخ قنديل في وجهه بغضب، وانتزع من أيديهم المعاول ورماها خارج الحفرة، وأوصاهم أن يستخدموا مكانس من الشجر ليزيلوا الأتربة عن القطع الأثرية، فجمعوا الأغصان، وكنسوا حواف الحفرة، وسرعان ما استطالت واتسع قطرهما، وظهرت تماثيل آدمية من البرونز والذهب الخالص وأكواب فضية وذهبية ودروع وحلل أنيقة وتماثيل آدمية ورؤوس حيوانات، وتماثيل صغيرة للأميرات وأقبال وألواح مرمرية عليها خيول ذهبية متقابلة، وتماثيل لملوك منحوتة أسمائهم على تيجانهم المرصعة بالفصوص والأحجار الكريمة.

كان وجه مهدي يزداد سواداً، وينز عرقاً، وهو يرى تماثيل الأميرات المخضبات، وظهرت قطع برونزية لحيوانات برية، خيول، وعول، غزلان، أرانب، ونمور، ثم أقداح وصحاف وتيجان ومعظمها من المعادن النفيسة، وتناول قنديل بكفين راجفين حفات من فصوص بيضاء شفافة مكعبة الشكل لامعة، وجدها العمال داخل تاج ملكي كبير، وأوشكوا

أن يقذفوها بعيداً لولا أن صرخ فيهم ألا يفعلوا، وأخذ يشتمهم على غبائهم وهو يئن منفعلاً. تأمل تلك الحصى المكعبة البراقة متأثراً وكاد يجهش بالبكاء، ثم دسّها وسط مغلف كبير ووضع عليه لاصقاً محكماً، ونقش بقلمه حروفاً كبيرة على ظهره وأخفاه خلف سترته. وظهرت ملابس ملكية وأكوام حلي ومجوهرات ولاحت سبائك ذهبية متراصة، وجرار ممتلئة بالعملات القديمة، وتيجان ملكية مختلفة الأحجام. ومنحوتات برونزية لكائنات أسطورية مجهولة، وأخذ قنديل يجرف العملات الذهبية والفضية مستخدماً قبعته، وهو يضحك بهستيرياً، ومضى يحدّق مبهوراً في الكنز الذي لا يكاد ينتهي، صائحاً بدهشة:

- لا أصدق ما أراه! هذا أعظم اكتشاف أثري في العالم، سأغدو أشهر من هوارد كارتر.

وتذكّر مهدي النبوءة القديمة عن الرجل الذي يأتي من الجنوب ليحرف بكوفيته الذهب، لكن هذا الرجل كما يظن أتى من الشمال وليس من الجنوب!

انتبه قنديل إلى جهل الجنود بطريقة شحن الآثار، فأتى لمساعدتهم وإرشادهم. كان المنقبان المحليان يستقبلان القطع من العمال، ويحملانها إلى الجنود الذين يقومون برصّ كل صنف على حدة داخل كرتون أو كيس، بينما يقفلها قنديل ويغلفها باللاصق ويكتب بقلمه نوعها بإيجاز، وامتلات الكراتين بالقطع الثمينة والعملات الذهبية، فجلبوا أكياس الخيش، وحرصوا أن يضعوا فيها السيوف والخناجر والقطع

القوية التي لا تنكسر، وسرعان ما امتلأت الأكياس، ورغم ذلك استمرت اللقى المتنوعة تخرج من الحفرة، فافتрشت السيوف والخناجر والأدوات الحربية القديمة الأرض وتكوّمت، وصاح عليهم رئيس الفريق أن يجلبوا الملاءات من الخيمة والبطاطين، وأي شيء يمكن أن يضم القطع الأثرية. وسار معهم مسرعاً إلى الخيام ليساعدهم، إذ مازال هناك قطع معرضة للهواء ويخشى عليها من التلف.

في النهاية تجلّت الحفرة عن بركة مستطيلة بعمق ثلاثة أمتار مبطّنة بالحجر الأملس. بدت فارغة تماماً بعد أن أخرجوا جميع محتوياتها، ولاحظت على جدرانها كتابات محفورة بلغة المسند، ورسوم لسدنة يقدّمون قرابين لآله قرانح، وهو إله غامض غير معروف في تاريخ الممالك المحلية القديمة، وأبدى المؤرّخ فرحان استغرابه من تلك الطقوس المجهولة، وطلب من صديقه عثمان قارئ الخطوط أن يقرأ أحد النصوص المدوّنة على جدار البركة، فقرأ النص بصوت مسموع: "قدم مُكرّب (ملك) سحامر المجل سحمر إل أمر وهد لآله قرانح ألف غلام وصبية صغار السن من عشائر "مرثد" قرباناً وامتناناً لمساندتنا على قهر خصمنا اللدود كبير أقيال "مرثد" حمش إل عائد، واستيلائنا على جميع ملكه في الجبال والوديان من كومن (كومان) إلى قاع جهرن (جهران)...".

قاطعهُ المؤرّخ صارخاً:

- هذا غير معقول، لا توجد في التاريخ القديم أي إشارة إلى مملكة سحامر المزعومة أو مرثد، هل أنت متأكد من ذلك؟ هيا، أكمل النص.

وصاح مهدي فجأة:

- هذا الكنز الذي تحدّث عنه كبار السن في قريرتنا، وقد أحرقوا الفتيان والفتيات في تل المكرا ب و...

- لا تقاطعنا أيها القروي القذر، إن هذا النقش سيغيّر أشياء كثيرة في علم الآثار وتاريخ الممالك القديمة هنا. إنه سر قديم وخطير سيكون لنا السبق في اكتشافه و...

أتى قنديل صارخاً بصوت فظ:

- ماذا تفعلون في قاع الحفرة؟ هيا ساعدونا في شحن القطع المتناثرة قبل أن يفيق رجال العشائر من نومهم، لا وقت لدينا لنضيعه.

خرجوا من البركة متناقلين، وحين رأى الوجوم في وجوههم وخيبة الأمل تابع بلطف:

- لا ريب أن قراءة هذه النقوش أمر مفيد في علم الآثار، لكنها لن تهرب، وبوسعنا أن نعود إليها في وقت لاحق. أعدكم بذلك.

وانزوى جانباً، وشرع يضرب أزرار التلغراف، ويضع عيناً على الشاشة والعين الأخرى على العمال والفريق وهم يجمعون آخر القطع ويوشكون على إنهاء عملهم، وبعد أن

فرغ من مراسلته لجهة لم يفصح عنها بوضوح، أخذ يتحرك بقلق، وحثَّ الجنود على الانتشار والمراقبة، ثم ابتعد عن طريق العمال الذين كانوا يقفون في طريقه لاهئين ناظرين ناحيته بعشم، وجعلوا يمسحون العرق عن جباههم وكأنهم يشيرون إلى الجهد العظيم الذي بذلوه، ولعلمهم تمنوا الفوز ببعض القطع الذهبية مقابل جهدهم، أو على الأقل أن يطريهم ببعض الكلمات، لكنه ظلَّ متجهماً يصرخ بانفعال رغم انتهاء العمل، فأمست مخاطبته مجازفة غير محمودة، وبات الاقتراب منه محفوفاً بالمخاطر وكأنه لغم أرضي.

اقترب فجأة من بربر، وانتحى به جانباً وقدم له شيئاً ما، وأخذ يهمس في أذنه، والفتى يهزُّ رأسه موافقاً ثم انفصلا، واتجه بربر بعيداً، وغاص عمق الأطلال القريبة، ولاحظ مهدي هذا، وشعر وكأن الفتى صديق قديم للرجل، كيف ارتفعت بينهما الكلفة خلال هذه المدة القصيرة؟ وسرعان ما فكر بطريقة إيجابية، قد يكون رئيس الفريق سلّمه مالاً أو رسالة، أو بعثه إلى مكان ما في مهمة، فهو دليل المجموعة، ولولاه لم يكن الفريق ليحظى بهذا الكنز. ولم يجرؤ أن يسأل رئيس الفريق المتوتر عن ذلك، لقد بدا قلقاً بشكل واضح، ينظر إلى ساعته باستمرار، ويتطلع إلى السماء العامرة بالنجوم.

كان الوقت قريباً من الفجر، وهم صامتون مستلقون بإنهاك على الأرض، يفترسهم البرد والملل والجوع، بينما رئيس الفريق يدور بعصبية حول الكراتين والأكياس الكثيرة وكأنه

يتفقدُها، ثم يتطلع إلى الأفق بضجر، وظلَّ هكذا مضطرباً حتى ظهر الصباح شفافاً داكناً، ثم تجلّت معالم الجبل وقسماته بوضوح، وفجأة سمعوا هديرأ قادمأ من جهة الجنوب، واقتربت منهم طائرتان مروحيتان محلقتان، وراح قنديل يقفز بفرح ملوحأ لهما بيديه الثخينتين، بينما وقف مهدي والعمال القرويون يتطلعون برعب، وكأنهم يشاهدون نسرين ضخمين يوشكان على مهاجمتهم. كانوا قد سمعوا عن الطائرات المحلّقة في الجو، ولكن كانت تلك أول مرة يرون فيها طائرة، لذا تشجعوا وساروا باتجاهها بحذر متوارين خلف قنديل وعضوي الفريق الآخرين.

اقتربت الطائرتان كصخرتين كبيرتين، مطلقتين صوتأ صاخبأ وهما تتأهبان للهبوط، وأثارتا بمراوحهما المتحركة السريعة زوابع ترابية شديدة، حتى هبطتا بسلام. وخرج منها رجال مدنيون ضخام الأجساد صلح الرؤوس تلوح على أحزمتهم مسدسات وأجهزة إرسال لاسلكية، يتوسطهم رجل ضخم مشرب وجهه بحمرة الطماطم، يلبس بذلة كحلية وربطة عنق حمراء، شعر رأسه ذهبي، وعيناه عسليتان مختالتان، وتقدّما من الموقع الأثري متحاشين الهواء العاصف الذي مازالت تولّده المراوح، فانتصب قنديل كتمثال أثري، مبتسماً بزهو، وصافح الرجل الضخم، واتجها معاً إلى أمام الكراتين والأكياس، وبدأا يرطنان بلغة إنكليزية سريعة. بدا الرجل منتشياً وهو يشير إلى اللقى الأثرية بدهشة، ثم نظر إلى الفريق والعمال وقال شيئاً ما، فالتفت قنديل إلى

أعضاء فريقه قائلاً: "رئيسي يقول برفو، تستحقون مكافأة طيبة".

وتسلّم قنديل حقيبة مفتوحة تحوي رزماً كثيرة من الأوراق المالية مرصوفة بتناسق وكأنها قطعة واحدة، وجلب أحد الرجال من المروحية كرتوناً متوسط الحجم مرسوماً عليه صور وجبات سريعة، ووضعه جانباً، ثم أشار الرجل المحتقن الوجه أن تُحمل الآثار الثمينة إلى المروحيتين، ونقل الرجال الغلاظ الكراتين وأكياس الذهب إلى الطائرتين، بينما شُدَّت الأكياس الخاصة بالعتاد الحربي القديم على ظهور الحمير بواسطة العمال، ثم انبرى الجنود والعمال المحليين والمنقبان يأخذون فطورهم من الكراتين، سندوتشات كبيرة بشرائح البطاطا والجبن واللحم، بينما انشغل قنديل بالتحدّث إلى رئيسه على انفراد، وانتهز مهدي الفرصة، وخطف فطوره، وسار إلى ربوة قريبة ليأكل ويفكر على انفراد. كان يتصوّر جوعاً، لذا فتح الورق الذي يغلف تلك الوجبة الغربية، وحبذ أن يجلس في موضع هادئ ويأكل نصيبه، وفجأة وجد بربر يجلس بمفرده فوق حجر، ويبدو مشوشاً مغموماً، فخاطبه قائلاً باهتمام:

- ألا تأكل شيئاً يا بربر؟

ردّ بربر بحدة:

- لا شأن لك بي.

- عليك أن تلتزم جانب الحذر...

- احترس على نفسك فقط. فأنا أكثر حذراً منك.

نظر إليه مهدي باستغراب، وتذكر أنه رآه يتحدث وقنديل كصديقين، فقال بصوت منكسر:

- فعلاً، ينبغي أن أحترس، أنت حتماً فتى ذكي...

- اسمع، لا تطري علي، أنت لا تفعل هذا من أجلي. إياك أن تقترب من أمي، لقد سمعتك تتودد إليها وتمازحها البارحة.

- نعم، كنت أمزح يا بني، فأملك امرأة طيبة، ولها الحق بأن تتزوج وتعيك أيضاً.

اقترب مهدي منه، ماداً كفه ليربّت على كتفه، فاستقام بربر متحزراً بحركة مفاجئة، وسحب مسدساً مندساً خلف حزامه، وصوّبه إلى وجه الفلاح وهو يقول بسخط:

- ابتعد عنها، وإلا صنعت حفرة على جبينك، هل تفهم؟

هزّ مهدي رأسه متمتماً بالموافقة، وتراجع إلى الورااء ببطء، وقد جفّ الريق في فمه ولم يستطع أن يقول شيئاً، فابتعد الفتى بخطى سريعة وهو يصيح:

- سأذهب لكي آخذ بثأر أبي، إياك أن تقترب منها.

كان قلبه يدق بشدة، ويشعر بالحسرة للنهاية التي وصل إليها حوارهم مع بربر، وتعجب من نفسه إذ يحرص على كسب ود هذا الفتى المجنون. هل لهذا علاقة بإعجابه بجوهرة؟ هل سيتجه فعلاً إلى التل؟ يجب إنذار قنديل وكمال بيومي، وتذكر بعض ما دار في الخيمة من حديث. كان الضابط يبرئ نفسه

من تهمة قتل النقيب حميد، واستغرب مهدي كيف حصل
بربر على المسدس! هل قدّمه قنديل له قبل قليل أم قام
بسرقته من الجنود؟ مهما يكن فقد صار بربر مسلّحاً
بمسدس، وسيردي كل من يقترب من أمه لا سيما هو. يا لي
من مجنون! خاطب نفسه ونفض آخر أمل مازال يراوده، مع
أنه لم يتأكد بعد ما تعني له تلك المرأة، لا ريب أن هناك شيئاً
صغيراً كان ينمو في أعماقه، وها قد قضى عليه هذا الفتى
البغيض.

ارتد يبحث عن فطوره بضجر، وجده على الأرض ملطّخاً
بالتراب، فرماه جانباً بامتعاض، وعاد إلى الخيمة وأكل كعكة
يابسة، ولم يجد شيئاً غيرها. وسمع هدير الطائرتين ورأهما
تقلعان مثيرتين زوابع من الأتربة، فتوارى داخل الخيمة حتى
هدأ الهدير وخفّ الغبار، ثم خرج إلى رفاقه.

كان قنديل يوزّع المال على العمال والجنود، ويمنح كل فرد
منهم ألف ريال، وهو مبلغ كبير. كان يظن الرجل بخيلاً،
ولكنه كان كذلك بالفعل، وهذا الأجر صغير جداً مقارنة
بالرزم الكبيرة التي رآها في الحقيقة، ورغم ذلك تعالت
ضحكات العمال والجنود المتعبين القنوعين، ولاحظ
انتشاءهم البالغ، فتشاءم كعادته، وصبر حتى فرغ قنديل
واقترب منه، فقال الأخير حين رآه:

- هل أكلت فطورك يا مهدي؟

أجاب قائلاً:

- لا، لسوء الحظ سقطت حصتي على التراب عندما كنت أتحدث مع بربر.

- بل أنت محظوظ أيها القروي الوغد.

- أما زلت تظن ذلك؟

- نعم. هذا مؤكد، لسوء الحظ لم يعد هناك فطور، هل تخبرني كيف سقط فطورك؟

- أوه، شهر الفتى مسدساً في وجهي، ثم أسرع باتجاه التل ليأخذ بثأر والده كما قال، ينبغي تحذير الضابط ورفاقه.

حملك قنديل عينيه، ثم ضحك على نحو مفاجئ وأجاب:

- لا تهتم، يستطيعون أن يحموا أنفسهم، إنه فتى صغير.

- ابعث لهم رسالة ليحترسوا عبر هذا الشيء الذي تمسكه طوال الوقت.

- أرجوك، لا تزعجني، هيا، أنت الدليل الآن، أخرجنا من هذا الجبل اللعين قبل أن يفيق سكان الجبل.

وانطلقوا سائرين وسط ضياء مبهر عذب. كان الجميع بمنتهى الفرح، فقد انتهت مهمتهم وكسبوا بعض المال، وأشار قنديل أن الفضل يعود إلى حدس مهدي الحاد، وجعلوا يثنون على براعته في اكتشاف مواقع الكنوز، حتى فرحان السيئ الطباع اعترف بفضلته، وبلغ الانتشاء بقنديل حداً دفعه لتقديم رزمة من النقود له، فالتقطها مهدي برضا تام، وهمس لنفسه بفرح: "أخيراً، أتت مكافأتي، يا ترى كم يبلغ هذا

المال؟ لم يسبق أن لمست مبلغاً بهذا الحجم، أظني أستحقه رغم أنني لم أتعمد أن أساعدهم وتمنيت أن يخفقوا!"، وشعر بابتهاج غريب، وصار كل لحظة يرفع أنامله خلسة ويلمس الرزمة، وكأنه يتأكد من حقيقة وجودها، ولم يعكر صفوه سوى صراخ العمال والجنود والمنقبين المباغت. كانوا يمسكون بطونهم بألم، ويتعثرون في السير، حتى استلقوا على الأرض، وصاروا يتلوون متوجعين، وشرعوا يتقيئون دماً أسود.

توقف ليرى ما أصابهم، وأبدى قنديل بعض الاهتمام بهم، ثم ارتد عنهم بشكل مريب. كانت حالتهم تسوء أكثر، وتحرك مهدي بقلق، وأوشك أن يذهب إلى السكان الجبليين طلباً للمساعدة. كانت إحدى قراهم تلوح في الجانب الآخر من الجبل، لكن قنديل صرخ في وجهه بغضب وأمره أن يتوقف، إذ لا يتحتم أن يدرك أحد بتحركهم، لأنهم يحملون عتاداً أثرياً قديماً باهظ الثمن، وليس حطباً أو قصب ذرة جافة، وتقدر هذه الحمولة بملايين من الجنيهات الإسترلينية. ولا يستبعد أن يخسروا حياتهم أيضاً، لأن السكان المحليين لن يترددوا عن قتلهم، وقال أيضاً إن ما يحدث لهم يسمى مرض الكنز، وفي مصر يموت المنقبون دائماً، ولا يستطيع الأطباء الماهرون إنقاذهم، وأحس مهدي بالعجب لأنه وقنديل لا يشعران بشيء!

بعد لحظات كان المصابون قد لفظوا أنفاسهم جميعاً. فجمع قنديل المال من العمال والأسلحة من الجنود، ورزمة أوراق

كانت بحوزة المنقّبين المحليين، واحتفظ بها، ثم قدّم المال إلى مهدي لكي يسلمه لعائلات العمال الهالكين، فقال الأخير بصوت مختنق:

- أهذا كل ما نستطيع أن نفعله لهم؟

- نعم، هذا كل شيء. كما ترى لا نستطيع أن نحملهم معنا.

نقلا الجثث إلى تحت تجاويف صخور قريبة، وكدّسوها فوق بعضها، تاركين علامة واضحة عند التجويف الذي يضم جثث العمال وعاودا السير. أخذ مهدي يئن بأسى، وهو يظن نفسه مسئولاً عن موتهم، فهو من اختارهم للعمل في التل، وقد فرحوا وامتنوا، وصارت عائلاتهم تنظر إليه باحترام. ولاحظ أن قنديل لم يتأثر بما حدث! لم يربد وجهه أو يتملكه الخوف أو الحزن، وكأنه كان يتوقع هذه النهاية المفجعة.

يستطيع أن يجزم أن الأجراء في حياتهم لا يساوون شيئاً، لكن موتهم بهذه الطريقة الغريبة سيثير ضجة شديدة في القرية. هل سيصدّق الأهالي أنهم عثروا على الكنز ومن ثم تحققت النبوءة القديمة بموت جميع مكتشفيه؟ لن يقتنعوا بأمر مرض الكنز المزعوم أيضاً. وسيسألون عن سبب نجاته هو وقنديل. هل سيصبح قنديل هو الناجي الوحيد الذي تحدّثت عنه النبوءة؟ ليته مات، فالعمال الآن صاروا لا يشعرون بأي ألم، واستمر في شروده، وكلما اقتربا ازداد غمّاً وكدرأً، وحين وصلا إلى قرب تل الأكمة شاهدا حشداً من الناس هناك، فسأل مهدي باستغراب: "ماذا يجري على التل؟".

قال قنديل ببرود: "لا أدري".

- لنصعد إليهم ونرى ما حدث.

- هل أنت مجنون؟ إننا نحمل كنزاً، ولن نتوقف سوى في يريم.

- واه، صحيح، كيف نسيت ذلك!

قالها مهدي ثم مدّ راحته ليصافحه وهو يقول بابتسامة فاترة:
"احترس على نفسك، رافقتك السلامة يا أخي".

قطّب قنديل جبينه، وترك راحة الفلاح ممدودة في الهواء،
وقال بغضب:

- يا لك من جاحد! أتركني والحمولة والحمير؟ هيا، اذهب
إلى القرية لتودّع امرأتك، سنرحل سوياً، هذا على الأقل
سيعفيك من غضب القرويين.

تفكّر مهدي قليلاً ثم أجاب بيقين:

- نعم، أنت على صواب. أريد أن أخفي وجهي عنهم للأبد.

قالها باقتناع بحت، واتجه إلى القرية يتملّكه الخجل والخوف.
مرّ على عائلات العمال، وخاطبهم بتلّك، وقدم لهم المال
بكفّ راجفة، ثم أعطاهم علامة المكان الذي رأهم آخر مرة
عنده، لا يدري كيف شرح لهم سر تأخرهم عن العودة، تذكر
وهو يخطو باتجاه منزله بأنه قال: "لقد كانوا متوعكين
عاجزين عن السير، يمسون بطونهم بألم، وتركناهم هناك
بحال سيئ وكذلك المنقّبين المحليين، إنهم بعوز إلى طبيب".

هكذا قال معطياً لهم بعض الأمل، ولعله شرح لهم بشكل ضبابي أنه لم يستطع أن يسعفهم بطبيب، فقد كان السكان المحليين الشرسين يتعقبونهم، هكذا برّر عجزه التام، وهرب من أمامهم قبل أن تفضحه ملامحه وكلماته المضطربة.

مرّ على عاتقة وقدم لها نصف الرزّمة، وأخبرها بأنه سيرحل مع رئيس الفريق وقد لا يعود قريباً. لم تكثر بحديثه لأنه يبالي ويهول الأمور كما تظن. لكنها فرحت بالنقود، بدا ذلك واضحاً في عينيها، وظلت تقلّبها بين يديها وتتنظر إليها ملياً. سألتها عما جرى في التل، فأفضت له بالأخبار من آخرها: بعد الظهر، جاء بربر إلى القرية صارخاً يستنجد بالأهالي، كان المنحوس يحمل مسدساً خلف حزامه، وشهد البعض أنهم رأوه يتجه صوب التل شاهراً مسدسه زاعماً أنه سيأخذ ثأره من قاتل والده، ولم ينكر بأنه عاد مسرعاً من جبل الرزاعي لتنفيذ وعيده، وأنه دخل التل متهيّباً وهو يمسك مسدسه بتحفظ باحثاً بعينه عن الضابط، ولكنه رأى مقتولين قرب خيمتهم، فهاله المشهد وولى هارباً مستنجداً بالناس. ومع ذلك لم يصدّقه أحد، وقبضوا عليه، وسلّموه للجنود المصريين الذين جاؤوا من يريم، والغريب أنه سبق ورأى الأهالي طائرين ضخمين يهبطان في التل، ثم سمعوا صوت إطلاق نار كثيف، وبعد ذلك ارتفع الطائران، وطارا بعيداً باتجاه الجنوب ولهما هدير رهيب، والبعض يسميهما طائرتين لاسيما وجيه القرية وملاك الأرض، وقالوا

إنهما جاءتا لتزوّدا الجنود بالطعام، ويبدوا أنهم فرحوا وأطلقوا النار في الهواء كما يفعل الناس هنا عندما يبتهجون.

غادر مهدي منزله وهو مشوّش الذهن، وصرف أفكاره المشوّشة قرب منزل جوهرة. كانت الأرملة عند المدخل، وبضع جارات يتحدثن بصوت عالٍ عن الحادثة. بدت عيناها حزينتان محتقنتان، فانقبض قلبه رغم عدم أسفه الشديد على فتاها العنيد. كانت تبتسم دائماً وتمازحه عندما تراه، لكنها اليوم صرفت طرفها عنه بشكل مفاجئ، وكأنها لا تريد أن تحدّثه، تأملها بتمحيص، لم تعد جميلة كما كان يراها، ومع ذلك صعب عليه أن يرحل دون أن يقول لها شيئاً من قبيل الوداع والمواساة، فقال:

- جوهرة، سمعت ما جرى في التل، ومستعد لأشهد بأن بربر كان معنا في الصباح.

رمقته بنظرة تائهة، وقالت بصوت مخنوق:

- لقد أخذوه بعيداً.. لم يفعلها، أعرف ذلك.. كيف يستطيع أن يقتل ثمانية جنود مسلحين دفعة واحدة؟!

- نعم، هذا واضح جداً.. إنه فتى صغير.. وقد سمع الناس إطلاق نار في التل عند مجيء الطائرتين.

- ولدي التعيس، كان يدّعي أنه سينتقم لأبيه، وهذا جعل الناس يظنون أنه الفاعل.

- جوهرة، تحلي بالأمل.. إلى اللقاء، مازال لدي سفر جديد
برفقة رئيس فريق التنقيب، وأخشى أن يحدث لي مكروه..
تذكريني دائماً.

تبسمت قليلاً عوضاً عن الرد، فمضى متأثراً. لا يدري كيف
تؤثر هذه المرأة في نفسه! دائماً يحس بشعور مريح حين
يحدثها أو يراها أو حتى يفكر فيها. إنه حزين من أجلها، لكنه
منتش في السر، وهو شعور أناني بغيض، كيف يفرح بشيء
يسبب لها الأذى؟ أيكون قنديل قدّم له المسدس، وبعثه إلى
التل لكي تحيط به الشبهات؟ وتذكر أن قنديل سأله إن كان
أكل طعامه، وحين أدرك أنه لم يأكل فطوره أكد له بأنه
محظوظ. أيكون الطعام مسموماً؟ انتفض جسده، وقفز إلى
الخلف متراجعاً حين خطر هذا الاحتمال في رأسه. أوشك أن
يعود إلى منزله، ثم توقف على قارعة الطريق ليوازن بين
خياراته. يستطيع العودة، لكن عائلات العمال والجنود
المحليين سيطلبون منه أن يفسر لهم ما جرى، وقد يُتهم
بالتورط في موتهم كما حدث لبربر، فيقاد إلى السجن دون
ذنب، إضافة إلى أن قنديل لن يدعه وشأنه، إذ يملك سلطة
نافذة تشبه قدرات السحرة، وبحوزته أداة غريبة يستطيع
بواسطتها أن يجلبه، ولن يعجز عن إغراق القرية بعشرات
الجنود.

تابع مهدي طريقه بيأس، وألقى الحمير في انتظاره خارج
القرية، وقال قنديل وهو يضحك بمكر: "أعلم أنك لن
تخذلني". وسارا صامتين باتجاه مدينة يريم. كان الليل قد

خيّم، والجو مكهرب بالمخاوف. ومع ذلك انقضت المسافة بعد ساعتين. وظهرت المدينة الكثيية، واستقبلهم الجنود المصريون المرابطون في منطقة الخشبة، وحظي رئيس الفريق بالاهتمام، ولاحظ مهدي أن طريقته في السير تشبه مشية الجنود. كانت هناك شاحنة نقل مدنية وسيارة فاكسويجن ذات لوحة خضراء مكتوب عليها: "خصوصي"، ونظر مهدي إليهما بفضول، وأوضح له قنديل أن المركبتين لا يجب أن تحملا أرقام الجيش خوفاً من لصوص الآثار أو المتمردين. وسرعان ما نقل الجنود الحمولة إلى مؤخرة الشاحنة، وأوصى مهدي بتسليم الحمير إلى سمسارٍ من قرية الأكمة يعمل في سوق المواشي، وترك له عشرة ريالات مقابل إطعامها وإعادتها إلى أصحابها، واستقر وقنديل داخل غرفة ملحقة ببناء خاص بالضباط.

وعند الفجر أيقظهما الجنود، وأعطوهما وجبة خفيفة وكأسين من الحليب، فرمى مهدي وجبته جانباً رغم إغرائها، وأكل فطيرة جلبها من منزله، ثم اتجها صوب السيارة الصغيرة، يرافقهما جنديان مسلحان صعدا إلى الشاحنة، واحتلا مكانهما قرب السائق، وتحرك موكبهم الصغير على طريق أسفلي آمن - شقه الصينيون قبل الثورة - صعوداً باتجاه صنعاء.

كانت هناك نقاط عسكرية بمدخل المدينة، وتظهر بعض العربات والدبابات منتشرة على جانبي الطريق العام، وقد توقفوا عند أول حاجز تفتيش قرب منطقة كومان، وسأل الضابط المصري عن حمولة الشاحنة، وأجاب قنديل بأنها

قطع من الخردة القديمة، فأمر الضابط بتفتيشها، فأخرج قنديل عبدالنور بطاقة زرقاء، وعرضها عليه دون أن يتكلم. فألقى الملازم عليها نظرة، وسرعان ما تغيرت ملامحه، وأذن لهم بالمرور قائلاً باحترام: "اعذرنى يا فندم..".
ومروا بهدوء، ولاحظ قنديل دهشة مهدي، فقال بتهكم ملتفتاً إليه: "ماذا يدور في ذهنك أيها القروي؟".
أجاب بفتور:

- لا شيء، لكنك تبدو شخصاً مرموقاً ذا رتبة كبيرة.
- أظنك تحمل أفكاراً سيئة عني بعد أن سمعت ما دار من حوار في الخيمة.
- كلا، لم أفهم الكثير مما قيل، أذكر أنني سمعت شيئاً عن بيع الآثار.
- وهل صدقت ذلك؟
- وماذا يمكنك أن تفعل بها إن لم تبعها!
- يا لك من جاهل، سأحوّلها إلى المتحف الوطني في صنعاء لأنها ملكية عامة.
- لا أخفي عنك أن هناك أموراً حدثت تدعو للحيرة.. غالبية المنقبين أصيبوا بمرض الكنز وماتوا! والجنود في تل الأكمة قُتلوا رمياً بالرصاص!

- اسمع، جميع من شاركوا سيموتون بطريقة ما، وأنا وأنت أيضاً معرضان لهذا المرض.

- الفتى بربر قبضوا عليه، لا أصدق أنه يستطيع أن يقتل جميع الجنود!

- ولكنه كان يحمل مسدساً، ويملك سبباً للقتل، لا تنسَ ذلك.

- هذا صحيح، ورغم ذلك فقد رأيتك في الجبل تقدّم له ذلك المسدس، لم فعلت ذلك يا قنديل؟

- هل كنت تراقبني أيها المتلصص؟

- لا، لم أقصد..

قاطعته صارخاً:

- مهما يكن، اسمع، لست بحاجة لأبرر لك فعلي، لقد طلب الفتى سلاحاً، وأخذه مني لقاء أجره.

- هل أنت مجنون؟ إنه مجرد ولد صغير، وقد كاد أن يصر عني بمسدسك.

- لا تكلمني هكذا بلا كلفة، نعم، كان ينبغي أن يصرعك ويريحني من ثرثرتك. أتظن أنك ستنجو من مرض الكنز؟

- لم أعد أهتم، فليأتي الآن. ماذا يعيقه؟

- مازال لديك بعض الحظ، وحين تفقد هذا النزر اليسير سوف يأتيك دون أن تشعر.

- كنت أحيذ أن أموت في داري، لا أدري لِمَ تصر على
اصطحابي إلى صنعاء!

- أود أن أعرضك على رؤسائي، وتلقى التكريم اللائق بك،
فأنت رغم ثرثرتك وفضولك تستحق الحفاوة، وبفضلك
حصلنا على كنز أثري.

ووصفه قنديل بأنه قدّم لبلده الرجعي خدمة كبيرة، وحذّره أن
يتفوّه بحرف واحد عن مرض الكنز والعمال والجنود الذين
هلكوا، لأن هذا جزء من أسرار الرحلة التي لا ينبغي أن
تظهر. الصمت في مثل هذه الأمور مستحسن، والتفوّه بمثل
هذه الأسرار جريمة في القوانين المصرية والمحلية، فالبلد
في مخاض ثورة جديدة، والثوار آذانهم مفتوحة، والكذب
وسوء الظن حاضران في كل النفوس، والبرغوث سوف
يتحوّل في أذهان الناس إلى جمل، وهذا الكنز ليس كبيراً
بالقدر الذي يبدو عليه. لا يقارن بالقليل من الذهب والتمائيل
التي عُثِر عليها في ضريح توت عنخ آمون. إنها مجرد نذور
لمعبد قديم نسيها الكهنة هناك أو تجاهلوها. والصحفيون
المحليون لن يهتموا بحدث صغير كهذا، فالآثار تكتشف في
كل مكان من إفريقيا وآسيا، والأجانب لم يعرفوا هذا البلد
الحجري بعد، وما زالت المعارك تدور حول صنعاء،
والملكيون يضربون المدن ويحاولون استرداد عرشهم
الضائع، وقد قتلوا وسحلوا كثيراً من الجنود المصريين
والمحليين، والذهب سيتم دفعه تعويضاً لعائلاتهم، وهناك
آلاف الجرحى في حال يرثى لها، وأما العتاد الحربي

والتماثيل فإنها ستودع بالمتحف الوطني لأنها جزء من تاريخ الممالك المحلية القديمة، ولا يجوز التصرف فيها. فالشائعات تدور على كل لسان، والرجعيون لا يسكتون عن النميمة، وقد تسمع من يقول إن المصريين يبتزون هذا الشعب الفقير، ويهرّبون آثاره وعمالته، و عليك ألا تلقي بالاً لما يقال، فهناك قرابة مائة حصان قدّمت للجيش المصري كهدايا من بعض البدو، ويحلو للسياس أن يزاوجها مع أفراس مصرية، حتى تنجب نسلًا من الخيول العربية الأصيلة وحسب...

قاطع مهدي وسأله عن السيوف والرماح والعتاد الحربي الجاثم على الشاحنة، فغضب قنديل ووصفه بالمتعجل الغبي، إذ كان في طريقه لتوضيح مصير هذه الحمولة، فهذا العتاد البائد القليل سيتحوّل إلى رشاشات وقنابل، ستعود إلى أيدي الثوار ليحاربوا المتمردين. أيظن أن تعود على شكل سيارات وقطارات؟! وسكت حانقاً.

كان قد أفصح قبل قليل إن هذه الأسلحة القديمة ستذهب إلى قلب المتحف الوطني. ماذا جرى لعقل هذا الرجل المتقلب؟ ما أسرع أن يبدّل كلامه! حدّث مهدي نفسه بغضب، وأيقن إن هذا الرجل يسخر منه، ويظنه قروياً لا يفقه شيئاً، وهو كذلك دون شك، لكن كيف يريد أن يؤمن بحديثه وهو يكذب بشكل صارخ، ويبخس قدر هذا الكنز! لقد خرجت عيناه عندما رآه في الجبل، وقال بانبهار: "هذا أعظم اكتشاف أثري في العالم...". ماذا جرى له؟ كان لطيفاً يفيض لسانه بالرقّة! ثم انقلب فجأة إلى الضد بعد حوارهِ الغريب مع الضابط في

الخيمة! شعر مهدي بالخوف، خوف أهوج جعله يرتعش من أعماقه، أين يقوده هذا الرجل الخطير؟ كان الجو داخل السيارة حاراً خانقاً، والدوار يفترس رأسه، وقنديل عاد ليثرثر حول الثورة وأمور كثيرة لا يفهمها، لحسن الحظ أن النافذة على شماله كانت مفتوحة، فاستطاع أن يُخرج رأسه ويسكب الفطيرة المهضومة إلى الأرض، وضحك قنديل بتبجح، وأخذ يُقلّد حركاته متهكماً. كان السائق محايداً رغم وجومه وضخامة جسده، ولا يلقي بالاً للرجلين، وظلّ يراقب الطريق السريع ممسكاً بالعجلة بهدوء تام، وأخيراً كسر صمته العميق ونصح مهدي أن يفتح زجاج النافذة عن يمينه بواسطة المقبض البني اللون، فاستطاع بأعجوبة أن يخفض الزجاج. **ولفحه** تيار بارد قوي من الهواء، وبعد أن جفّ العرق عن جبينه وهدأ حاله انفجر صارخاً:

- ماذا دهاك يا قنديل؟

التفت قنديل نحوه باستغراب وسأله بحدة:

- ماذا جرى لك؟

- أنت تسخر مني وتقلّد حركاتي، كن طيباً كما كنت، لم أقصد أن أتصنّت عليك، ولم أفهم شيئاً مما قيل.

- لا تهتم بالأمر، لقد لقي بيومي حتفه، وهذا جزاء من يفتش أغراض رفيقه ويفضح أسرارَه.

- وهل هناك أسرار بين الرفاق؟

- هذا لا يعنك، الأفضل لك ألا تفقه شيئاً، فالفضول يقتل صاحبه أحياناً.

- أنت تخيفني يا قنديل، لا أريد أن تعرضني على رؤسائك، بوسعك أن تلقي بي هنا على قارعة الطريق إن كنت تحترمني كما تزعم.

- ليس بوسعنا التوقف، لأن الملكيين منتشرون في كل مكان، وكما ترى لقد حرصنا أن نسير متخفين بسيارة قديمة وشاحنة غير عسكرية.
وتابع باهتمام:

- اطمئن، لن أعرضك على أحد، ينبغي أن تشاهد صنعاء، ليوم واحد فقط إن شئت، لن نتقابل مرة أخرى، كلُّ منا سيذهب في اتجاه مختلف، لن تنساني يا مهدي دون شك، فما حدث لن يتكرر. أليس كذلك؟

بدا مهدي متأثراً، ولم يجد ما يقوله، لكنه لم يعد يثق بحديث هذا الرجل المخادع، وأخذ يتشاغل عن خواطره بمشاهدة القرى النائمة على بطون الهضاب. لا شيء يبدو مريباً على الطرقات كما يدعي الرجل. الفلاحون يحرقون الحقول، والعربات المحملة بالجنود تظهر بين فينة وأخرى.

ما لبثوا أن صعدوا عدداً من المنعطفات جعلت رؤوسهم تدور، وأوشك الفلاح أن يتقيأ معدته. لحسن الحظ اعتدل الطريق في ما بعد، وساروا في اتجاه شبه مستقيم، وأعلن

السائق عن اقترابهم من صنعاء، وفجأة قهقه قنديل، وصفق
بيديه تصفيقاً حاراً، قائلاً بجذل:

- نعم، اقتربنا من صنعاء، لقد انتهت المهمة، وأستطيع أن
أعود إلى القاهرة بعد يومين.

- استر يا رب.

- تبدو خائفاً أيها الفلاح، ماذا هناك؟

- أنا رجل قروي كما تعلم، والناس في القرية يتطيرون من
الضحك والفرح المفاجئين.

- أنت مضحك حقاً، ألا تفهم؟ اقتربنا.. بمعنى آخر، نحن
نوشك على الوصول.. صنعاء خلف هذا الجبل. كيف لي ألا
أفرح!

- ألا تخشى من مرض الكنز؟

- أرجوك، انس أمر هذا الكنز اللعين.. سننجو، أعدك بذلك،
اضحك وامرح.. هيا..

لم يتحمس مهدي للفكرة، وظنّ قنديل أنه مازال خائفاً
فأضاف:

- أتريد أن أدع الطيران والجيش يؤمنوا خط سيرنا؟ سيأتي
الإسناد الجوي من صنعاء خلال دقائق قليلة.

- ولكن الطائرتين اللتين حملتا الكنز الكبير أتتا من جهة
الجنوب؟

- فلتأت الطائرات من أي اتجاه يروق لها. لا شأن لك بهذا،
ألا تفهم؟

وأخذ يدق زر التلغراف بعصبية مرسلأ أصوات متقطعة
ومتصلة كالتى يطلقها بوق السيارة، وتلقى بضع أصوات
مماثلة من الجانب الآخر، واستمر يتفرس في الجهاز
للحظات، ثم نجاه جانباً. واستطرد قائلاً بثقة: "ستحضر عربية
جنود من أقرب نقطة للجيش، وطائرتان أيضاً، راقب السماء
هناك" .. وأشار إلى مرتفع شاهق أمامه، وأخذ يضحك مجدداً
بصوت خفيض، ثم فتح المذياع، وارتفع صوت الأغنية
الثورية المصرية "ثورة اليمن السعيد" للفنانة فايدة كمال،
ومرت الدقائق ببطء دون أن يظهر شيء، وأوشك مهدي أن
يصرخ عندما رأى نسرأ محلقاً بعيداً في الأفق.

كانت الشاحنة أمامهم متوثبة منطلقة بسرعة ستين كيلومتر
في الساعة، أكياس الخيش الظاهرة من الحمولة تبدو ممثلة
بالفحم المنزلي، والسيارة الصغيرة تتعقبها على مسافة آمنة لا
تدعو للارتياح. كان قنديل يردد الأغنية بصوته الفج،
ويتمايل طرباً بلا اكترات، بينما الرجل القروي المتشائم
يتحرق خلفه غيظاً وحنقاً، ثم فجأة خفت الشاحنة من
سرعتها وتوقفت جانباً.

كف قنديل عن المرح، وأخرج رأسه من النافذة ليرى ما
يجري، ثم أمر السائق أن يتوقف. كان الطريق أمامهم
مقطعاً بكتل ثقيلة من الأحجار، وتجلى عشرات من الرجال
على ربوة قريبة يصوبون البنادق باتجاههم، وما لبثوا أن

أطلقوا النار عليهم دون تردد. وتناثر الزجاج، وهرب الجنديان للاحتباء خلف الشاحنة، وسقط أحدهم أرضاً، وصاح قنديل بصخب وهو ينحني: "اخفضوا رؤوسكم". وخرج حبواً من المقدمة، دافعاً السائق المضرج بالدم إلى الخارج، واستطاع أن يفتح باب السيارة الخلفي فتدحرج مهدي سائراً رأسه بذراعيه وكأنه يتلقى وابلاً من الحجارة. وراح يتمتم بدعاء غير مفهوم، رافعاً سبابته متضرعاً. وصرخ بهلع عندما انفجرت قنبلة بالقرب منهم، ومزقت شظاياها معدن السيارة الصغيرة، وثار الغبار والدخان، وتسنى لقنديل أن يخطف حقيبته الجلدية من المقعد الأمامي، ويخرج جهاز التلغراف، ويضغط على زر الاستغاثة، وسقط على وجهه وكأنه يريد الاحتباء، ولكزه مهدي قائلاً بنزق: "قنديل، انظر عاقبة استهتارك وضحكك.. ماذا تفعل الآن؟ اخرج من السيارة".

وعندما لم يرد عليه، جلس على ركبتيه وجذبه صوبه، فارتد للخلف متهاكاً والدم يسيل من خادعه بغزارة. تركه مهدي يهوي على الأرض، وانبطح قربه مذعوراً. كان قنديل رغم مساوئه مصدر الأمان الدائم للفريق، وقد آمن بقدراته العجيبة على درء الأخطار وتجاوزها، فكيف يموت بهذه البساطة! أحس بجذوة من الهياج تضطرم في أعماقه، وأوشك أن يرفع يديه في الهواء ويخرج أمام المهاجمين، ولكن انفجاراً مريعاً هز المكان، وشب الحريق في السيارة المهشمة، ولم يعد يرى شيئاً حوله بفعل الدخان الكثيف، فتدحرج حتى استقر على

منخفض صغير مكشوف. ومدّ أنامله إلى رأسه، ولمس
جرحاً صغيراً مفتوحاً يسيل منه الدم، وشعر بالألم، كان
الجندي المرافق مازال يقاوم، وصوت رصاصاته القريبة
يتردد عن كئيب، ثم همد كل شيء فجأة، ورأى المسلحين
يдахمون الشاحنة والسيارة وهم يصيحون بصوت عالٍ:
"عاش مولانا البدر، وآل البيت الأطهار".

واقترب منه مسلحان، وصوّب أحدهم سلاحه نحوه، صارخاً
بحمية: "لا تتحرك يا مرتزق".

لم يكن يتحرك، فقد شلّ الخوف والألم جسده، واستطاع أن
يقول بإعياء:

- لست "مرتزق"، اسمي مهدي نصاري.

صاح المسلح الآخر قائلاً:

- لا تقتله، اسمه مهدي، تأكد من اسم عائلته، فقد يكون من آل
البيت.

سأله المسلح بنبرات سريعة حادة:

- سيد أم قبيلي؟ هاشمي حسيني أم شريف حسني؟ ملكي أم
جمهوري؟

- أجير..

- يعني مرتزق جمهوري وكلب ماجور للمصريين، لقد بلّغنا
بقدمكم من أنصارنا في يريم.

قالها بغضب، ثم شحن سلاحه متأهباً لقتله، كانت إشارات الشاحنة مثقوبة، ومعظم المسلحين معلّقين عليها كالقروود منهمكين بتفريغ الحمولة. وحضر حظه الحسن مع أزيز الطائرتين الحربيتين المصريتين، وفجأة ارتفعت كرة ضخمة من اللهب رافقها صوت رهيب، وانتشرت شظايا العتاد الحربي القديم في جميع الاتجاهات، وأصيب المسلحان بجروح خفيفة، وفر مهدي إلى فتحة إسمنتية لتصريف الماء رآها أسفل الطريق، وسقط صاروخ ثانٍ بموضعه السابق، ووقع ذراع مبتور قرب مدخل المجرى، ونظر إلى ذراعيه. وبعد أن اختفى الأزيز تسلل من مخبئه، وتخبط بين أجساد بشرية ممزقة ومحتركة، ولم ير أحد غيره في المكان. كان الدخان يتصاعد عن بقايا قطع متفحمة من الشاحنة، فصرف عينيه عن المشاهد المرعبة. وسار مترنحاً على الإسفلت المحترق المشقق، حتى أوقفه بعض القرويين من سكان المنطقة، وأعاقوه عن السير، وبعد قليل حضرت عربتان تابعتان للجيش المصري، وطوّق الجنود المكان وفحصوه، ثم قذفوا بمهدي إلى مؤخرة عربة، وعادوا أدراجهم.

-10-

في غرفة مظلمة تم التحقيق معه كأسير ملكي . لم يكن يرى المحقق الذي أمامه. كان فقط يتلقى صفعاته المؤلمة بعد كل سؤال أو جواب، ومع ذلك ردد عدة مرات حكاية الكنز والعتاد الحربي القديم وقنديل عبدالنور، لكن المُحقق لم يقتنع

بإجاباته، وظل يستجوبه بضع ساعات دون جدوى، وقضى مهدي ليلته الأولى في تلك الغرفة بلا غطاء بخدين ملتهبين وارمين، وظلَّ يهرش جسده ويتحوّل من موضع إلى آخر هروباً من الحشرات، دون أن يذوق طعم النوم.

غداً اليوم التالي اقتيد معسوب العينين، وقُذِف في قاعة متسعة، نوافذها الصغيرة مرتفعة تكاد تلامس السقف، ويتسرّب منها قليل من الضوء. استقام خلف الباب بيأس، كانت الأرضية متربة كثيفة وباردة، تنتثر بأرجائها قطع ممزقة من لحف وحصائر خبراء، فتناول بضع قطع وافترشها تفادياً للبرودة، وجلس غارقاً في كدر عميق. وفجأة سمع حركة تصدر في القاعة فالتفت إلى الزاوية البعيدة، ولمح هناك عشرات الأشخاص جاثمين على الأرض بصمت تام.

كان المعتقلون يرنون إليه بحذر، فازعجته نظراتهم الثاقبة، واستغرب من حالهم، كانوا مقرّفين لصق بعضهم لا يتحركون من مواضعهم، وكأنهم يتوقعون حدوث هجوم أو انفجار، فسأل نفسه بعجب: "ما لهؤلاء الأشخاص يحدّقون بي هكذا! هل أفرعهم حضوري؟". اقترب منهم بحذر، فأخذوا يتزاحمون بمواضعهم، وكل واحد منهم يدفع جاره بمنكبه، وظلّوا يرمقونه باضطراب، ثم خاطبه أقرب شخص إلى موضعه قائلاً بضيق:

- هذا موضعي، يمكنك أن تأخذ مكانك قربي إن شئت.

قال مهدي ببرود:

- لا تهتم يا أخي، القاعة واسعة، وقد اخترت موضعي قرب الباب. كنت أظن أنني الوحيد هنا، وهذا بعث في نفسي الملل والحزن.

ضحك الرجال، وقال أحدهم بتهكم:

- دعوه يجلس قرب الباب، يوم واحد من الحياة مغنم كبير، جزاه الله عنا خير الجزاء.

وقال شخص آخر بسخط:

- رفقاً به.. لا تخبروه عما يجري، انتظار الموت أمر رهيب.

صاح مهدي بغضب:

- أخبروني، ماذا يجري؟ هل هناك أفعى قريبة من موضعي؟ سنسد فجوات الباب ونستريح.

- الأفعى لا تلدغ إلا من يدوسها، أما "موسى البادي" فإنه يزورنا كل صباح ويأخذ خمسة أشخاص ويعدمهم بدم بارد.

- ماذا فعلتم لتستحقوا هذا العقاب؟

- لا شيء.. سل نفسك أيضاً، هل اقترفت ذنباً؟ ومع ذلك ستكون أول شخص يعدم في الغد..

- ماذا تقولون؟ أنا لم أفعل شيئاً! يظنون أنني ملكي وحسب.

- هذا هو ذنبنا، لذا اذهب إلى موضعك، واطلب المغفرة من الله، وتأهب قبل أن تلقاه.

- الله لا شأن له بما يدور هنا.

وسار إلى موضعه مصدوماً، واستبدت به الشكوك، وفكر في قيمة حياته في القرية كأجير، فالأجراء يتعرضون للتعسف من الملاك، لكن لم تبلغ بأحدهم الجراءة بأن يريق دم قروي، لم يشهد في تاريخه حادث قتل، أما في الأيام الثلاثة الأخيرة فقد رأى كثيراً من الجثث والدماء، يبدو أن المُن أكثر تعاسة مما كان يظن، وقد جاء إلى هنا مجبراً خائفاً كبقرة تُقاد إلى الجزار، الحياة رغم شظفها ممتعة، ويوم واحد منها يعادل كل غالٍ ونفيس، جثم بموضعه حزيناً وخلع نعله الريفى الضخم، وأخرج ما بقي لديه من النقود، أوراق كثيرة...

تأملها بافتتان على ضوء يتسرّب من شقوق الباب الضخم، مثل عاشق يتطلع إلى حبيبته وهي نائمة. كانت فاتنة وملمسها مغرٍ، وفراقها صعبٌ ومربك، وما إن استقرت بين يديه وانتشى بحضورها حتى حانت ساعة الفراق. هذا ليس عدلاً، ألا يجوز له أن يذوق حلاوتها! كم عانى وتصيب عرقاً في الجبل حتى حصل عليها؟ وقد أخفاها وسط هذا الحذاء القذر لينقذها من اللصوص، لكن هاهو معرّض للموت، فهل بوسع هذه الأوراق الجميلة أن تفديه؟ لم يعرف عددها بعد، وليس بوسعه أن يحصيها الآن، فالعيون تراقبه وتتصنّت على حركاته وسكناته، يظنون أنه رجلٌ تعيس أو معتوه يجلس قريباً من متناول الموت! لا شك في ذلك، لكنه

ليس وحيداً، لا يدركون أن أنامله تجوس في جسدها بحنان
وحزن، وإنها تمنحه الدفء الذي يفتقرون إليه. سيفارقها في
الصباح، يرددون هذا الكلام الفطيع، ناعقين بالشؤم، لا.. لن
يستسلم أو يخور، يتحتم أن يناور ويساوم القدر. كانت هذه
الأوراق ستوصله إلى حضن جوهرة، لكنه الآن يرجو أن
تمهله بعض الوقت، أن تؤخره أياماً أو يوماً. سيتنازل عنها
كلها لأجل هذه الغاية، وإن كان محظوظاً كما ادّعى قنديل
سوف يعود سالماً إلى قريته وحسب، ويقضي ما بقي من
حياته وهو ينظر إلى جوهرة من بعيد. هذا يكفي، نعم، سيقبل
أن يعود إلى وضعه السابق فقيراً وبلا أمل، وهذا هو
الصواب.

نهض من موضعه فجأة، واقترب من الرجال، وشهر تلك
الأوراق في الهواء قائلاً بصوت حاد: "من يقبل أن يتنازل
لي عن موضعه ويأخذ هذا المال كله؟ لدي امرأة أحبها في
القرية وأريد أن أعيش لأراها".

انفجروا ضحكاً رغم سوء الحال. ضحكوا على السبب
الغريب الذي يساومهم من أجله، أما تصرفه فكان طبيعياً،
وكل شخص لو كان بحوزته كنوز الأرض كان سيفعل
الشيء نفسه. انفجر صارخاً في وجوههم وهو يسمع تعليقاتهم
الخبثية على طيشه: "لا تهزؤوا بي أيها الأوباش، هذا ليس
عدلاً، ينبغي أن أفوز بموضع بينكم، فأنا لم أرتكب أي ذنب.
ولا أعرف شيئاً مما يدور هنا. قد تكونون هاشميين حسنيين

أو حسنيين أو لصوصاً، لا أدري.. لكني فلاح يحتر
الأرض".

كفوا عن الضحك، وازدادوا انكماشاً والتصاقاً، ولم يعد يرى
بينهم أي فراغ، صاروا كجسد واحد ذي رؤوس كثيرة، ظلّ
يحدّق بهم ويحاصرهم بنظراته الطامعة. كان يعرف أن
المساومة في شيء كهذا لا تجدي، إنه تحدّ سينتهي بالعراك،
وهو رجل مسالم لم يسبق أن اعتدى على ملكية غيره أو
تعارك مع أي رجل. استمر أمامهم واقفاً مكابراً ينشر أوراقه
المالية بتبجح، وسرعان ما اكتشف أن معظمهم كانوا أثرياء
غارقين إلى آذانهم وسط المال، ويملكون زوجات عديدات،
الصغرى منهن في الخامسة عشر من العمر. وهمس له
شخص يجلس بجانبه إن المعتقلين من عائلات وطيدة القرابة
بالأمراء الملكيين: أصهار، أخوال، أشقاء من طرف الأم، بل
إن فيهم أميراً شاباً يدعى محمد بن يحيى، وهو يحتل - بحكم
مقامه الرفيع - ركن الزاوية ليناى عن أيدي الحراس، وجاره
الذي كشف له هذا الخبر كان جندياً يحرس قصر الأمير
الشاب.

في الأحوال العادية كان مهدي سيسقط على ركبتيه ليبوس
نعل هذا الأمير، لكنه الآن داخل قاعة رثة محكوم عليه
بالموت، ويتمنى لو تتاح له الفرصة ليسرق مكانه. لن يأبه
أن يكون أميراً أو حتى إلهاً. أخذ يقول لنفسه مبرراً نواياه
الشريرة: "هذا الأمير أوقع نفسه في المهالك، كان ينبغي أن
يفرّ في الوقت المناسب، لقد استمتع بالحياة، وجاء إليها وفي

فمه ملعقة ذهبية، لمَ لا أحتل مكان هذا اللص المرفه السمين؟
لي الحق أن أعيش، فأنا فلاح كادح أزرع الأرض بجنبي
المتعب، عشت طفولتي جائعاً وشبابي منهكاً. لم أذق يوماً
سعيداً منذ أن عرفت نفسي". وطلب من جاره أن يريه هذا
الأمير الشاب، إذ لم يرَ أميراً طوال عمره. كان لسذاجته
يتخيّلهم أذكىء بتقاسيم باهرة الجمال، يشع النور من
وجوههم، والحكمة تتدفق من أفواههم كالمياه الجارية العذبة.
همس له جاره أن ينظر إلى ذلك الشاب الجالس في الزاوية،
وأتاحت له الأضواء الباهتة للنوافذ العالية أن يفحص شكل
الأمير المقرفص بذلّ وخوف كالمساكين الذين ينتظرون
الإحسان، وأدرك أنهم لا يختلفون على الناس بشيء، ولعله
بريء لا ذنب له، ولهذا لم يفرّ مثل أقاربه، وأعلن مهدي
دون وجل أن أجداد الأمير هم ملوك مملكة الكتن والحشرات
مصاصة الدماء، فلا يكاد يخلو منزل في المناطق الريفية
منها، تعيش مع القرويين في بيوتهم الشعبية الم عتمّة، تحتل
الشقوق في الجدران المتهاكلة، وحين يخلدون للنوم تهاجمهم
بشراسة كالجيوش النظامية، فتنهشهم ماصة دماءهم
الشحيحة، ولن ينس حشرة منها دخلت إحدى أذنيه، وجعلته
يبكي ويصرخ حتى اجتمع الجيران للمساعدة، لكنها توغلت
عميقاً، وصارت تقرصه بشدة، ثم شاء الحظ أن تأتي عجوز
حصيفة نصحت أمه أن تسكب داخل أذنه جرعة ساخنة من
السمن، وبهذه الطريقة فقط خرجت الحشرة سابحة وسط
السائل اللزج الأصفر. كان في تلك الفترة طفلاً ينام جائعاً،

ويصحو جائعاً، ويشاع أن أقارب هذا الأمير الذليل كانوا يقبضون أموال الزكاة ويودعوها في بيت المال، وتظل الآلاف من أكياس الحبوب مكومة في مخازن رطبة حتى تتعفن. ويقال أنها كانت تقدم لعساكرهم وخيولهم الأصيلة. بينما كانت المجاعات والأمراض تفتك بالأطفال في الأرياف، لاسيما في مواسم القحط، وقد جاع وتعرض لكثير من الآفات القاتلة، لكنه بطريقة ما نجا وقلّة قليلة من أتراه، ولم يمرض بعد ذلك أبداً.

بمثل هذا الكلام أخذ القروي الفقير يواجه الأمير بجرأة رافعاً صوته كشخص رعديد يصرخ في وجه أسد ميت. لم يعد يخاف منه، لأنه سيكون ميتاً في الصباح، ويتحتم أن يلقي أوجاعه القديمة والحاضرة وغضبه على هذا الشاب المترف العائر الحظ، ولن يدعه وشأنه حتى يفرغ له موضعاً بجانبه. هكذا اعتزم مهدي أن يفعل، لكن باب القاعة انفتح بعنف، وأطل منه الحارس صارخاً عليهم: "توقفوا عن إصدار الضوضاء، ها هو الغداء".

وضع طبّاخ السجن كيساً مليئاً بالكدم، وقدرًا من "السلّنة" تطفو على سطحها حلبة خضراء لزجة، ثم انسحب وأقفل الباب بسرعة. ولم يجرؤ أحد على فراق موضعه خوفاً أن يحتله الرجل القروي المتعنت، والوحيد الذي استطاع أن يتحرك هو مهدي، فأخذ الطعام إلى موضعه قرب الباب، وجعل يأكل كالوحش، وهم يراقبونه بحقد، ثم صاحوا بغضب:

- هيه، أنت.. لا تأكل طعامنا.

- تعالوا، خذوا نصيبكم.

- خُذ نصيبك حبة كدم والقليل من السلته. الأمير يوزع الطعام كل يوم.

- لا شأن لي كيف يوزع الأمير، سأكل حتى الشبع، أنا جائع جداً، لم أذق شيئاً من البارحة.

وصدر صوت مرتعش من الزاوية:

- هذا ليس عدلاً، الطعام قليل، يجب أن يوزع بالتساوي وإلا سوف..

- وإلا ماذا؟ أن تزج بي في السجن؟ يا لك من متسلط! هذا يومي الأخير، ولا ينبغي أن أموت جائعاً، وفي الغد بوسعك أن توزع كما يحلو لك.

وأردف متهكماً وكأنه يحدث شخصاً ما:

- عجيب أمر هؤلاء الأمراء، يتحدثون عن العدالة في السجن! لم يسمعهم أحد يتحدثون عنها وهم في منازلهم الكبيرة!

ولم يعر صراخهم أي اهتمام، حتى أفنى سبع حبات كدم، ثم تجشأ مطلقاً صوتاً فجأً، وتمدد على القطع الممزقة ونام بهدوء، فأمطروه بالشتائم، وتسلسل سجينان وسحبا الكيس والقدر إلى زاويتهم، وأكلوا ما وجدوه دون أن يتحركوا من أماكنهم، وواسوا بعضهم بأن هذا الرجل الثقيل الدم سيموت

غداً صباحاً، ولا ضير من تحمّل أفعاله القبيحة، فهو في النهاية قروي، وهذا يجعله يتصرف بفجاجة دون أن يراعي رفاقه.

وعند وجبة العشاء أكل مهدي حتى التخمة، وقذف للحارس ورقة نقدية كبيرة، تناولها الأخير بفرح، وشكره مطلقاً عليه لقب "الأمير الشهم"، ثم جلب له شمعه مضيئة ولحافاً ممزقاً، واغتاظ الأمير الشاب ورفاقه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتبرّموا أمام الحارس، وقالوا دعوا هذا القروي يفرح بهذا اللقب الذي لا يملكه ! قبل أن يُقتل، فالحارس يسرق منه المال بهاتين الكلمتين، إنه يعبت به، وينعته كما ينعت أحدهم القحبة بالفاضلة، فالدراهم تشتري النفوس الضعيفة وأنتم تدركون هذا جيداً، لكن تمهلوا، أليس غريباً أن يملك قروي هذا القدر من المال؟ أيكون جاسوساً يسرق منا الأخبار؟ أم لصاً سطا على بيت المال؟ لكنها أوراق نقدية من عهد ما يسمى الجمهورية، ومن المحتمل أن يكون عميلاً مأجوراً للمصريين، ولعله يُسهل لهم تهريب العملات القديمة والآثار، وها هو الحارس يدعو أميراً لأنه يملك المال! يا للمهزلة، أصبحنا لا نملك شيئاً، أموالنا سرقها الإنقلابيون، ومنازلنا باتت استراحات للضباط المصريين والثوار، ومزارعنا وُزعت على وجهاء القبائل، وخيولنا سُحنت بالمراكب إلى الإسكندرية. لقد صادروا كل شيء، ولا يهم كل ما صودر، ليتهم يدعونا وشأننا، لنمكث في منازل صغيرة، ونعيش كالفقراء، لكن أن يقتلونا، فهذا شيء فظيع! احذروا أن

تتفوّها بحرف واحد أمام هذا القروي، لأنه يراقبنا ويتصنت علينا، متقمصاً شخص قروي سجين.. وإن يكن، لماذا نكثر إن كنا سنعدم بعد أيام؟ صه، اخفضوا أصواتكم يا رجال، لأن هذا الرجل البغيض يتحرك في موضعه، ولم ينم بعد، إنه يحصي أنفاسنا. كان مهدي يسمعهم بحنق، ويفكر في أن ينقض عليهم ثانية، لأنهم لا يريدون أن يصدّقوا أنه مثلهم سجين.

وفي جزء من المساء هدرت أصوات المدافع من الجبال القريبة، فارتجت القاعة ارتجاجاً شديداً، وأصبح النوم ضرباً من المحال، فالملكيون كانوا يتقدّمون عبر جبال آنس وسنحان، ويقصفون المدينة، فيما المصريون والثوار الجمهوريون يقصفون مواقعهم و صفوفهم الأمامية من المعسكرات القريبة، ووقعت بعض القذائف جوار السجن، وأرعبهم انفجارها القوي، والتصقوا بأجساد بعضهم فزعاً، وفي الصباح أعلن الحارس أن الوضع لا يسمح بأخذ سجناء للإعدام، فأيقنوا أن ذلك القروي سيستمر في أكل حصصهم، وهذا لا يهم مادامت مدافع أنصارهم تضرب دفاعات الثوار، لكن الطائرات المصرية كانت تهدر في السماء، وتصعق قرى وجبال بلاد الروس بقنابل تحرق الأخضر واليابس، ولسوء حظهم أن الملكيين عشية اليوم الثالث اندحروا وهُزموا هزيمة نكراء في نقيل يسليح^{١٤}، وفي ساعة مبكرة

^{١٤} اسم مكان يقع جنوب صنعاء.

من الصباح أطل رأس الحارس المشئوم من باب القاعة،
وقال متبسماً بتشفّ:
- سنحرر خمسة منكم هذا اليوم.

ولم يفهم مهدي معنى العبارة، فشهّر نفسه متمنياً أن يحرروه،
ودخل خمسة جنود ضاربين أقنعة على وجوههم، ودفع
الحارس مهدي بعيداً عنهم، وهو يضربه ويؤنبه، وأدرك
السبب عندما رأى المقنعين يختارون خمسة من السجناء،
ويكبّلون أقدامهم بالقيود، ويقتادوهم خارج القاعة.. وهنا
أمسك على رأسه دائخاً. لقد نجا هذا اليوم، وفي الغد من
سينقذه؟!!

ومع ذلك ظلّ الحارس يفتعل حيلة ما لإبعاده عن طريق
الجنود، حتى بقي أربعة سجناء هو أحدهم، وأعلن الحارس
أنه لم يعد يملك أي حيلة، وهنا نقده مهدي كل ما بحوزته،
وطلب منه أن يبعث جثته إلى قرية سحمر في قضاء يريم،
ثم انتظر ورفاقه الثلاثة قرب الباب، إذ لم يعد الهروب إلى
الزاوية مجدياً. وشرع الأمير الشاب يبكي بحرقة، فصاح
عليه مهدي أن يتوقف، لأن البكاء يزيد توترهم ويضعف
قواهم، وأتى الحارس يتبعه أربعة من الجنود، وقيّدوا
أقدامهم، وتطوع الحارس بتكبير قدمي مهدي، وأرخی حلقتي
القيد حتى لا يتألم، بينما انشغل الجندي الرابع بتفتيش
أغراض السجناء، ثم اقتيدوا خارج القاعة، وصار مهدي
يسدد إلى الحارس نظرات استرحام منكسرة تحمل مغزى
واضحاً: افعل شيئاً، أنقذني أرجوك.

واتجهوا إلى باحة بستان البدر الخلفية التي غدت معسكراً
للثوار، وتوقفوا قرب مبنى القيادة كما وصفه الحارس.

وسرعان ما خرج إليهم ضابط محلي برتبة رائد قصير قاسي
الملامح حاد النظرات شارباه مأكولان من الطرفين ماعدا
مساحة صغيرة أسفل فتحتي أنفه، ويمسك بقضيب عاجي في
يده كما كان يفعل القادة النازيون في الحرب العالمية الثانية،
ولهذا عُرف بين أصدقائه الثوار باسم "هتلر الثورة"، واسمه
الحقيقي هو موسى البادي. أخذ هذا الضابط الصارم يمرر
عينيه في وجوههم، ويسألهم بقسوة عن أسمائهم ومناطقهم،
وصار ينكش عمائم الأمير ورفيقه بطرف كرباجه، حتى
أسقطها على الأرض، ومضى يدوسها بتحدٍّ صارخ، تعبيراً
عن ازدرائه للسلالة الملكية الهاشمية، كما أطاح بشال مهدي
الرث وركله باحتقار دون أن ينظر إليه، كان الحارس قد
نصحه أن يستعطف القائد للإفراج عنه، وأعطاه بعض
الأفكار والمعلومات، وفعلاً خاطبه مهدي قائلاً بتضرع:

- لست هاشمياً يا فندم، أنا قروي كنت أرافق رجلاً مصرياً
يدعى قنديل عبدالنور، فهجم علينا الملكيون خارج صنعاء
وقتلوا...

قاطع الضابط قائلاً بحزم:

- يكفي كذباً، لم أسمع بهذا الاسم.

- إنه رئيس فريق التنقيب عن الآثار، وكنا نرافق شاحنة مليئة
بالعتاد الحربي القديم عثرنا عليها في كنز و...

- ماذا قلت؟ أتَهْرَبون الآثار أيها الخائن؟ لا أحد من الثوار يدرك هذا الأمر، إن جرمك صار مثبتاً وتستحق الموت.
- أرجوك، اعرضني على القاضي لأشرح له ما حدث، لقد كنت مجبراً على مرافقتهم.
- الثورة هي القاضي أيها القروي المتحذلق، وقد دقَّ الإمام أحمد أعناق عشرات الضباط والمئات من المعارضين دون أن يعرضهم على القاضي.
- أرجوك.. لا تفعل هذا بي، أنا أجير مسكين.
- اسكت أيها القروي، العبث بالآثار جريمة، عليك الآن أن تستغل لحظاتك الأخيرة بالاستغفار وطلب العفو من الله.
- بل يتحتم عليكم أن تطلبوا مني الصّبح، لكنني لن أغفر لكم هذا أبداً.
- لدي عمل كثير، وليس لدي وقت لسماع التضرّعات..
- اقتلوهم، وليكن هذا الفلاح الثرثار آخرهم ليتفرّج على رفاقه.
- اقتيد السجناء بعيداً في الباحة، وأوقفوا قرب جدار مشوّه ببقع حمراء من دماء زملائهم المعدومين، وهناك قضيبان سميكان مثبتان على الجدار بطول أربعين سم، ويتدلى من كل قضيب حبل متين، وليس من الصعب التكهن بالعرض من ذلك. وقاد الحارس الأمير الشاب إلى الجدار وهو يتوسل، وشدّ ذراعيه إلى القضيبين، واقترب منه جندي مُقنّع وشحن بندقيته، وصوبها إلى رأسه، وأغمض السجناء عيونهم وأشاحوا

وجوههم بعيداً، ثم سمعوا صوت إطلاق النار، وحين رفعوا جفونهم الثقيلة ببطء، رأوا الجندي يسحب الجثة بعيداً. واقتيد الثاني والثالث وأعدما، ثم جاء الدور على مهدي الذي عجز عن الاحتفاظ برباطة جأشه، وصار يرجف كقصبه تهزّها الريح، وقاده الحارس إلى الجدار، ولفّ الحبل على ذراعيه مرتين فقط، ورفعها نحو العمودين ولم يصنع لهما عقدة، ثم انحنى على القيدتين وفكّ القفل وأرخى الحلقة، متظاهراً بأنه يتأكد منهما، ثم حرّك حاجبيه بإشارة ذات مغزى واضح. وفهم مهدي أن الحارس يريد مساعدته، لكن الجندي أمامه تماماً يحشو خزنة سلاحه بالرصاص القاتلة، وها هو يقترب منه بسرعة ويصوب البندقية إلى رأسه، لا جدوى.. وفجأة صاح الحارس ممسكاً رأسه:

- آخ، رأسي، يا الله..

وسقط أرضاً، وترك الجندي سلاحه جانباً وانحنى عليه وظهره إلى الجدار، وأخذ يصفعه طالباً منه أن يفيق للتو، فهو رفيقه في عملية الإعدام، ويقتضي الحال أن يكون حاضراً وشاهداً، وبعد لحظات فتح عينيه متقمصاً شخص المتعب، ونهض ببطء متمتماً بأنه يشعر بالغثيان والدوار، فسخر منه الجندي المُقنّع، ثم تناول سلاحه والتفت إلى الجدار متحفزاً، ووقف للحظات مفزوعاً متجمّداً. كان المكان خالياً من السجنين، والقيدان مرميان على الأرض، فشهر سلاحه وراح يعدو على امتداد السور وهو يصرخ بهوس:

"هرب السجنين.. أمسكوه".

كان مهدي يقف أعلى جدار الفناء المتهالك متردداً خائفاً، إذ كان أمامه ارتفاعاً بمقدار ثلاثة أمتار، واستمر ينظر إلى الأسفل، ويجيل عينيه باضطراب، حتى سمع صوت الجندي المقنع يأتي من خلفه صارخاً: "قف مكانك أيها الخائن، لا تتحرك.. سأطلق النار".

ألقى مهدي نفسه إلى زقاق صغير مفتوح من طرف واحد فقط، وتدحرج على أرضيته القاسية، دون أن يحس بالأذى الذي أصابه، ثم قام يركض على طول الممر بمحاذاة الجدار، ووصل إلى المنعطف وأخذ يتلصص، وهناك رأى جنوداً يركضون قادمين نحوه، فارتد وتسلق جداراً مرتفعاً آخر، وسقط في فناء منزل كبير مكلل بأشجار فواكه عديدة، وتسلل ليخرج من بابه، لكنه رأى قذال حارس مسلح يجلس بكسل على دكة صغيرة بالخارج، فأب إلى البستان، وسمع أصوات الجنود تتعالى في الزقاق، وتلقت محتاراً في كل الاتجاهات، لمح نافذة صغيرة مفتوحة في الطابق الثاني تصافحها فروع شجرة تين مثمرة، فتسلق الشجرة كالقرد، وسار على فرع صغير كان ينثني تحت قدميه للأسفل، ويوشك أن ينكسر، لكن النافذة صارت قريبة، تفصله عنها مسافة قفزة قصيرة، وسرعان ما قذف نفسه إليها، واستطاع أن يتشبث بحافتها. ظلّ جسده متدلياً خارجها برهة من الوقت، وفي تلك الأثناء سمع الأصوات عند باب البستان، فدفع جسده للأعلى حتى اختفى وسط غرفة مربعة مفروشة، وأوصد النافذة الخشبية العتيقة بيدين راجفتين، وألصق عينه على شق صغير يتخلل

الخشب، ورأى بضعة جنود يسرون باحثين عنه متصفحين
أعالي الأشجار بعيونهم الزائغة، ثم غادروا سريعاً.

-11-

أحس مهدي بلسعات ألمٍ طفيف في ركبته اليمنى، لكنه لم
يكثرث. كان شكله غريباً وهو مستلقٍ بحدائه الرث وسط
فراش وثير، لكن ذلك غدا أصغر ذنوبه، وفي مثل هذا
الظرف لم يعد هناك مجال للتقيّد بالأداب العامة، فقبع بسكون
تلّفه حزمة ضوء صفراء تمرق عبر قمريات مطعّمة
بالزجاج الشجري الملّون، وسرى في جسده خمول رهيب،
فألقي ظهره على الفراش الناعم وهو يرتجف من الانفعال،
وأمسى يقاوم أنفاسه اللاهثة، ويزفر الهواء المحبوس،
وأخيراً تنهّد بارتياح وكأنه في منزله، ورغم ذلك شعر بأنه
متعب، واقترب جفناه من بعضهما ببطء حتى التقت رموشه
الكثة القصيرة، فاستسلم لنعاس خفيف، ثم شهق فجأة متأوهاً،
ووثب متحفزاً حين انتبه إلى حاله المريب الملتبس. ماذا لو
باغته أحد سكان المنزل؟ لن يستطيع أن يفرّ حتماً، فقد غدا
بدنه خائراً وحماسه منطفئاً، ويتحتم أن يستجير برب المنزل
ويعتذر له على دخوله دون إذن، فالناس يجيرون بعضهم في
مثل هذه المواقف الرهيبة، ولعله يجد طريقة ما لإبعاده، ليس
هناك حل آخر. حياته أمست بيد هذا الرجل، وعليه أن يتقبّل
عواقب مجازفته مهما كانت.

وقف على درجات السلالم مرتباً وأصاخ السمع للحظات، لا يوجد أي حسّ للسكان. كان المنزل يبدو خاوياً، لكنه ليس مهجوراً دون شك، فالغرفة مرتبة نظيفة قبل أن يلوّثها بحذائه، هناك عبق بخور طيب يغشى أنفه، ويشعر بأنفاس أهل البيت منتشرة في المكان. إنه رجل قروي يعرف المساكن الحية والميتة، ويستطيع رغم أمّيته أن يميّز الأشياء الملتبسة، لذا عاد ونظّف آثار قدميه في الغرفة، ثم تسلل بحذر إلى الطابق الأرضي، وتفقد الباب الخشبي الضخم بعينه الخبيرتين، وأدرك أنه من النوع الذي يصدر صريراً مزعجاً عند فتحه، فأخفى حذاءه الرث بين نعال كثيرة كانت في صندوق، ثم ارتد يائساً إلى الأعلى، وراح يمشي على رؤوس أصابع قدميه، وقطع درجات كثيرة، واكتشف أن المنزل واسع ذو ستة طوابق. وتناهى إلى سمعه صوت ما، بل هو أنين خافت وتأوهات أخذت تتعالى مع مرور الوقت، فاقترب من صالة واسعة تتوسط بضع غرف، واستطاع أن يميّز صوت النكاح المحلي. سمع العبارات البذيئة التي ينطقها المتناكحان، لكنها في المدينة ذات طابع مثير مختلف، فالكلمات التي سمعها تعكس بعض التفاوت الحضاري:

"تمهل، احضني برفق، يا روعي، يا قلبي، أتلدذ بشدة.. أسرع..".

اضطرب بشدة وشعر بالخرج. في الأوقات الغابرة كان بوسع هذه الأصوات المحمومة أن تثيره، أما الآن فلا يستطيع أن يقطع على الرجل والمرأة اللذة ليستجير بهما،

وفي حال قاطعهما لا يستبعد أن يثور صاحب المنزل فيطلق عليه النار أو يقذف به من أعلى السطوح، فالإنسان مثل الحيوانات الأخرى يمقت أن يُباغت على السرير أثناء المتعة. قال لنفسه بضجر: "يا له من حظ سيئ! ماذا أفعل الآن؟"، ووقف متجمداً يندب حظه، فارتفعت حدة شهقات الرجل والمرأة وبدأت ممتزجة وصاخبة، ثم ران الهدوء على المكان. وأدرك أن الرجل سينهض إلى الحمام بعد لحظات، تاركاً المرأة في غيبوبتها قليلاً، فتسلل واختبأ خلف ستار قماشى رآه منسدلاً من سقف الصالة إلى الأرض، فتسمّر بموضعه حابساً أنفاسه المتعبة.

كان هناك فراغ صغير خلفه، وثمة ملابس امرأة متناثرة وستارة نسائية حمراء عتيقة ذات نقوش سوداء، وبدأت الثياب مبعثرة وكأنها خُلعت على عجل، وتعجّب أن تخلع ربة المنزل ملابسها هنا، وانتفض قلبه فزعاً، فإن أتت المرأة لملابسها ووجدته ستصرخ بخوف وتداري جسدها العاري، وسيقع في مأزق لا نظير له. لن يرأف به الزوج، فالرجال يغارون على نسائهم، وقد يظنه لصاً أو متلصصاً أو حتى عاشقاً، لن يصدّق أي حرف من كلامه، وظلّ للحظات يفكر بالتسلل إلى غرفة أخرى، ثم قرر أن يجازف ويخرج، فمدّ يده ليزيح الستار، وحينئذٍ سمع وقع أقدام خشنة في الصالة، فارتد للخلف منكمشاً، ثم أتى صوت أنثوي رقيق من الغرفة: "هل سترتدي الملابس وتغادر الآن؟"، وأجابها صوت رجل فتى: "سأغتسل سريعاً"، وصدر صوت صرير باب يتحرك.

اختلس النظر عبر جانب منفرج من الستار، فلمح شابة جميلة عارية تقترب من مدخل حمام صغير، وطيف شخص - لم يستطع تمييز ملامحه - يدلق الماء على نفسه بعجل.

كان جبين مهدي يتفصد عرقاً، وأخذ ينظر إلى الملابس باغتمام. كانت المرأة منتصبه بغنج في وضع مائل، وتحرك قدمها اليمنى بقلق، وصار يتوقع أن تأتي بين لحظة وأخرى لثيابها، ثم استغل لحظة خاطفة استدارت فيها إلى الرجل، فقذف الملابس النسائية خارج الستار. كان هذا عمل خطير ومريب، فلو حانت منها التفاتة لافتضح أمره، وقد تفتن إلى أن ملابسها ليست في مكانها الصحيح حيث خلعتها، لكن لم يكن في وسعه فعل شيء آخر. ولمح الرجل يجفف جسده بمنشفة بيضاء.

اقتربت المرأة بخطوات سريعة باتجاه الستار، وتناولت الملابس بسرعة، وهي تقول بنبرات خجولة:

- استمتعنا رغم الفوضى التي حدثت في الخارج.

- فعلاً، لا ندري ماذا حدث!

- رأيتهم يبحثون عن شخص ما، ولعله سجين فرّ من المعسكر المجاور، وقد خشيت أن يطرقوا الباب ويصعدوا.

- وهل يفتشون منزل موسى البادي؟ هذا جنون!

- هيا، أسرع، أخشى أن يأتي زوجي عندما يسمع بالمشكلة، لا أريد أن يجداك هنا، فهو يعرف خالتي "محصنة".

صُعق مهدي وهو يسمع أنه في منزل الضابط القاسي الذي يقتل السجناء، ولعله منزل الأمير البدر كما يوحي اسم البستان، وقد احتله الضابط من أجل هذه المرأة الصغيرة. شرع العشيّق يرتدي الملابس النسائية بتناقل بينما ارتدت الشابة ملابسها بعجل، وهي تحتّ عشيقها على الخروج بسرعة، لكنه اقترب منها وأخذ يلثم وجهها ويضمّها بوداع مؤثّر حتى اصطدم جسدهما بالستار، وأوشكا أن يقعا عليه، فكتم أنفاسه وارتد إلى الخلف، وأحس ببرودة الجدار خلفه. لحسن الحظ أنها دفعته بقوة وتملّصت منه وهي تقول بصوت حاد غاضب:

- أرجوك، أخرج حالاً، لقد صرت مستهتراً في الفترة الأخيرة، وهذا لا يعجبني.

- ماذا أفعل؟ غصباً عني، إلى اللقاء.

- مع السلامة.

قالتها بحنق ونفاد صبر، وكأنها تطرده بصورة مضمرة، وانسحبت من الصالة. سمع مهدي وقع خطوات الشاب العجولة على السلالم، فخرج من خلف الستار وانتصب بباب غرفتها كالتمثال. كانت المرأة تطل من النافذة إلى الخارج بقلق، وتردد في مخاطبتها وهي مولية ظهرها. لم يدرك كيف يدع حضوره غير مفرع، خشي أن تقع في صدمة تؤدي بحياتها، فضلّ الصمت، وحين التفتت ورأته حملقت إليه فاغرة فاها بذعر وبالقاد نطقت:

- أوووو.

قال باضطراب:

- لا تخشي شيئاً يا ابنتي، أنا رجل مظلوم مطارد، وأرجو أن تساعديني وتخرجيني من هنا بسلام.

ساد الصمت للحظات قبل أن تقول بصوت مرتعش:

- إن كنت لصباً خذ ما تريده وانصرف.

- لو كنت لصباً، لم أكن لأجازف بالظهور أمامك، ولكنك حملت كل شيء ثمين وخرجت منذ زمن.

تفرّست في شكله لوهلة، ثم قالت بتبرّم:

- لا أظن أنني أستطيع أن أفعل شيئاً لأجلك، أخشى أن يأتي زوجي ويجدك هنا.

- نعم، زوجك موسى البادي سوف يفتش أرجاء المنزل، أرجوك.. افعلي شيئاً.

تأملت بقعة الدم على منزره، وشكله الرث، ووجه الأصفر الذليل، وقالت فجأة بذعر:

- كيف عرفت أن زوجي هو موسى البادي؟ أتكون الرجل الذي يبحثون عنه؟

- نعم، أنا هو، وقد فررت من الفناء المجاور، إنهم يريدون قتلي. زوجك رجل غشوم. سامحيني يا ابنتي، لأنني كنت مختبئاً بالصالة خلف الستار.

امتقع وجهها بحمرة الخجل وقالت بسخط:

- ما كان ينبغي أن تأتي إلى هنا، ألا تدرك أنك انتهكت حرمة هذا المنزل واطلعت على أسرارهِ؟

- لا تعنيني أسراركَ، لقد قتلوا رفاقي السجناء أمامي، لكن مازال لدي هدف واحد في الحياة، وأريد أن أحققه قبل أن أموت، وهذا هو سبب فراري.

- لا شك أنه هدف وجيه.

- نعم، أريد أن أتزوج امرأة أحببتها في القرية، وهي الآن أرملة.

ضحكت بتهكم وقالت:

- وهل مازال في جسدك أي رmq؟

- نعم، أنا قروي صلب، أقتات السمن المحلي والبر والشعير والعدس، وكلها مغذية أزرعها بيدي وأحصدها.

- سنرى هذه الليلة.

ورمقت إلى السرير غامزة، فارتعدت عظامه، إذ لم يتوقع منها هذه الدعوة الجريئة، كما لم يشأ أن يضيف سبباً آخر يؤدي إلى هلاكه، ورمق السرير الخشبي المنمنم بقلق، وقال متلافياً الأمر:

- الحقيقة، لم أعد أصلح لشيء، وسأ تزوجها لكي أتمتع
بحلاوة لسانها وحسب، فهي امرأة ضاحكة مازحة. وهذا
يشدني إليها.

قالت بعجب:

- أنت رجل غريب حقاً إذ تتزوج أرملة لهذا السبب فقط!
أظنّها سوف تأتي إلى منزلك لكي تُضحكك وتسامرك، ثم
تنام قربك ممتنة؟!!

- نعم، عندك حق يا ابنتي، سأفعل ما بوسعي لإرضائها، لا
أنكر أنه مازال لدي بعض الحول لها، وإن كان ما لدي لا
يناسبها فلتصرخ كما تشاء أو حتى تضربني على مؤخرتي،
ولن أشكو.

ضحكت وقالت بصوت رقيق:

- لعلك أرملة أيضاً ومازلت تحتفظ بقواك، وهنا ستكونان
متعادلين.

- بل أنا شبه أرملة، لدي امرأة قروية متعبة لا تدعني ألمسها،
تولينني ظهرها حين تنام، وإن احتضنتها من الخلف تصيح
بنزق: ألا تستحي من نفسك!

- يكفي أنكما تنامان على فراش واحد، فأنا لم أنم وموسى
سوى بضع ليالٍ بعد الزواج، وطالما أبقى هنا وحيدة، إنه كما
ترى متزوج بالمعسكر، ولا يأتي إلا مرة كل شهر أو
شهرين، وليته لا يفعل.

- وهذا الشاب هل يزورك كل يوم؟

- هذا ليس من شأنك، لقد رأيت أنه يأتي متتكرراً، ولا يُعقل أن تأتي خالتي كل يوم، بل في كل أسبوع مرة.. لا يهنأ الإنسان ويستمتع وهو خائف، وإن سمعتني أقول له ذلك فأنا أكذب.

- هل أحببته يا ابنتي؟

أجابت بسخط:

- اسمي "خليلة"، لا تخاطبني كأبٍ مشفق، انظر كيف صرت مهانة ذليلة، لست وحدك السجين والمعذب.

وتتهدت ثم أضافت:

- كان ينبغي أن يكون ذلك الشاب زوجي، لكنه فقير، وهذا الضابط هو شقيق امرأة أبي، وقد اقترنت به رغماً عني، هل فهمت ما يدعوني إلى فعل مثل هذا الأمر الخطير؟

- نعم، فهمت، أنا مثلك تماماً، أُجبرت على دخول منزلك، انظري إلي، أنا جريح، ولا أستطيع أن أستند على ركبتني، إنه موضع حساس جداً.

اقتربت منه وهي تقول باهتمام:

- الركبة فقط، لا يهم، سأضمدها لك وأربطها، دعني أرى..

رفع المنزر بحذر، فانحنت قليلاً، وفاح عطرها وبخورها في أنفه، وبمجرد أن لامست ساقه تحرك عضوه، ولمحت

انتفاضاته على سطح ثوبه، فتبسمت ولسان حالها يقول: أيها الماكر، تدعي الضعف والعفاف، ما هذا؟

وخجل مهدي من ادعائه الخبيث، لقد جاء يبحث عن ملجأ يقيه من الخطر، وهاهو يقع في هذا المأزق. كانت جميلة جداً وصغيرة، ويمكن أن تكون في سن ابنته لو لم يكن عقيماً. وارتعش جسده كله حين جسّت شبيّه المتصلب، وفي تلك اللحظة أتى صوت قرعات شديدة على الباب، فنهضت بوجل، ودفعته إلى تحت شرشف السرير الخشبي، فحشر جسده حشراً، وهو غير واثق مما تنوي أن تفعل. وخشي أن تكون قد أضمرت له الخديعة، لكنه بقي بموضعه لا يتحرك، بينما سارت الشابة، ونظرت من ثقب الشباك^{١٥}، ورأت زوجها وخلفه بضعة جنود مسلحين، فارتجف قلبها، ومع ذلك شدّت الحبل الموصول إلى مزلاج الباب، وأسرعت إلى قرب سريرها وهمست: "لا تتحرك، إنه زوجي".

وارتفعت طقطقة أقدام الجنود على درجات السلالم، كانوا يذرعون أرجاء المنزل، ويفتحون أبواب الغرف بعصبية، وجاء زوجها وسألها بلهجة حادة:

- هل رأيت أحداً في البستان؟

أجابت بارتباك:

- رأيت الجنود فقط يفتشون؟ ماذا حدث؟

^{١٥} الشباك: ليس النافذة، بل كوة مربعة تتخلل قاعتها ثقب تكشف من يقف أمام الباب.

- سجين محكوم عليه بالإعدام هرب من أيدي الجنود، وقد عاقبت الحارس المهمل الذي لم يحكم ضبط القيود على قدميه.

- هذا غريب.

- ما بك؟ وجهك أحمرٌ كالطماطم.

- لا شيء، أنا خائفةٌ وحسب.

- لا تخافي، سنفتش كل شبر في المنزل.

- هل أخرج من غرفة النوم لكي يفتشها الجنود؟

- كلا، لن أسمح لأحد أن يفتش غرفة نومي. هذا عار كبير.

وجاء الجنود ووقفوا في الصالة معلنين عن خلو المنزل والسطوح، فنفخ بغضب وقال وهو يرنو إليها شاردًا:

- لقد فتشنا جميع المنازل القريبة، وسألنا المارة وأهالي الحي المجاور، ولم يره أحد! أين يمكن أن يذهب؟

- انظر، لعله مختبئٌ تحت السرير. أتريد أن تتأكد؟

انحنت بمكر، ونظرت قدمي مهدي المنكشيتين، فنظرت إليها زوجها بعينين ناريتين، وصاح بانفعال:

- ليس هذا وقت العبث، لن يفلت مني، سأفتش كل شبر في صنعاء حتى أجده.

وخرج محتدأً، وتبعه الجنود، وظلَّ مهدي متجمداً حتى لمست
خليلة قدمه فانتفض بهلع، وخرج وهو مبلل بالعرق،
وخاطبها هامساً بنزق:

- هل أنت مجنونة؟

ضحكت وقالت بجذل:

- أعرفه أكثر منك، إنه من النوع العنيد الذي تقول له: انظر
إلى يمينك، فينظر باتجاه الشمال. لا يجب أن يأمره أحد. هذا
هو طبعه.

واستلقى مهدي على السرير، فضمدت جرحه، وأعلن لها عن
جوعه الشديد، فأشعلت الفرن، وصنعت بعض الخبز،
وطبخت لحماً وأرزاً، وقَلَّت بضع حبات من البطاطا
والبيض، وأكلا حتى الشبع. ثم صعدا إلى المنطرة العليا،
وشاهدا منازل المدينة وأسواقها القريبة، وتحدثا عن كثير من
الأشياء، حياة القرية والمدينة، وجوهرة وبربر، وليالي
الحرب، وكنز المكرا ب والتابوت وقنديل وفريقه وجبل
الرزاعي، والموتى والكمين، والسجن، وعن أبيها وامراته
الغاشمة وإخوتها ومزارع العنب خاصتهم، وموسى والثوار،
وغير ذلك..

وفي المساء أقفلت ستائر النوافذ، وأضاءت شمعة وحيدة
لتؤكد على طبيعة اللقاء، فتئاب واستلقى على الفراش
منهكاً، وأحست أنها ستفقدته تماماً فيما لو بالغت في إحياء
البهارج والطقوس التي يقيمها أهل صنعاء قبل اللقاء الحميم،

فأوقفت مشروع إشعال البخور العدني، وإعداد الماء الحار
المبخر للاغتسال، وتمشيط شعرها وعقسه إلى الخلف على
شكل قبة كبيرة، ونقش كفيها وساقها بالحناء، وأسرعت
بتحضير العشاء، بينما أجبرته أن يأخذ حماماً ساخناً، لأن
رائحته توشك أن تقتل من يقترب منه، فاغتسل بماء ساخن
أعدته له، وبعد أن نشّف جسده سمح لها أن تشذب شاربيه
ولحيته بمقص زوجها، ثم رمت ملابسها القذرة بعيداً، وألبسته
منزراً قشيباً وصدرية أنيقة، وأخبرته أن زوجها لن يفقدها،
لأنه لا يخلع ملابسها العسكرية سوى عند النوم. وأضاءت
عدداً آخر من الشموع، لأن الضوء الخافت يجلب النعاس،
وأكلا الطعام وشربا القهوة المنبّهة، ثم ألقت نفسها بجانبه
واضعة رأسها فوق صدره، وجعلت أناملها تعبت في شينيه،
فكبر وانتفخ، وحاول أن يذكرها بعمره، فأغلقت فمه برقة،
وبدت وكأنها قررت ألا تدعه يفلت حتى لو كان بعمر جدها،
وجعلت تداريه وتحفزه بصوت رخيم يخدر الروح: "افعلها
لامرأة معوزة، جرّب نفسك مع بنت مدينة رقيقة قبل أن
تلتقي بأرملة قروية خشنة تطحنك طحناً، افعلها أيها القروي
الشهم"، ثم صرخت في وجهه محتدة: "يا لك من متبطر
قانت، امنح ما تملك لمن يستحق، فقد جئت بقدميك إلى منزل
امرأة صغيرة محرومة، ولن أدعك تنام حتى تفعلها".
ثم قالت بلين: "هل أطفى الضوء أم أدعك تتأمل ما وهبه الله
للعبد المتعفف العاصي؟".

أخيراً وجد مهدي في اقتراحها شيئاً يوافق هواه، ويخفف من لسعات ضميره، فقال بضعف: "أطفئي الضوء". فنفخت الشموع نفحات قوية بأنفاس مضطربة، وخلعت ملابسها وتلمّست هدفها في العتمة، وثبتته في جسدها، وأطلقت تنهيدة ارتياح عنيفة، وأخذت تتحرك بوحشية، وهو لم يقف مستسلماً حتى تعبت بجسده شابة بضّة على هواها، بل أطلق سعاره القروي في جسدها الرقيق الناعم، ورعشها بشراسة منتقم نجا من الموت، وسكب في مهبلها عدة مرات، فنامت آخر مرة بموضعها، ولم تنزحزح حتى الصباح، وأفاقت قبله وجعلت تتأمله بافتتان، وما إن فتح عينيه حتى نكست رأسها إلى قدميها بحياء وقالت بصوت خافت:

- فلتتزوج أربع أرامل مجتمعات.

- دعيني أذهب.

تركت خجلها جانباً وقالت بحزم:

- هل أنت مجنون؟ دع الفوضى التي صنعتها تنتهي. إنهم يبحثون عنك في كل مكان.

- ألا تخشي أن يداهمنا زوجك على غفلة؟

- الدار كبير جداً، أستطيع أن أخفيك لمدة عام دون أن يشعر. أنت لم تدخل من الباب، ولن تستطيع أن تخرج منه إلا بمعجزة.

وجد مهدي نفسه مسجوناً، لكنه سجن ناعم، يأكل ويشرب وينكح امرأة شابة ثائرة الجسد، ولا يشغله سوى القلق حول بقاءه محصوراً، فاقداً حرية الظهر، وخوفه الدائم أن يجده الضابط في منزله. والمصيبة أن الأخير قام بتغيير الرتاج القديم، لكنه لا يأتي إلى الدار بسبب مشاغله الكثيرة. وظلت خلية تؤكد أنه لن يحضر قبل مرور شهر، وتطلب من مهدي أن يقر عيناً، ويمكن في ضيافتها حتى تجد وسيلة ما لإخراجه بسلام. في مساء اليوم الثالث أفصحت أن بوسعها إرسال الحارس في الصباح لاقتياع شيء ما من السوق، وبوسعه حينئذ أن يخرج إلى حال سبيله، وظلت تتنهد بحزن، وقضيا ليلة الوداع كما يجب أن تكون.

في صبيحة اليوم التالي أتى الضابط إلى داره دون سابق إنذار، كان مهدي يهبط بالسلام متأهباً للمغادرة، بينما خلية تسبقه بخطوات لكي تكلف الحارس بالذهاب إلى السوق. وقد سمعا انفتاح الباب وصوت الضابط وهو يخاطب الحارس بنزق غير مألوف. وبالكاد استطاع مهدي أن يفرّ من طريقه إلى المخزن، وأسرعت خلية وقذفت له قطعة سجاد يجلس عليها، ثم استقبلت زوجها وهي ممتعة الوجه ومضطربة، ولم تجرؤ على سؤاله عن سبب قدومه المفاجئ. ولم يسألها هو عن سبب اضطرابها على غير عادته، بدا متجهماً مشغول البال لسبب ما، وأخذ يذرع الطابق السادس بضجر، ثم صعد إلى المنظرة، ولاحظ أنها غير مرتبة، ورأى نصف

شمعة محترقة، فانتابه الارتياح، واستغرب أن تبين امرأته الشابة في أعلى غرف المنزل، فاستدعاها وخاطبها باستنكار:

- هل تبين الليل في المنظر؟

رمقت الشمعة والفراش وقالت بارتباك:

- نعم، أشعر أحياناً بالملل في غرفتي، ألا تقضي هذه الليلة معي؟

- سأقضي الأيام كلها معك، لقد أوقفوني عن العمل، وباتت علاقتي سيئة بالمصريين والثوار، يريدون أن يفرضوا وصايتهم عليّ.

سكتت، وأرادت الانسحاب، لكنه أمسك بيدها، وأرغمها على البقاء إلى جانبه، وأخذ يشكو من إنكار الثوار للجهود التي بذلها، يطالبونه دائماً أن يتوقف عن إعدام السجناء، وأن يطلق سراحهم، لكنه لا يرى أي حكمة في ذلك، يريد أن يصفي كل المعارضين للثورة، ويبيد كل من يدعمهم أو يتعاطف معهم، وقد ورّطه ذلك السجين الفار في قضية خطيرة، حيث ادّعى أنه قام بالتعاون مع فريق آثار مصري في التنقيب عن الكنوز، وقد عرف مؤخراً أن طائرتين مصريتين قصفتا شاحنة استولى عليهما الملكيون خارج صنعاء، وهذا هو ما أخبره به ذلك الرجل القروي، وعندما تصفح ما سجّله المحقق في أوراقه عندما تمّ القبض عليه، لم تختلف أقواله، رغم أن الضابط كتبها على عجل في غرفته، فأمسك بالأوراق وسار إلى مبنى القيادة المصرية، وخاطب

قائد القوات المصرية عن أمر تهريب الآثار من قضاء يريم،
فأنكر الجنرال المصري ذلك، وغضب بشدة عندما رمى
الرائد المحلي الأوراق أمامه بعصبية، وسرعان ما اشتكى
منه إلى القائد الأعلى للقوات المسلحة المشير عبدالله السلال،
والأخير لا يحيد عن رأي المصريين، فأمر بإيقافه عن
العمل.. يا لحماقتهم.. إنه رجل عسكري نشيط لا يمل أو
يرتاح، يعمل في أيام الإجازات، وكل هذا من أجل الثورة،
وهو لا يحب المكوث في المنزل عاطلاً، سوف يقتله الفراغ
لا ريب.

قالت زوجته بأسى غير حقيقي:

- ابق إلى جانبي وحسب.

- أنا محبط، سأبقى هذه الليلة، وأظنهم لن يستغنوا عن
خدماتي.

- نعم، لن يتخلوا عنك.

- اقتربي مني، إنك مكتنزة مشرقة الوجه، تبدين سعيدة هذي
الأيام وتلبسين أجمل ثيابك.

- نعم، سألبسها من أجلك.

تحسس ثوبها المخملي الملون، وجذبها إلى حجره، وجعل
يشم جسدها وشعرها الناعم كعجل صغير يستنشق أمه،
وأحست بخشونة كفيه وهو يداعب نهديها، وضافت بأخرة

أنفاسه الكريهة، وتجلّدت وقاومت شعور التقرز الذي ينتابها،
وسمعه يقول بذهول:

- رائحتك حلوة منعشة وشعرك رطب وكأنك تستحمين قبل
قدومي.

- نعم، أنتظر كل يوم.

فأبعدها عنه فجأة ونهض وكأنه تذكر شيئاً ما أو شعر أنه
تمادى في عبثه، وصاح بصوت أجش صارم:

- "المنظرة" غير مرتبة، وهناك عبق غريب فيها، افرشيها
ورتيها جيداً.

وظلّ يتحرك كالمجنون في المنزل، ويذرع الغرف وهو
يتوعد الذين دبّروا مؤامرة دنيئة ضده بالعقاب. وجعل
يستعرض أمامها إنجازاته وأفعاله والذسائس التي يصنعها
خصومه، فهو ضابط مرموق ونشيط يحب الضبط والربط،
ويخشاه الصغير والكبير في صنعاء ويخافون بطشه، حتى
المصريون يفرعون من طلّعته. قابل الرئيس عبدالناصر
على متن سفينة حربية مصرية في ميناء الحديد، وصافحه
دون أن ينحني أو يبتسم بتملق كالضباط الآخرين، وقال حين
عوتب على سلوكه: "الرجل العسكري يجب ألا يتبسم. هذه
سمتي وطبيعتي"، فضحك الرئيس المصري ورد بانبساط
مخاطباً المشير السلّال: "اصنعوا لي ألف واحد مثل هذا
الضابط لأحارب بهم إسرائيل". وضحك الجميع، ولم يضحك
هو، وتأمّله جميع الضباط بإعجاب وغيره..

كانت زوجته تنصت إليه، وهي خائفة من أن يباغت السجين الهارب في المخزن، ويكشف أمرهما، وقالت لنفسها بضيق بعد أن سئمت حديثه: "متى يتوقف هذا المتبجح عن الكلام؟"، لكنه لم يسكت إلا في وقت متأخر من الليل، وقضى معها لحظات حميمة قصيرة منفعة على السرير، ثم ارتمى ونام كالميت.

قامت خلية وحملت فراشاً ولحافاً وبعض الكعك والماء، وتسالت إلى المخزن، فرأت مهدي متكوراً ينتفض من البرد. لم يستطع أن يتكلم، بل أشار لها أن تقوده إلى الحمام، وسار متوكئاً على جسدها حتى دخل حمام الطابق الرابع، فتركته وصعدت لتتأكد أن زوجها لم يستيقظ، ثم آبت وهمست له طالبة منه أن يساعدها على خنقه، إذ صار موقوفاً عن العمل، وسيظل يصل ويجول في المنزل كالمسعود حتى يعثر عليه، وعندئذ سوف يقتلها معاً، فصاح مهدي بهوس: - أخرجيني من هنا، لقد اقترفت ذنوباً كثيرة، ولن أساعدك على القتل.

أطبقت فمه براحتها، هامسة بصوت باك:

- اشششش أيها المجنون.

وأخذ مهدي يهرول على السلالم وهي خلفه تحاول أن تعيده، حتى وصل إلى باب الدار، وجعل يمسك بالمزلاج ويهزه، فأمسكت بيديه المرتعشتين، وهمست: "كما ترى، الباب موصد، أعدك أن أخرجك في الغد. هيا، لا تفضحنا". لأن

وهذا، وصعدا إلى المخزن، وودّعه بقبلة رقيقة، وأوصته بالهدوء، ثم آبت إلى غرفتها. وفي الصباح نهض زوجها واغتسل، ووجدها واقفة وهي ترتدي ملابسها، بينما يظهر عليها القلق، فقال بعجب:

- أنت امرأة حقيقية الآن، صحت مبكرة!

- نعم، لأقدم لك الفطور.

سار إلى الحمام، ثم ارتدى ملابس العسكرية، وأكل فطوره الساخن وشرب القهوة، وقال إنه يود أن يجلب عدّته الحربية من المخزن، ويتأهب للذود عن نفسه في حال تعرّض لهجوم من الثوار أو المصريين، فتغيّرت ملامحها، ولاحظ ذلك فقال لها:

- لا تخافي، يتحتم أن آخذ الحيطة.

ردّت بحمية مفاجئة:

- تسلم من الشر.. انتظر، سأجلبها لك بنفسي.

- لا، أنا أفعل ذلك دائماً.

- ليس اليوم، كانت البارحة ليلة طيبة. دعني أخدمك، أرجوك.

- أتعلمين.. صرت مختلفة، ماذا حدث لك؟

- لن أجيب عليك، أنت تخجلني.

وسارت إلى المخزن وجلبت سلاحه الكلاشنكوف وصندوق الرصاص الثقيل، وكلفها ذلك جهداً جباراً، ووضعتها في الصالة، فجعل يعبئ خزانة سلاحه الآلي بالرصاص، ثم انبرى ينظفه بقطعة قماش ساكباً الزيت على أجزائه الصدئة، واستمر يصعد إلى السطح ويراقب من النوافذ، وطلب منها أن تعد له الطعام، ثم اتجه إلى المخزن المعتم ممسكاً بشمعة مضاءة، وفوجئ مهدي بخطوات أقدام قوية تقترب، فتوارى خلف برميل حبوب بالزاوية وهو يرتعد. وظهر الضابط بملابسه العسكرية وهو يمسك شمعة مضيئة ويتقدم ناحيته، ثم توقف فجأة، وأخذ يحدق بغضب في الفراش المستلقي على الأرض، وشم امرأته بصوت مسموع، وتناول قطعة من الكعك، وصاح على خليعة بصوت عالٍ، فأقبلت تمشي مترنحة وقلبها يرجف بين ضلوعها كطائر مذبح، وبالكاد استطاعت أن تجيب بتلعثم:

- ماذا هناك؟

- ماذا يفعل هذا الفراش والسجاد في المخزن؟

أجابت بتلبك:

- هاه، أيّ فراش! أوه، تذكّرت، لقد جلبته إلى هنا لأنه لم يعد مناسباً.. لم يعجبني شكله، أريد أن استبدله بآخر.

- هذا الفراش الإيراني هو الأجل في السوق، ثم ألم تجدي مكاناً آخر غير المخزن؟! هنا ستمزقه الفئران، وهذا الكعك المأكول إلى جانبه، يا لك من قدرة، ماذا جرى لك؟

- دعه هنا، سوف أتدبر أمره لاحقاً.

فتح زوجها صندوقاً كبير الحجم، وأخرج المزيد من الرصاص، ومسدسين، وبضع قنابل، فانصرفت خلية وهي ترتعد، وتنتظر أن تسمع دوي عيار ناري يخترق جسد الرجل المسكين، لكنها بدلاً من ذلك سمعت صوت انغلاق الباب، فزفرت بارتياح، ومسحت العرق عن جبينها الناصع، وعادت إلى الفرن المشتعل، وتمنت بحرارة لو تملك قطرات من السم لتضعها وسط طعامه، أما مهدي فقد أغمض عينيه وتنفس الصعداء. ورغم ذلك آمن أنه سيموت في هذا المنزل أو يخرج منه فاقداً عقله. وشعر أن الحظ لن يقف إلى جانبه كل مرة.

حين أتت خلية بعد أن خلد زوجها للنوم قال لها إنه لا يستطيع أن يتحمل أكثر من ذلك، ولم يعد يبالي بانكشاف أمره، فحنته على التحلي بالصبر. وقالت له بصوت خفيض حاد:

- أتظن نفسك الوحيد الذي يتعذب؟ أنا أكثر منك أرغب أن ينتهي هذا الحال، ونفاد صبرك سيقتلني أيضاً.

نظر جانباً وهمس بيأس:

- آه، ليتني قُلت مع رفاقي السجناء، يا لي من سيئ الحظ.
- لا تتذمر يا هذا، ألا تدرك أنك دخلت منزلي عبر النافذة، وطلبت أن أجيرك؟

هزَّ رأسه موافقاً بضجر ولزم الصمت، ومرَّ اليوم الثالث ثم الرابع والخامس، وكأنها دهر طويل، ولم يتغير شيء وفي اليوم السادس جاء ذلك الشاب متقمصاً شخص خالتها. وكانت خلية قد نسيت أمره بعد أن ملأ الرجل الفار مكانه الشاغر في روحها وجسدها.

وفتح الحارس الباب برحابة صدر للخالة "محصنة" التي لا تتكلم، فقد أوصته سيده سابقاً أن يسمح لها بالدخول كلما أتت دون أن يناقشها لأنها صمّاء، فصعد الشاب المتنكر السلالم باطمئنان، وأخذ يتحرر من بعض ملابس الخالة التي تسبب له الضيق، وسمعت خلية وقع خطواته وتذكّرت أمره، فاعترضت طريقه لتنذره أن يبتعد، لكن الزوج المتوجس خوفاً من أعدائه أحس بشيء مريب يحدث، فتبعها راكضاً وهو يمسك على قبضة مسدسه، حتى اعترض طريق الشاب قبلها، ورأى وجهه وملابسه الغريبة، فخاطبه بصوته الصارم: "من أنت؟ وماذا تفعل في منزلي؟".

وصاحت امرأته متظاهرة بالخوف والحشمة، وتجمّد الشاب عارفاً أن نهايته وشيكة، ولم يجد شيئاً يتذرع به. فهرب من أمامه، فتبعه الزوج إلى الخارج وأطلق عليه النار قرب باب الفناء، ثم سحبه سريعاً إلى الجزء الخلفي من البستان، وأخذ يفتش ملابسه علّه يعثر على سلاح مختبئ وهو يظن أنه جاء لاغتياله.

وهرع الحارس متحزراً إلى سيده. كانت خلية تشاهد ما يجري من النافذة وهي تبكي. كان زوجها يتحدث مع

الحارس، ثم هزّ رأسه فجأة، ورفع بصره إلى النافذة وراها، فأمسك بمسدسه، وركض باتجاه باب المنزل وهو يبدو بمنتهى الغضب، وأُتيح للمرأة أن تأخذ حقيبة صغيرة تحوي مالها ومصاغها، وهرعت إلى المخزن هامسةً لمهدي وهي تبكي:

- موسى قتل الشاب، وهو آتٍ الآن ليقتلني، تأهب لتخرج بعد قليل، الأبواب مفتوحة والحارس في البستان يحرس الجثة، شكراً لك على ما منحتني إياه، كل ما أملكه موجود في هذه الحقيبة، إنها لك.. تزوج تلك الأرملة، ولا تنساني.

أعاد مهدي الحقيبة إلى يدها، وردّ عليها بصوت خافت:

- لن آخذ شيئاً، سنخرج معاً، لن أدعك تموتين، مازلتِ صغيرة السن.

وجاء صوت الزوج الغاضب:

- تخونيني أيتها القحبة، وتدخلين الشباب إلى غرفتي بملابس خالتك.

وسمعا وقع قدميه تفرع السلالم بشدة وهو يمر قرب المخزن باندفاع مخيف، متجهاً صوب الغرف الداخلية، فاندفعا هابطين إلى الأسفل، وانتزعت خلية فرديتي حذاء من الطابق الأرضي، وأوصدت باب الدار خلفها، ثم دست قدميها في الحذاء، وأسرعت خلف مهدي، وهي بملابسها المكشوفة وشعرها سابح يطير في الهواء.

سارت وسط الشارع والمارة يتفرجون على هيئتها
مستغربين، وينظرون إلى مهدي بارتياح، ومع هذا لم
يعترض طريقهما أحد. سمعا فقط كثيراً من التعليقات
اللاذعة: "انظروا إلى هذه المرأة السافرة الشعر.. استتري
عليك اللعنة.. إنها قحبة لا شك هاربة من الفضيحة.. انظروا
إلى هذا الرجل معها، يبدو مشبوهاً"، لكنهما لم يكثرتا
وواصلتا السير الجاد عبر أزقة وطرق ملتوية، حتى أنهكت
خليلة، وبدأت قواها تخور، فقالت بصوت متقطع وهي تلهث:
"اسمع.. اعبر بنا إلى منزل خالتي محصنة، إنه في الشارع
الآخر"، وأشارت إلى زقاق جانبي سارا فيه، وظلّ الناس
يتأففون من مظهرها الفاضح، حتى دخلت منزل خالتها
بسلام.

هناك ارتدت ثوباً خاصاً بالنساء الكبيرات، وستارة حمراء
ذات دوائر سوداء، ولثاماً يخفي ملامح وجهها، فبدت مثل
امرأة بلغت سن اليأس لولا عينيها البراقتين الجميلتين.

وأشارت إلى مهدي قائلة:

- هيا بنا نذهب.

- ظننتك امرأة أخرى، ما الذي تتوين فعله؟

- أسير معك إلى قريتك.

صاح مهدي بفرع:

- ماذا؟ اسمعي، قرיתי بعيدة جداً، ثم إني رجل كبير
ومتزوج، إن شئت أقودك إلى منزل أهلك، ثم أمضي في
سبيلي.

- أتظن أنني أجهل الطريق إلى منزل أبي؟ لكن موسى سيلحق
بي إلى هناك، وسيخبرهم بما حدث، وسوف يقتلني هو أو
أحد إخوتي أو أبي نفسه.

- ألدك قريب أو شخص يحميك؟

- لا أثق بأحد غيرك، أنت الأمل الوحيد الذي أملك الآن، وقد
كان بوسعك أن تفرّ وتدعني أموت على يد زوجي لكنك لم
تفعل ذلك...

احتار مهدي، فهو رجل قروي خجول يدرك معنى أن يضع
شخص ما ثقته به ويتوسم مساعدته، فكيف يمكنه أن يخذلها؟
هناك قرويون كُثُر يدفعون حياتهم ثمناً لمواقف نبيلة مشابهة،
وقال لنفسه بعتب: "هذه المرأة أجارتك، وبذلت روحها
لتحميك يا ناكر المعروف، والآن تقول لها ببساطة اذهبي في
حال سبيلك، مازالت المسكينة تشعر بالخطر. وتذكّر قول
الحكيم علي ابن زايد:

يقول علي ابن زايد لا تستبح حق كائن

ومن استأمنك لا تخونه حتى وإن كنت خائن"

يا له من جاهل، كم ترنم بهذه الكلمات المسجوعة خلف
الثيران وهو يحرق الأرض. ما أسرع أن يسهو الإنسان!

وسمع خليفة فجأة تقول بنبرات حادة:

- اسمع، ليس هذا وقت الشرود، أعرف شيخ بني الحارث أحمد الوشاح، فهو رجل شهم يستقبل الغرباء وعابري السبيل، ومنزله منعزل، ونستطيع أن نمكث عنده حتى نجد دليلاً يخرجنا من المدينة إلى قريتك.

- أين يسكن هذا الرجل؟

- في منطقة سعوان.

- كيف تعرفين هذا؟

- إنه صديق والدي أحسن الباكري، وكان منزله القديم جوار منزلنا الواقع في منطقة شعوب عند الغيل الأسود، وهما من أكبر ملاكي مزارع العنب في صنعاء.

- إذن عندما يدرك أنك ابنة صديقه سوف يحتفي بنا ويساعدنا.

صاحت بحدة:

- لا ينبغي أن يعرف ذلك، أنا صرت مشردة، ولا أظن أن بوسعي أن أنظر في وجه صديق أبي. إن موسى شخص حقير، سيذيع الفضيحة على الملأ. لحسن الحظ أنهم لا يعرفون صورتي منذ زمن طويل.

توغلا في منطقة شعوب وعبرا الغيل الأسود. وتحاشت خلية
المرور قرب منزلهم، أشارت فقط إلى دار كبير شامخ تحيط
به مزارع العنب، كانت هناك فتاة يافعة تنشر الغسيل على
السطوح، فأشرقت الدموع في عينيها، واكتفت بالقول: "أختي
دليلة، لا أستطيع أن أكلمها، كانت تفرح حين تراني".

ووصلا إلى منطقة سعوان بعد لأي، واقتربا من منزل وحيد
بأربعة طوابق، مزارع العنب تلوح خضراء وعناقيدها
السوداء ناضجة، ومزرعة "قات" كبيرة أمام المنزل، وكلب
مربوط بسلسلة عند كوخ الحارس، وقد نبج بشدة حين رآهما
قادمين، ثم ظهر كلب آخر مفكوك العقال بالقرب، وهذا
الأخير أطلق نباحاً خفيفاً، ثم عاد وربض في الظل وكان
الأمر لا يعنيه أو أنه أخطأ في التقدير. بدا أليفاً معتاداً على
وجوه الغرباء، وسرعان ما نهض ونكس رأسه هزاً ذيله
وكانه يرحب بالرجل والمرأة على طريقته المتملقة.

وقفا أمام الدار بتهيب، وأطل فتى يافع ثم اختفى، وظهر
فتيان آخرون ثم اختفوا، وكلهم نظروا إليهما بكثير من
الاهتمام. ثم خرجت امرأة كبيرة السن من الباب المفتوح،
وانتظرت صامتة، ولكزت خلية مهدي ليقول شيئاً، لأن
أهالي صنعاء يحبذون أن يبدأ الرجل بالكلام، فقال بصوت
عالٍ:

- السلام عليكم.

ردت المرأة الكبيرة على تحيته، ثم قالت بصوت حازم:

- حيّا الله من جاء.. عابر سبيل أم ضيف؟

نظر مهدي إلى خليفة لأنها أدري منه بتقاليد الناس هنا،
فهمست في أذنه، فأجاب:

- عافاك الله، ضيف.

- قريب أم بعيد؟

فهمست خليفة في أذنه فأجاب:

- بعيد.

- مرحباً مرحب الصوت، الترحيب الأول كبش، والثاني
عجل والثالث ثور والرابع لحم زندي.

- اكتفينا اليوم بلحم الطير، وبعد ذلك نأكل ما تأكلون ونشرب
ما تشربون.

- في هذه الحالة عيشوا الدهر في منزلنا، أهلاً بكم على
الحاصل^{١٦}.

- الحاصل عزيز.

كان هذا جزءاً من تقاليد الناس هناك عند قدوم زائر، وبقدر
ما كان لهذا من أثر حسن في نفس مهدي، فقد استاء حين
انفصل عن خليفة، حيث أفسحوا له مجلس الرجال الوثير،
بينما دخلت خليفة عند الحريم، فشعر بالوحشة. لم يكن بجانبه

^{١٦}الحاصل: المتوفر وتعني بأنها سوف تستضيفهم بالطعام المؤلف دون تكلف أو
زيادة.

سوى بعض الفتيان ذوي الأسمال الرثة والوجوه الكابية اللون. سمع أن الشيخ رب المنزل يطوف حول المزارع القريبة، ولن يأتي إلا بعد الظهيرة، فتشاغل بالنظر من النافذة إلى الخارج، وفوجئ وهو يلمح خلف مزارع العنب المقابلة عتاداً حربياً، رأى الدبابات والآليات مبعثرة وسط ميدان كبير، وكانت هنالك مدافع هاون تمد أعناقها بشكل مخيف ناحية الشرق، ولاحظ أن الدبابات مصوّبة إلى تلك الجهة. كانت بعض الآليات تمر قرب الدار وتصنع ضجيجاً واهتزازاً، لكن الأطفال والمقيمين هنا لم يعودوا يهتمون، حتى الكلب ظهر ماشياً قرب عربة مصفحة دون أن تثير اهتمامه.

سأل مهدي الفتيان عن تلك المنطقة النائبة الرابضة شرقاً، فقالوا إنها بني حشيش، وإن أهاليها مازالوا ملكيين يمقتون الثورة والثوار، ويهاجمون المعسكر بين فينة وأخرى، وأحس الضيف بالرهبة، لقد جاء ينشد السكينة للخروج من صنعاء بأمان، وهو ليس وحيداً، بل بمعيته امرأة شاردة، وها هما في منطقة محاطة بالجنود والسلاح المमित والمشاكل، فقال لنفسه مغتماً: "ما أبغض هذا المكان، بوسعي أن أطلب المغادرة حالاً، وإن تمنّعت خليلة سأمضي وحدي"، وأفصح للفتيان عن رغبته في الذهاب إلى حال سبيله، فاسودّت وجوههم وقالوا إن هذا طلب فظيع لا يجب أن يسمعه أحد، لأن الناس ألسنتهم حادة لا ترحم، ولن يسكتوا، وسينفتون

سموماً على عائلتهم، فالضيف في تقاليدهم لا يتحتم أن يغادر قبل ثلاثة أيام، وبوسعه بعد ذلك أن يمكث ما شاء أو يرحل.

جلس يائساً قرب النافذة يتطلع إلى المعسكر ومزارع العنب، وسألهم إن كان بوسعه أن يقابل المرأة التي أتت برفقته، فاستدعوها وانصرفوا بأدب جمّ. أتت خليلة سافرة الوجه ضاحكة وقالت بلهجة طافحة بالسعادة:

- ما أسرع أن قلقت على غيابي!

همس بعثب:

- المكان غريب هنا، والتقاليد كذلك، لكنك سعيدة والجو هنا يناسبك، ولا تدرين ما ينتابني من ضجر!

همست بجذل:

- هل تصدّق أن الحريم لم يتعرفن على ملامحي؟ ارتبن من لهجتي وحسب، أتمنى ألا يتذكرن ملامحي، كنت صغيرة و..

قاطعها محتداً:

- انظري، هناك معسكر مصري وعتاد ثقيل، لست مرتاحاً بالبقاء هنا.

ألقت نظرة عابرة إلى المعسكر وأجابت بصوت خافت:

- لا تهتم، بعد ثلاثة أيام تستطيع أن تطلب من الشيخ دليلاً للخروج. أظن موسى يبحث عني في الغيل الأسود، أبي

وإخوتي سوف يبحثون في المدينة، لن يلتفتوا إلى هذا الدار
المعزول القريب من المعسكر.

- لقد تغيّرت حياتي بمجرد أن رأيت المصريين، وهذا سبب
قلقي.

- عليّ أن أشكرهم إذن، لولاهم لم أكن لأتعرّف عليك.

- لا تضحكي، أرجوك، هذا يجعلني أتشاءم أكثر.

قهقهت بصوت خافت، ووضعت يدها على فمها لكي لا
تنفجر على نحو يجرح مشاعر سكان الدار الجادين الذين لا
يضحكون على ما يبدو إلا في الأعياد، وتحكّمت بنفسها
بصعوبة ثم قالت بانبساط:

- كم أنتم متشائمون يا أهل القرى، وتأخذون كل شيء على
محمل الجّد!

وفي تلك البرهة صدرت ضوضاء في المنزل، وطرق
الفتيان الباب معلنين عن قدوم جدهم الشيخ، وسُمعت أصوات
أقدامهم وهي تفرع الأرض قرعات سريعة، وكان عاصفة
توشك أن تهب وتقتلع كل شيء في طريقها، فانسَلَّت خليلة
إلى الخارج، إذ تدرك - لأنها من أهالي صنعاء - أن الجد
الكبير لا يحبذ أن يجد في مجلس الرجال أنثى أو حتى ذكراً
غير راشد.

دخل الشيخ بخفة كالطيف، يرافقه أولاده الراشدون على
الدوام، لكي يعينوه على صعود السلالم، ويتعلّموا من تجاربه

ومناقبه، وكان مهدي يتوقع أن يرى رجلاً قوياً يستطيع
الطير أن يقف على حواف شاربيه المفتولين، ولكنه رأى
رجلاً هرمًا، محني الظهر، محتقن الوجه، أصهب الحاجبين،
وسوالفه بيضاء، وكان يلبس "توزة"^{١٧} رجال القبائل المائلة
بشماله. صافح الضيف دون أن تنفرج ملامحه، وكأنه
يمارس دوراً مألوفاً، ولم يهتم بالسؤال عن اسمه، أو سبب
مجيئه، أو مكان إقامته السابقة، فهو "الضيف"، هذا هو اسمه
المهيب الذي يستحق لأجله الحفاوة، وإن كان للضيف سببٌ
للقدوم فيتحتّم أن يتكلم عنه من تلقاء نفسه.

شعر مهدي أن الصمت يثير الخجل ويخلق الوحشة بين
الأشخاص الغرباء، فانبرى يقول بصوت متذبذب:

- أرى معسكراً في الجوار، ألا يسبب لكم هذا بعض القلق؟

قال الشيخ بصوت عالٍ وكأنه يصرخ:

- الحافظ الله يا ولدي، لن أترحزح عن داري مهما فعلوا، أنا
هنا لأحمي مزارعي.

- سمعت أن الملكيين يسعون للهجوم على صنعاء من جهة
الشرق.

ضحك الشيخ بصوت قوي وأجاب:

^{١٧} خنجر مائل وسط غمد فضي مشدود بحزام جلدي.

- أتدري، لقد حشرنا الملكيون داخل برميل مقفل،
والجمهوريون أخرجونا منه إلى وسط مرجل يغلي، وأما
المصريون فإنهم يطفئون أجسادنا بالنار.

ضحك مهدي رغم أنه لم يفهم غير الفتات، فتابع الشيخ:

- قذائف الملكيين تسقط على مزارعي، وتخيف حيواناتي، لم
ينتصر أحدٌ منهم على الآخر، أنا المتضرر الوحيد هنا.

- هل علاقتك حسنة بجيرانك؟

- قليلاً.. زاروني قبل عامين وهم يظنون أنني ذلك الرجل
الرهيّب "أحسن الوشاح" سيّاف الإمام أحمد الذي كان يجز
رؤوس الثوار، لكنني أخبرتهم أن هذا الرجل أعدم قبل بضعة
سنيين لأنه أقدم على قتل رجل شرب من كوز ماء يملكه.
وضحكوا بشدة للسبب الذي مات من أجله.

وقهقه الشيخ طويلاً، وتشاءم الضيف ولم يجروا أن يندر
الرجل المسنّ أن الإسراف في الضحك علامة غير حسنة.
ربما لن يفهم أقوال القرويين المتشائمين، وإن كان يعيش
عيشة قروية وسط مزارع العنب، مع قطع من الماشية
والكلاب، واكتفى بالقول بتلطف:

- أيها الشيخ الكريم، هل أستطيع أن أسكن وامراتي بماوى
مستقل ريثما نستطيع مغادرة المدينة؟

- نعم، تستطيع أن تسكن في أحد أكواخ الحرّاس، هناك
حارس ريمي غادر قريته قبل أيام وكوخه خالٍ الآن.

وصاح الرجل على أولاده آمراً أن ينظفوا الكوخ للضيف وامراته، وسمع وقع أقدامهم السريعة وهم يخرجون، ثم سمع الرجال الراشدين يصيحون على أولادهم أن ينظفوا الكوخ، وهؤلاء ساروا مذعنين، إذ لا يوجد لديهم أولاد يلقون إليهم الأمر بالتنظيف، ولاحظ الشيخ بما بقي لديه من كياسة وتجربة في الحياة أن ضيفه توقف عن الكلام وصار ينظر للسقف بتأمل، وسكوته وقلقه وتحديقه علامات غير لطيفة للتعبير عن جوعه، فانفجر الشيخ بصوت صاخب طالباً الطعام. ارتبك مهدي وأصيب بالفرع، ثم ابتهج وغير من وضعية جلوسه متأهباً، فقد أمضى ليالٍ مضنية محاصراً داخل المخزن، لا يأكل غير بعض الكعك البائت. أسرع الرجال الراشدون ونقلوا الأمر إلى الحريم، وسمع مهدي صوت المرأة المسنة التي استقبلتهم تأمر بتقديم الأطباق، وبعد لحظات وجيزة أقبلت طلائع أطباق صنعاء يتصاعد بخارها الساخن، وشرعوا يأكلون ويتحدثون، وأخبرهم مهدي عن قرى يريم وتلالها وحقولها، إذ ليس جميلاً أن يأكل طعام رجلٍ دون أن يعرف اسمه الأول على الأقل، لم يذكر اسم قرينته تحوطاً رغم أنه لم يقرر بعد أن يصطحب خليلة إليها، وبدا موقفاً في حديثه، لأن الرجل العجوز أخذ يصغي، ويشجعه بهزات من رأسه، وانضم الرجال الراشدون إليهما صامتين، بينما انزوى الفتیان بأقصى المأدبة لا يجرؤون على النظر ناحية الكبار.

مأذبة النساء كانت في جهة مجهولة من المنزل، لكن أصوات حديثهن وبكاء بعض الأطفال لفتت انتباه الشيخ الكبير، فتجهم وجهه والتفت إلى أبنائه، بنظرة فهموا فحواها، وهؤلاء التفتوا إلى الفتیان، وحركوا حواجبهم الكثة مشيرين إلى الضوضاء، وهكذا تسلل أقرب الفتیان إلى باب المجلس، وغاب قليلاً، ثم عاد بهدوء واحتل موضعه، وأعقب ذلك سكون تام، وكأن مواتاً ضرب حناجر الحريم والأطفال، ثم تردد صوتٌ مزعجٌ لكلب ينبح في الخارج، وتبادل رجال المنزل النظرات الخرساء، وتسلل فتى وأطفأ صوت الكلب بطريقة غامضة. ولاحظ مهدي هذه الحركة الأخيرة، وأعجبه حرصهم الشديد على تعزيز راحته، الأجراء في قرية يحرسون فقط على عدم إزعاج ملاك الأرض حين ينزلون في ضيافتهم، لكنها ضيافة إجبارية يدعو فيها المالك نفسه إلى منزل أجيره، بحجة أخذ حصته من الغلال والسمن، فيحشر الأجراء أطفالهم في غرفة بعيدة أو يلقون بهم في منزل أحد جيرانهم أو أقاربهم، إذ لا يتحتم أن يسمع المالك ما يكدره، وإن سمع صوتاً مزعجاً فإنه يصرخ في وجه الأجير طالباً منه أن يوقف هذا الصوت، وقد اضطر جاره معوض أن يشد خطم حماره بالحبل، عندما أزعج مالك حقوله مسعد قعشمي بالنهيق، وهو نفسه عندما أتى المراغة إلى منزله في أحد الأعوام أشار إلى امرأته بحاجبه أن تأخذ الديك بعيداً عن المنزل، إذ كان الخبيث على غير عادته يصيح وكأنه على مشارف الفجر، لكن عاتقة وهي الحمقاء الكبرى لم تفهم إشارته، حتى صاح المراغة بغضب شديد: "ما هذا الصوت

الفظ يا مهدي؟ هل تعمّدت أن تدع الديك يزعجني حتى لا أذوق طعامك؟"، فقام محتدماً إلى الديك وذبحه، وعاد برأسه إلى أمام المالك ليشرح عن نفسه التهمة، فانفجر ضحكاً، وادّعى أنه كان يمزح، وانتشر الخبر في القرية، وأصبح مثلاً يردده الأجراء لتهديد أي حيوان يزعجهم، وسمع بعضهم يهدد كبشه المتمرد بأن نهايته ستكون مثل نهاية ديك مهدي.

ذكريات كثيرة حدثت في الماضي، ولا تستحق أن تُذكر، وها هم هنا يخشون إزعاجه كما لو كان أحد ملاك الحقول المتعجرفين، لكنه غزير الأدب دون شك، لم يصرخ في وجوههم طالباً إيقاف الكلب عن النباح، وقد فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم.

حين اكتفى من الطعام، انتظر أن يأذنوا له أن يغادر إلى كوخه، غير أن الضيف ملزم بالبقاء للمقيل، وقد جلب الفتیان أغصان القات ليمضغها، ووضعت أمامه قلة باردة من الماء، وبدأ يأخذ منهم معلومات عن كيفية المضغ، هل يبتلعها أم يحشوها في فمه ويلوكها كالتيس؟ فاستغربوا من جهله، وطلبوا منه أن يفعل ما يفعلون وحسب، وأدرك أن المجلس سيمتلئ بالزوار، وهم لن يأتوا من أجله وحسب، بل يأتون كل أصيل لسماع الأخبار من مذياع الشيخ، وهم مجموعات من المعارف والأصدقاء ينتمون لقبيلة بني الحارث، ويحضرون كل مقيل، قاطعين ميلاً أو ميلين دون أن يملوا، فالشيخ هو كبيرهم ويُسمى "شيخ الدم"، وهذا يعني أنه يفصل

في أحكام القتل والديّات وإروش^{١٨} الجرحى، ويسرهم أن يسمعوا كلامه ورأيه في كثير من المشاكل التي تقابلهم، وما أكثرها! وقد أتوا وقت الأصيل متساقطين كالقطرات واحداً تلو الآخر، وجلبوا معهم خبراً سيئاً، فالضابط المجنون موسى البادي سار في ظهيرة ذلك اليوم إلى الغيل الأسود شاهراً سلاحه الكلاشنكوف، واستقبله المالك أحسن الباكري وأولاده بالترحاب، لكن الزوج الغاضب اتهمهم بسوء تربية ابنتهم ووصفها بالقحبة، ثم طلب منهم بخرسة أن يحضروها من مخبئها، وعندما أبدوا جهلهم بمكانها واعترضوا على أسلوبه السيئ في الحديث صبّ على أجسادهم الرصاص جميعاً، وولّى هارباً.

وتكدر الجميع وكان أكثرهم كدراً الشيخ وضيّفه، وكلاهما وجد مبرراً للحزن. وسقطت دمعتان وحيدتان من عيني الشيخ، وكان معينه نضب من الدموع، لكن منزلته تمنعه من الانتحاب كالنساء، وينبغي عليه أن يتصرف بحزم، فكتب للتو رسائل طارئة إلى جميع عشائر بني الحارث الممتدة من منطقة شعوب إلى مشارف قبيلة أرحب، وطلب منها الاجتماع في الصباح التالي بمنطقة الغيل الأسود، وأمسى طوال المقل غاضباً لا يجرؤ أحد على مخاطبته. فالفقيد هو صديقه العزيز، وقد قُتل وخمسة من أولاده الراشدين، بينما القاتل مازال طليقاً في صنعاء، وهو ضابط ذو سمعة سيئة، أودع مئات الأشخاص في السجون، وأعدم عشرات السجناء

^{١٨} مفردها إرش وهو مبلغ مالي يدفع كتأمين، ولا يجوز التصرف فيه إلا عند حصول مضاعفات في صحة الجريح.

بالرصاص الحي، وكثير من الناس يتمنون أن يشربوا من
دمه، ولكنه يتستّر خلف الثورة والثوار والمصريين، ويستغل
الفوضى التي يخلقها الصراع بين الملكيين والجمهوريين.
وأمسى الشيخ الوشاح ينتظر اليوم التالي بفارغ الصبر.

في الصباح باكراً ركب على ظهر حصان عجوز يملكه،
وقاده أولاده إلى منطقة الغيل الأسود، ووقف تحت منزل
صديقه المكلل بالفجيرة والنواح، وأمر عشيرة الباكري
بإيقاف نقيب النساء، لأنها تسبب له التشويش، فاستطاعوا أن
يكبحوا الأصوات الحزينة، وأخذ رجال قبيلة بني الحارث
يتوافدون بالعشرات والمئات، حتى غصّ المكان بخمسة
عشر ألف رجل، وكلهم مسلّحون ببنادق عتيقة لكنها لا
تخطئ الهدف، وهرعت ثلاث كتائب من الجنود المصريين
بعرباتهم وآلياتهم الثقيلة، ووقفوا بعيداً عن الاجتماع،
متمركزين بمداخل منطقة الغيل الأسود ومخارجها، وصعد
"شيخ الدم" إلى سطح منزل أحسن الباكري، ورفع عصاه،
فصمت الجميع وأنصتوا، وخنقته غصة شديدة في حلقه، ثم
استجمع كل قواه وبالكاد استطاع أن يقول بصعوبة:
- لن أغانر هذا المكان إلا برأس موسى البادي.

وردد رجال بني الحارث الكلمات الثلاث: "رأس موسى
البادي" بصوت واحد سمعه المشير السلال وأعضاء مجلس
قيادة الثورة المجتمعين في دار البشائر للنظر في القضية.

واهتزت صنعاء كلها، ودبَّ الهلع في نفوس الثوار من قيام ثورة داخلية مضادة، يحصد ثمارها الملكيون المكذِّسون على رؤوس الجبال المحيطة بصنعاء، وهم ينتظرون أي فرصة للانقضاض على الجمهورية الوليدة، ولن يترددوا عن جزّ رؤوس المعارضين فيما لو استعادوا سلطتهم، ومن ثم يعيدوا البلد إلى البرميل المقل. وهدد رئيس الوزراء بتقديم استقالته إن لم يُقبض على موسى البادي الثائر المزعج، فخرجت كتيبة مصرية وسرية من الشرطة المحلية وطوّقت منزل الإمام البدر، وقاومهم الضابط المتمرد بشراسة وقتل عدداً من الجنود، لكنهم في النهاية قبضوا عليه بعد أن نفذت رصاصاته وقنابله، وعُقدت من أجله محاكمة عسكرية مستعجلة، هي الأسرع في التاريخ، ولم يكن فيها جهة ادعاء أو محامين، بل ستة قضاة أشاوس من أعضاء المحكمة العسكرية، وهؤلاء وقفوا على الفناء الذي كان يُعدم فيه السجناء، وأمروا بوضع الضابط موسى البادي على الجدار، ثم أصدروا حكماً سريعاً بإعدامه رمياً بالرصاص، وقطع الجنود رأسه وساقوه إلى المحتجين في منطقة الغيل الأسود، فعلقوه على جدار منزل أحسن الباكري، وسرعان ما تفرّق رجال بني الحارث، وقفل الشيخ أحمد الوشاح عائداً إلى داره عند المغيب، وقد شُفي غليله.

كان مهدي وخليلة قد ذهبا عند غروب اليوم السابق إلى كوخ الحارس، وعثرا هناك على فرش متهالك ولحافين وحصائر

بالية ونافاذة خشبية وحيدة، يمكنهما النظر من خلالها إلى قلب مزرعة كبيرة من الكروم، بدت عناقيد العنب الأسود على أغصانها تتدلى كالغربان، وبالقرب كان هناك حوض ماء صغير، وكلب حراسة شرس أصفر مربوط بسلسلة إلى حجر مطحن ثقيل، وقد ظلّ ينبح على الساكنين الجديدين، اللذين جاءا ومعهما عشاءهما وطعامه. كان عليهما في البدء كسب ثقة الحيوان الثائر، فاقتربا وقطفا بعض العناقيد، وغسلاها بماء الحوض وأكلاها وهما يراقبان الشفق المتوهج، وزاد غضب الكلب وصار يشد السلسلة بقوة، ودنا مهدي منه حاملاً عشاءه بصحن أسود، فبدأ صوته يخفت وهو يرى صحنه المألوف، لكنه ظلّ متحفزاً، واستطاع الرجل أن يضع الصحن أمامه بحذر، ثم ارتد سريعاً مبعداً كفه عن أسنانه القاطعة المكشورة. تأملا الكلب الجائع وهو يتناول طعامه مزمجرأً، فاستعصى عليهما بعد ذلك أن يسكبا إلى صحنه الفارغ بعض الماء، واستمر مهدي واقفاً لا يجرؤ على الاقتراب، ثم طلب من خليلة أن تشاغل الكلب من الناحية الأخرى، فالتفت الحيوان إليها مستثاراً، وأثناء ذلك قفز مهدي وخطف الصحن، فارتد الكلب ناحيته ومزق مئزره من الخلف، وبالكاد استطاع أن ينزع القماش من أسنانه القوية، وصرخت خليلة بفجاعة، فأتى مُقبل نجل الشيخ مسرعاً، وصاح على الكلب أن يهدأ، ثم سكب له الماء وهو يقول: "إنهما ضيفان أيها البغيض".

وعندما التفت إلى مهدي ولمح ثوبه الممزق غضب بشدة، وضرب الكلب بعصا وجدها على الأرض فعوى وانزوى تحت سقف برميل مفتوح الجانبين يحميه من أشعة الشمس والمطر، وصار صاحبه يقذفه بالحجارة، فأمسك مهدي يده ومنعه عن إيذائه قائلاً بصوت متقطع:

- دع الكلب وشأنه.. أنا المذنب، كان بوسعه أن يعضني، لكنه لم يفعل.

- سأقتله لأنه مزق ملابسك.

- لا عليك، إنه كلب مخلص يزود عن أملاك سيده.

فانصرف مُقبل متجهماً، ودخل الرجل والمرأة الكوخ، وأضاءوا شمعة، وجلسا صامتين، ولاحظ مهدي أن خليعة شاردة تفكر، فقال لنفسه: "المسكينة لا تعلم بالمصيبة التي اجتثت والدها وإخوتها"، وحاول أن يبدو هادئاً وهو يقدم لها الخبر المفزع بالتقسيط، فقال ليثير انتباهها:

- هناك حادث مربع وقع في منطقة الغيل الأسود.

صاحت بنزق:

- لا تتحاذق، أنا أعلم أن موسى المجنون قتل أبي وإخوتي.

فغر مهدي فاه بذهول وبالكاد استطاع أن يقول بضعف:

- واااه، لا تبدين حزينة كما توقعت.

- أتريدني أن أنتحب أمامك الآن وأتمرغ في التراب؟

- لا، لكننا نحزن ونبكي عندما نفقد من نحبهم.

- لكني لا أحبهم، لقد جنوا على أنفسهم عندما زوّجوني بموسى رغماً عني.

- لا تكوني حقودة، أمسيت أخاف منك.

انفجرت باكية وتشبثت به ومضت تقول بصوت متقطع:

- أتريد أن تتخلى عني أنت أيضاً؟ لم يعد لي أحد غيرك.

- اذهبي إلى أهلك، لا ترتبني بفلاح فقير مثلي.. مازلت شابة...

- لا أريد أن أدوس منطقة الغيل الأسود ثانية، عشيرتي غاضبة وأهلي كذلك، لن ينظر أحد إلى وجهي، وما زال لدي أخ يافع، ولن يتردد عن قتلي.

تنهدت وتابعت:

- هكذا يفعل أهل صنعاء مع أي امرأة يفتضح أمرها، وهؤلاء وأولئك يتصارعون على قصور الإمام، لا أحد ينظر إلى ما يدور في الأسفل، لن يأبهوا بامرأة يذبحها أهلها كالنعجة.

- سيكون غريباً أن أعود بك إلى القرية، ماذا أقول للوجيه قحطان الذرب والقرويين وامراتي عاتقة؟

- خذني بعيداً عن صنعاء، ثم ارمني على قارعة الطريق، وإن تشأ أزوّجك نفسي، لن تجد عرضاً أفضل من هذا.

- لا أدري.. هل نستطيع الخروج من صنعاء، أم نحتاج إلى دليل؟

- بل نحتاج دليلاً يأخذنا عبر طرقات غير مألوفة، لأن العشيّرة تبحث عني لا ريب.

- أخشى أن يرتاب الشيخ بشأننا.

هزّت رأسها موافقة، ومكثت بعض الوقت صامتة، ثم سمعت طرقاً خفيفاً على الباب، وهمساً خافتاً، وعرفاً صوت مقبل، وسرعان ما قذف للضيف منيراً بدلاً عن منزره الممزق، ونصحهما أن يطفئا الشمعة ويتوقفا عن الكلام، لأن الحارس السابق كان يبيت وحيداً في الظلام، وعاد أدراجه حافي القدمين، وهو يتلفت حوله بحذر. بدا تصرفه طبيعياً ومفهوماً، لأنهم يعيشون قريباً من المعسكر، وتحركاتهم تثير ظنون الدوريات وجنود الحراسة، ويمكن أن يتعرّضوا لإطلاق نار فيما لو ساروا بمشعل، ومع ذلك لم يفعلوا بنصيحته، وأخذا يتحدثان ويضحكان بخفوت، وبعد لحظات سمعا أصوات الجنود المصريين: "أنتم الذين بالكوخ، ارفعوا أيديكم واطرحوا سريعاً". شعرا بالذعر، وكره مهدي نفسه لأنه رجل، إذ يتحتم عليه أن يظهر أمام الجنود أولاً، لكنه مكث متجمّداً بموضعه، فنظرت إليه خليلة بعينين حادتين، وقالت:

- انظر ماذا يريدون!

- أخشى أن يطلقوا عليّ النار.

دفعته بيديها قائلة باستنكار:

- أنت الرجل هنا وليس أنا. إن لم نخرج سيفجّرون الكوخ.

- اللعنة على الرجال.

فكّ الباب وخرج رافعاً يديه في الهواء. كانت أضواء المصابيح تكاد تخطف بصره، ومع ذلك رأى البنادق الروسية الصنع مصوّبة باتجاهه، وصاح أحدهم بلكنة مصرية مميزة: "تقدّم.. قف هنا".

انتصب حيث أشار الجندي، فدنا منه أحدهم وفتشه، وسأله آخر بنبرات حادة:

- ماذا تفعل في الكوخ؟

- أحرس المزرعة.

ودخل الجنود وأخرجوا خلية وفتشوها، وجعلوا أيديهم تتجوّل كثيراً في صدرها ووسطها، ونال ردفاها المكورين النصيب الأوفر أيضاً، وثارت غيرة مهدي وتأوه بدهشة وقال بنبرات جريئة: "وااه، ماذا تفعلون؟ أتدركون إن تفتيش النساء معيب في هذا البلد؟".

أبعدوا أيديهم عنها، وفتشوا الكوخ ورموا أغراضهم إلى الخارج، ثم فتحو حقيبة خلية ونظروا فيها وحملقوا مندھشين، واحتفظوا بها وأوشكوا على ركوب العربة، فصرخت بحنق:

- أعيديا مصاغي ومالي وإلا شكوتكم للواء عبدالحكيم عامر،
أستطيع أن أعرف صوركم.

نظروا إلى بعضهم، ثم رموا الحقيبة وانصرفوا.

قال مهدي بعجب وهو يساعدها في جمع الأشياء المتناثرة:

- لقد فزعوا حين ذكرت اسم هذا الرجل.

- إنه قائد مصري كبير، وكنت أسمع موسى يتكلم عنه.

- كيف يسمحون لأنفسهم بفعل هذا؟

- إنهم أكثر لطفاً من موسى وجنوده، أظنهم كانوا سيعدموننا

قرب الكوخ، كما ترى نحن نسكن قرب معسكرهم، وأسمع

أن الملكيين يتسللون ويتصيّدونهم مستغلين كثافة مزارع

العنب.

- أرايت كيف عبثوا بجسدك! أم أنك ممتنة لما فعلوا؟

أجابته ضاحكة:

- لم أحب طريقتهم في التفتيش، ومع ذلك أنا ممتنة منهم لأنهم

أثاروا غيرتك عليّ.

- كُفّي عن امتنانك، ألا تدركين أن تفتيش النساء مشين في

تقاليدنا؟

- أنت قروي ساذج، لقد فعل موسى ورفاقه بالنساء ما أستحي

أن أشرحه لك. ماذا تتوقع من شخص يقتل الناس؟ سيكون

اغتصاب نساءهم أصغر ذنوبه!

- بل أكبر ذنوبه، لو كنت أعلم بأفعاله لقتلته بنفسي وهو نائم.

- ولكنك قتلته فعلاً، لقد خطفت منه امرأته الصغيرة،

فتصرف بحماقة أدت إلى مقتله.. يا لك من قروي شرير!

- أنتعمدين أن تثيري غضبي؟ أرجوك، لا تذكريني بذنبي.

- بل هو حظ وافر.. دعني أمزح معك يا مهدي، فقد كنت

أعيش مع رجل لا يبتسم.

- هيا بنا ندخل، أخشى أن يعود الجنود، لم أعد أطيق البقاء

في هذا الكوخ.

قضيا ليلة ممتعة وسط ظلام حالك، يأكلان عناقيد العنب

ويتكلمان بصوت خافت، حتى الكلب هدأ، ولم

يعد ينبح. كانت تصل إليهما أصوات مولدات المعسكر

الكهربائية البعيدة خافتة، وكذلك أضواء العربات وهديرها

المتقطع، وهي تجوب الطرقات القريبة باحثة عن المتسللين.

ناما نوماً يشوبه القلق، وفي الصباح خرجا وغسلا وجهيهما

بمياه الحوض الباردة، وبعد أن زالت عن عيني مهدي غشاوة

النوم، اقترب من مأوى الكلب، وراه مستلقٍ واضعاً رأسه

بين يديه، وإلى جواره أشلاء دجاجة مأكولة تناثر ريشها

حول البرميل، وتعجب أن يكون خاملاً إلى هذه الدرجة،

فأصدر صفيراً ولم يستيقظ الحيوان، وسمع خيلة تهمس

بفجيرة:

- إنه ميت.

- رباه، هذا طالع شؤم آخر.

- دعك من الشؤم أيها القروي، لقد قتله أصحابه.

- ماذا؟ أيكون مقبل قد وضع له سماً؟ لم أكن أظنه جاداً.

- نعم، لقد قتله لأنه مزق ثوبك، وهذا الذي تلبسه أجمل منزر يملكه الشيخ.

نظر إلى الثوب، فألفاه قشيباً ناصعاً ولم يأبه لانحساره إلى أسفل ركبتيه، فالثياب القصيرة غدت موضحة في صنعاء، فقال بصوت واهٍ:

- أظن موته سيجرّ لنا ولأصحابه المتاعب، لا تقولي شيئاً قبل أن أحكي لك ما حدث في قرיתי عندما كنت راعياً.
وحكى لها عما دار في قرية سحمر آنذاك.

ذات عام ظهرت بعض الضباع تجوب التلال المحيطة، وتغزو أطراف القرية، كانت تأكل الجلود اليابسة والجيف، ولا تؤذي أحداً، لكن البعض ادّعى أنها أكلت كلبه، وآخر زعم أنها تهدد ماشيته، وتوشك أن تقتلع باب زريبتة، كان كلاماً مبالغاً فيه، إذ كان بعض كبار السن يزعمون أنهم عاشوا مع الحيوانات البرية، ولم يؤذ أي منهم الآخر، بل يؤكدون أن حضورها يبشر بالخير. كانت هنالك أنثى ضبع لديها بضع جراء، رآها عندما كان يرعى في التل، وهي تدخل مع صغارها وكرأ بعيداً عن القرية، وأفشى السر لرفاقه، فطلبوا منه أن يرافقهم لمطاردتها وقتلها، واتفقوا أن

يتم الهجوم عليها في اليوم التالي عندما يتناول الأهالي
غداءهم. وفي الصباح تظاهر بالمرض الشديد ما جعل أخته
تسوق الأغنام إلى المرعى عوضاً عنه، وعند الغداء ظهر
متعافياً، وأخذ يتناول طعامه على عجل. كان أصدقاؤه قد
سرقوا زيتاً من منازلهم وينتظرونه خارج القرية، فأتار
تصرفه هذا شكوك أمه "تقية" التي مازالت تحسبه عليلاً،
كانت أرملة قاسية ضخمة قوية المفاصل، زنداها بحجم ساق
شجرة مشمش، وقد أحست بغريزتها أنه تعلق بالمرض،
ويريد أن يغادر المنزل ليقوم بعمل سيء، فشددت شعر رأسه
وجذبتة إليها بعنف، وسألته عما يدفعه للاستعجال والخروج
من المنزل وهو مريض، ثم أطلقت صرختها المجلجلة حتى
تساقطت بعض الأشياء من أرفف النوافذ، وقالت إنها تستطيع
كشف كذبه من عينيه، وتعرف أن هناك سراً خبيثاً في
أعماقه، وإن لم يبيح بما يخفيه ستكسر رقبته.

كان يعلم إن أمه تستطيع أن تقصف رقبة ثور جامح، وراها
وهي تشمر ساعديها المتينين، ثم مدّت كفها القوي المتشنج
إلى حلقه، فانهار وأخبرها أنه ورفاقه كانوا في طريقهم
لإحراق أنثى الضبع وصغارها في تل بعيد خلف المكرا،
وهنا سددت له صفة أسالت الدم من أنفه، وجعلته دائخاً
بعض الوقت، وأخذت عصا كبيرة وخرجت تصرخ في
أرجاء القرية كعرّافة: "يا أهالي سحمر، أنقذوا أنثى الضبع،
فتيانكم خرجوا لإحراقها وصغارها، سيحلُّ بنا النكال.. سيحلُّ
بنا الوبال.."، وراحت تضرب أبواب المنازل بقوة وكأنما

مسّها الجنون، فخرج كبار السن غاضبين، ودفعوا أولادهم الراشدين إلى الإسراع للحاق بالفتيان الأشقياء، وتبعوهم بأقصى ما يستطيعون، ولم يجلس في القرية صغير ولا كبير، وخرج هو معهم بوجه منتفخ متحاشياً الالتقاء بأمه في الطريق. كان كثير من الرجال المسنين مضطربين يرتجفون بخوف، وسمع بعض الشبان المستهترين الذين جاؤوا للفرجة يرددون بعجب: "لِمَ كل هذا الجزع والضجيج! أمن أجل حيوان وبعض الجراء؟ لقد بلغ كبار السن مرحلة الخرف".

وعندما وصل الرجال إلى المكان، كان الوكر مشتعلًا والدخان يتصاعد عاليًا من فوهته، فأخمدوا النيران المشتعلة بمعاطفهم، لكنهم وجدوا الحيوان ميتاً وصغاره، ووقفوا واجمين. وحين وصل كبار السن، ورأوا المشهد نتفوا لحاهم، وذرفوا الدموع الغزيرة، وشخصوا إلى زوايا السماء الأربع بأسى. كان الجو صافياً حاراً في ذلك الخريف، والأشجار عارية من الأوراق، مما يبعث على الحزن. احتشدت النساء قرب الوكر، ونظرن إلى صغار الأنثى بشفقة، أربعة جراء نافقة والأنثى فاغرة فاها وكأنها كانت تستغيث. لطمت تقيّة وجهها وصاحت بصوت غاضب سمعه الجميع، وجعلت تجيل بصرها في المكان علّها تجد أحد المذنبين، فتوارى هو خلف الناس، ثم ابتعد عن عينيها حتى لا تسحقه في لحظة هياجها.

عاد الجميع إلى القرية متأثرين، وعاقب بعضهم فتاه على فعلته والبعض لم يفعل، وحبسته أمه في الزريبة قرب البهائم

يومين كاملين، وتعرض للرفس من الحمار، ونطحته البقرة حتى كادت أن تحطم ضلوعه، وجعل العجل الصغير يتمسح به وينطّ قربه مستغرباً من وجوده في الزريبة. ولم يخرج إلا بشفاعة وجيه القرية، وظلت أمه تبحث عن الفتیان المذنبين لتعاقبهم، فكانوا يبتعدون عن طريقها، ولا يجرؤون على السير قرب منزلها حتى ماتت.

مرت تلك السنة بقحط شديد، ولم تنبت للناس حبة واحدة، وأكلوا ما لا يؤكل، وتلتها الثانية والثالثة، وحاربتهم الطبيعة بكل ما أوتيت من قوة، فكان المطر ينزل على القرى المجاورة، ويتجاهلهم راسماً حولهم دائرة صحر رهيبية، ونفق كثير من الأطفال جوعاً، والتصقت جلود الناس بعضهم، وماتت أمه وأخته في تلك الأعوام الرهيبية، وبقي هو شاهداً، وظنّ معظم الأهالي أن أنثى الضبع انتقمت لصغارها من الجميع. ومنذ ذلك التاريخ لم يؤذ مهدي حيواناً أو إنساناً قط. تأثرت خلية بالقصة، وتملكها بعض الخوف، ثم أفصحت له أن ما حدث في قريتهم لا يمكن أن يتكرر هنا، فهذا مجرد كلب، ودائماً يقتل الناس الكلاب المؤذية والمريضة دون أن يحدث شيء ما، وما يصيب البلاد من اقتتال له أسباب أخرى، ولا يعقل أن يكون قتلهم للحيوانات هو السبب، وأوشك أن يسرد لها حكاية بربر وكلبه المخلص، لكنها توسلت إليه أن يعفيها من ذلك، لأن هذه القصص تحرق قلبها، ووعدته ألا تؤذي حيواناً، وهي لم تفعل ذلك من قبل، لكنها لم تكن تبالي بمصائر الكلاب، ولا تظن أن قتلها قد

يجرّ إلى عواقب وخيمة، وقد رأت بعينيها وهي طفلة كيف كان جنود لواء صنعاء يقيمون حملات قتل جماعية للكلاب الضالة كل سنة، وقد رأتهم في الغيل الأسود يمسون بالكلاب، ويقصمون ظهورها بالأحجار الكبيرة، ثم يسحبونها ويرمونها بعيداً عن الأحياء. ثم سكتت متضايقه، وقالت في سرها بغضب: " لن أدع هذا القروي يؤثر في نفسي ويزرع فيها الشك واليقين والمخاوف، إنه طيب ومحبوب، ولكنه متشائم ويهول الأمور كثيراً...".

وقال مهدي وهو يراها شارده:

- تبدين مكتئبة، لا عليك، أنا أهول الأمور، والعيش معي صعب للغاية.

- بل تحاول أن تخيفني وتصرفني عن رفقتك أيها الماكر.

وأخفت ابتسامتها، فقد اقتربا من منزل الشيخ، ويجب أن تراعي مشاعر سكانه، ولن يسامحوها لو يدركون من تكون، حتى مهدي نظر إليها بتجهّم، وكان لسان حاله يقول إن ابتسامها لا يليق، لأن والدها وإخوتها لم يُدفنوا بعد، فامتثلت للتقاليد، وشحنت وجهها بتعبير حزين، واتجه كل منهما إلى الموضع المخصص له في المنزل.

كان الشيخ يلبس معطفاً أسود، متأهباً ليدفن القتلى من آل الباكري. خرج مستعيناً بأجساد أولاده المطيعين، ولم يجرؤ مهدي أن يعتب عليهم على قتل الكلب كما كان قد أزمع. لن يفهموا شيئاً مما يدور في ذهنه، حتى وإن روى لهم ما حدث للقرية بعد موت الضباع. خرج مع خليعة وهما يتحدثان عن الموت والمصائب، وتوسم منها أن تلقي نظرة على جثمان والدها قبل دفنه كما يفعل الأبناء الطيبون، لكنها ردت عليه بحنق إنها لم تكن متأهبة لتراهم أحياء خوفاً من خناجرهم، فكيف تراهم موتى صامتين! وركدت في حلقها غصة مؤلمة، وصرخت بصوت مختنق: "أرجوك توقف، لا تتغص حياتي، أظن نفسك ضليعاً بكل شيء؟" وركضت إلى الكوخ.

وفكر في أنه فعلاً جالبٌ للنكد، ويحمل في نفسه نرجسية جاهل لا يسمع إلا صوته، وعجرفة خطيب جمعة يتحدث عن الأخلاق والآداب بصوت صاخب يؤلم الأذان، ثم ينبهه شخص ما أن ارتفاع صوته ينم عن فقدانه لأدب الحديث.. شيء كهذا دار في ذهن مهدي، وهو رجل قروي بسيط عاش أجيراً، ولا يفكر بحساسية وعمق فلسفي، لكنه شخص مجرب وصبور، ويرد اللوم على نفسه دائماً، حتى إن كان يظن أنه على صواب، لذا لحق بها حثيثاً وربت على كتفيها، وجعل يهددها كطفل رضيع، فارتمت في حضنه ولم يمانع، بل شعر بسكينة مريحة.

هذه الشابة التي كان ينبغي أن تكون ابنته، أضحت بلا عائلة، فقدت كل شيء يربطها بماضيها، وتريد أن تغير جلدتها كما

تفعل الأفاعي، لكل شخص الحق في اختيار حياته بالطريقة التي تناسبه، لكنه غير موقن بما ينبغي عليه أن يفعل، نفسه تسوّل له أن يأخذ هذه المرأة الشابة، لكن القرويين وعاتقة وجوهرة وعشيرة الباكري عوائق كبيرة، وفي حال قبضوا عليه لن يدعوه يفلت من أيديهم، سيُتهم بالاختطاف. لقد صار له أكثر من غريم، وبعيداً عن هؤلاء وأولئك، هو نفسه غير مقتنع من أعماقه. بوسعه أن يتجاهل كل الأخطار واللوم. لم يعد يخشى شيئاً سوى نفسه، لأنها لا تكف عن تعذيبه، ولا يدري هل يستطيع أن يدعها تذهب فيما لو طلبت مفارقتها؟ إنه يدّعي التعقل ويحثّها أن تعود إلى الغيل الأسود، هذا فقط لأنها تطلب منه البقاء إلى جانبه، لكنها امرأة غريبة، نعم، امرأة تهبه نفسها، إنها حقيقة ماثلة أمامه وليست خيالاً، يمكنه أن يعود بحصان أو سيارة أو أي شيء غريب عن الناس، ولن يكون هذا غريباً بالنسبة له، أما أن يعود بامرأة جميلة تلمع كالجوهرة، فإن هذا أمر لم يسمع بمثله البتة، ولا يحدث في الأحلام السعيدة، رجل في سنه لم يعد يحلم بشيء كهذا، يخشى أن تندم في يوم ما على قرارها الطائش بمرافقته. ألم تجد شاباً تلتصق به؟ أتريد أن تتخذة أباً أم زوجاً؟ من المخجل أن يلقي عليها هذا السؤال، ومع ذلك ينبغي أن يكون على دراية بما يعتمل في رأسها. هل هي واعية بما تفعله أم لا؟ لم يعد هناك سوى يوم واحد قبل أن يغادرا هذا المنزل.

وانتظر مهدي حتى مسحت عينيها بقماش كمّها، وقال لها بصوت أراد أن يكون هادئاً:

- بقي يوم واحد، أتريدين مرافقتي حقاً؟

- نعم.

- ما يغريك بقروي مثلي؟

- لا أدري، لكني أريد أن أبتعد عن صنعاء.

- أتريدين أن تكوني ابنتي؟

صرخت بغضب:

- ابنتك؟ ما هذا الكلام الفارغ؟ ألا تدرك ماذا نفعل؟

- أترغبين أن نتزوج إذن؟

- إن شئت، يكون هذا أفضل.

- في الحقيقة بوسعي أن أفرح، جوهرة وفازعة لا تساويان شيئاً، أنت هبة جميلة لم أحلم بالحصول عليها يوماً ولكن...

- ولكن ماذا؟

- لا أدري.. في الغد أخفيك بين ثيابي وأهرب بك وليكن ما يكن.

فرحت بشدة، وتضرّجت وجنتاها بالخجل، وقالت بخفوت:

- لم أسمع أحداً قبلك يقول لي بأني جميلة.

- لو كنت قبيحة لن أجد في نفسي تأنيباً، ولن ألقى لوماً أو حسداً من القرويين.

مكثا يتحدثان حتى استدعيا للغداء، وأحس بألم فراقها حين
اختفت في قسم الحريم، فجلس قلقاً، وشعر أن الوقت يمر
ببطء، ثم تناول أغصان القات، وهو يفكر لو يستطيع أن
يدعو خليلة ويذهبان للمقيل في الكوخ، لكنه صار محل
اهتمام الشيخ المسنّ والمقيلين، تحدّثوا بشؤون شتى، وأغلب
الحديث دار حول صديقه المرحوم وأولاده، ثم أعلنوا عن
قضية غامضة مازالت تؤرّقهم، وهي اختفاء ابنة المرحوم
أحسن الباكري، ما زالت عشيرتها تبحث عنها، هناك من
يظن أن زوجها قتلها وأخفى جثتها في مكان ما، والبعض
يقول إنها هربت مع شاب كان يزورها دون علم زوجها،
وإنهما الآن بمنطقة صحراوية يعيشان في كنف أحد مشايخ
البدو الذين لا يغدرون بمن يستجير بهم. وتعجّب مهدي كيف
لا يرتابون بالمرأة التي إلى جانبه، لعلهم لم يتوقعوا أن تلوذ
بمنزل غير بعيد عن الغيل الأسود، لاسيما منزل صديق
والدها وشيخ الدم في بني الحارث، فضلاً عن أن مهدي
رجل كبير راشد، لا يلفت الانتباه.

وتشاغلوا قليلاً بالمذيع الذي يبثّ عدداً من القنوات
الإخبارية، فقد اعتاد المقيلون على سماع الأخبار بعد كل
عصر في تمام الساعة الرابعة. استمعوا إلى إذاعة صوت
العرب التي تبث من بريطانيا، إذ صارت هي المفضّلة لدى
الشيخ. أصغوا إلى صوت المذيع المُجلجل، وهو يتحدّث عن
معلومات مسرّبة عن سبب تحطّم مروحيّتين بريطانيّتين فوق
خليج عدن قبل أسبوعين، إذ كانت إحداهما تحمل كراتين من

المقتنيات الأثرية تم تهريبها من منطقة تقع غرب مدينة يريم، ويعتقد محللون في سلامة النقل الجوي البريطاني الذين فحصوا حطام الطائرة أن الحمولة كانت تشكّل وزناً كبيراً، ما أدى إلى تعطل محركاتها وسقوطها فوق المياه، وأما الطائرة الأخرى فقد سقطت فوق جبل "حديد" المطل على مدينة عدن، ولقي رجل الأعمال البريطاني الشهير جيمي دابيري مصرعه وعدد من حُرّاسه، ويعتقد أن هناك قنبلة زرعتها الجبهة الوطنية الشعبية في الطائرة قبل إقلاعها، وما زال البحث جارياً لمعرفة سبب الحادث، وأفادت بعض المصادر عن الناطق العسكري لقوات الانتداب البريطانية في عدن أن عميلاً للاستخبارات البريطانية ويدعى جميل المنشاوي قد اختفى مع جنديين وعامل محلي بينما كانوا عائدين من جولة تنقيب، وبمعيّتهم شاحنة نقل محمّلة بعتاد حربي قديم تمّ العثور عليه في منطقة غرب مدينة يريم، حين كانوا في طريقهم إلى صنعاء، وقد انقطعت إشارة الاتصال بهم إثر كمين نصبه المتمرّدون الملكيون لهم بمنطقة قاع القيسي، كما يُعتقد أنهم قُتلوا أو أُسروا، وكل هذه الحوادث وقعت في يوم واحد، بينما تجزم سلطات الانتداب البريطانية بأن كل حادث منفصل عن الآخر.

من جهة أخرى كانت القوات المصرية المرابطة في صنعاء قد كشفت أن طائراتها ضربت شاحنة نقل استولى عليها الملكيون شمال نقييل يسلح، ويُعتقد أنها هي الشاحنة التي كانت تحمل العتاد الأثري، وتنفي السلطات المصرية أن

يكون هنالك أي عميل مصري يعمل لصالح البريطانيين أو يقوم بتهريب الآثار المحلية، وأن هذا مجرد شائعة يقصد بها تفويض دور مصر الداعم للأقطار العربية على التحرر من قوى الرجعية والاستعمار الخارجي، وإثر هذه التسريبات أقال المستشار العسكري للرئيس المصري الفريق عبدالحكيم عامر جميع قادة القوات المصرية في اليمن من مناصبهم... وسنوافيكم حين تتوفر أنباء جديدة عن الحادث.

أوشك مهدي أن يصرخ. أنا هو ذلك العامل المحلي، أعرف ما دار، يا للأسف، تحطمت الآثار، إنها النبوءة التي تحدت عنها كبار السن.. جمال المنشاوي، هذا اسمه، اللعنة عليه، سرق الكنز، كميات ضخمة لا تقدر بثمن ذهبت سدى، لا ينكشف إلا ما يتحطم، فيذاع سره.. آه كم كنت مغفلاً، كم كنت محظوظاً! أنا وحدي أعرف. لدي سر الآثار، لا أحد يدرك أنني هنا حيّ، حمداً لله.

خرج المقيلون قبل الغروب، لأن الأوضاع لا تسمح لهم بالمرور متى شاؤوا، وحظر التجوال يبدأ في ساعة مبكرة من المساء، ونهض الشيخ ومن معه للصلاة، واقتدى مهدي بهم، إذ أدرك أن الرجل المسنّ يتقرب إلى الله طمعاً في مرضاته، وقد نصحه أن يصلي لكي يكون ضيفه في الجنة أيضاً، لأن الأشخاص الذين يصلون جماعة يدخلون الفردوس معاً، فلا يعقل أن يجتمع شخص من الغرب وآخر من الشرق، بل يكون المرء ومن يحبهم مجتمعين على الأرائك

ينظرون، وتأثر مهدي بالموعة رغم عدم إيمانه العميق بكلام الشيخ، لقد نسي ما حفظ من القرآن في صغره، وشرذ عقله أثناء الصلاة إلى المذياح، فكَر في اقتناء واحد يجلب له الأخبار، سيكون أول رجل في القرية يملك هذا الشيء، سيحفون حوله، ويأتون من كل القرى المحيطة، وهذا سيكلفه بعض النفقات، إذ قد يأتي بعض الملاك أيضاً، ولن يستطيع أن يدعهم بلا قهوة، وسيشربون كوز الماء البارد الخاص به، وسيمزقون البسط واللحف القليلة المتبقية لديه، فأجساد القرويين خشنة، ويصدرون الضوضاء، وإن أتوا في المساء سيطيلون إقامتهم إلى ساعة متأخرة، وهو يريد أن ينام، وعاتقة لن تحتل الضوضاء، إنها نزقة فيما يخص منزلها، وتريد أن تنهض قرب الفجر، وليس بعيداً أن تتذمر منهم أو حتى تطردهم، بل هي مجنونة ولن تتسامح مع نفسها، ومن ثم ستتحول الحياة إلى خزي لا يغتفر. ولن يسكت المطرودون، سيشكلون جبهة من التحدي تقض مضجع صاحب المنزل الذي طردهم. يطردنا من أجل مذياح رخيص الثمن وكاذب، إنه يبث الأغاني الخليعة، وسيحوّل الناس في ظرف أيام قلائل إلى منحرفين وكسالي، ولن يعمل أحد في الحقول، لن يبكروا نشيطين بفعل السهر والمجون، سينامون إلى الظهيرة. سيطالب الملاك بالتخلص من هذا ال شيء الماسخ، ووجيه القرية نفسه سيهشمه على الأرض درءاً للشقاق والشبهات. لذلك ينبغي أن يخفيه في مكان آمن، يتحتم أن يغلق باب حجرته من الداخل ويخفض صوته، ويسمع الأخبار وحده. لن يخبر أحداً بسرّه، حتى عاتقة لا يجب أن

تعرف، فهي امرأة، والمرأة كما يقول المثل مثل الغربال، لا تحتفظ بشيء داخلها إلا بأسرارها القديمة المخجلة، وهي لن تستغرب بقاءه وحده في حجرته، لحسن الحظ إنها تظن أنه شبه مجنون، وتتوقع أن يفعل أي شيء غير طبيعي، وهذا من مزايا الجنون.

وأنهى صلاته بالتسليم، ثم انتحى جانباً، وهو مخدر بأمل ابتياع مذياع جديد. أين بوسعه الحصول عليه؟ والتفت ورأى المذياع قرب موضع الشيخ يقف بشموخ على مسند خشبي، فاقترب منه بحذر وأخذ يتأمله، ولمحه الشيخ على ضوء الشموع، وقال بحزم:

- إنه لك. أعرف أنه أعجبك.

- لن أخذه من منزلك، أريد أن أبتاع واحداً مثله.

- يسعدني أن أهبك إياه يا ضيفي، والهبة كما تعلم لا ترد.

أخذه بخجل، وغادر مع خليعة إلى الكوخ، مخفياً الجهاز وكأنه يحمل شيئاً محظوراً، ولم تعبأ خليعة في البدء. فقد امتلكت مذياعاً في منزل موسى البادي، ولم يستطع أن يؤنسها حتى صارت لا تلقي له بالاً. لكنها، حين رأت مهدي منصرفاً عنها إلى المذياع، أدركت أن هذا هو عدوها الأول، إذ لا ينبغي أن يتركها لأجل شيء سخيف كهذا. إنه يصغي إلى أشخاص مستورين لا يراهم ولا يعرفهم، بينما هي إنسانة من لحم ودم جالسة بجانبه ولا تدري ماذا تفعل. هل سئم منها يا ترى؟ تريده أن يؤانسها لتتخطى محنتها، لكنه مشغول

عنها بهذا الشيء البغيض.. ظلت تتأمله بغیظ وهو یعبث
بمفتاح الموجات الإذاعیة، وفجأة انطلق صوت عالٍ،
فاختطفت الراديو من یده، وضربتہ على الجدار الصلب،
فتطايرت أجزاءه، وشهق مهدي مذعوراً، وصار ينظر إليها
بحزن، فقالت بغضب مبررة تصرفها:

- أتريد أن يأتي الجنود ويغتصبونني أمام عينيك؟

- لا أظن الجنود يأتون، لماذا فعلت ذلك؟

- ألا تدرك أن أي ضوضاء سوف تلفت انتباههم؟ ثم إن
وجود شيء يتكلم هنا سيثير شكوكهم.

- يا خسارة، لم أسمع شيئاً بعد.

- لا تتحسر، هناك آلاف منه في الأسواق، إنه من ثمار
الثورة الجديدة.

- أريد شيئاً يسليني هذه الليلة، اشتقت للقرية والليل طويل جداً
في صنعاء.

- هل مللت مني أيها العجوز؟

وقفزت فوقه، وضحكا بمرح، وأخذا يتداعبان بصمت حتى لا
يقلقا سكينة الجنود.

وفي لحظة من الليل أفاقا على صوت إطلاق نار كثيف،
واهتز الكوخ إثر دوي قذائف مدفع، وتشبّث كل منهما
بالآخر، ولم يجرؤا على الحركة، وشعرا كأن معركة تدور
في الجوار، وبعد قليل سمعا صراخ الجنود وهدير سيارات

تعبر قرب الكوخ بسرعة كبيرة، ثم أتى الصوت الرهيب:
"سَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَخْرَجُوا مِنَ الْكُوخِ حَالًا".

وقبل أن يفتحا تحطّم الباب الصغير، وسُلّطت عليهما
الأضواء، وظهر الجنود وجذبوهما بقسوة إلى الخارج، واقتيد
مهدي كالمجرم، بينما حمل جندي ضخم خليعة تحت إبطه
كطفلة صغيرة، فأخذت تصارع للإفلات دون جدوى،
وقادوهما إلى قرب منزل الشيخ، وهناك رأى مهدي خلال
أضواء كشافات السيارات جنديين مصريين غائصين بالدماء،
وسألهما الجنود والصفعات ترتطم بوجهيهما: "هل خططما
لهذه العملية؟".

أجاب مهدي مدارياً وجهه الملتهب بيده: "لا نعرف شيئاً،
نحن ضيفان عند الشيخ.. صدّقوني".

وهبطت عليهما الركلات الشديدة، والمرأة تصرخ باسترحام
وتبكي، وفجأة خرج جنود آخرون ممسكين بالشيخ وأولاده،
وجذبه الجندي القاسي المتخصص بالصفع، ورفع وجهه
المنحني ليصفعه فنهره الضابط قائلاً:

- لا تضربه، سيموت بأول صفة.

- إننا ضيفان عند الشيخ.

وفرّ الشيخ حين سمع صوت مهدي وصاح قائلاً بسخط:

- ماذا تفعلون يا أنذال؟ لا تؤذوا الضيفين، أتدركون أنكم
تهينون قبيلة بني الحارث؟

صرخ الضابط في وجهه بنزق:

- كيف يُقتل جنديان عند ركن دارك ويخطف المتمردون
شاحنة سلاح دون أن تشعر؟

- لا أعرف شيئاً، كما ترى أنا مزارع عنب ولست مكلفاً
بحراسة شاحناتكم وجنودكم.

- خذوهم إلى السجن.

قذفت خلية حقيبتها إلى النساء الواقفات بحزن قرب مدخل
الدار، كنّ يتفرجن بصمت كاتمات شهقات البكاء بأطرافهن
المخضبة بالحناء، دون أن يجرؤن على رفع أصواتهن،
فالبكاء على مسمع الرجال الغرباء أمر معيب، وسرعان ما
اقتيد مهدي وخليلة بعيداً على صندوق شاحنة صغيرة،
وتلاشت أطياف المزارع عن أعينهم، وغاصوا وسط شوارع
ترابية مظلمة، حتى انتهوا إلى فناء معسكر كبير بمنطقة
العرضي، توقفت شاحنتهم أمام بناء طويل مستطيل مُسيج
بأسلاك وحواجز. استقبلهم هناك ضباط مصريون، وجنود
يمسكون سلاسل كلاب شرسة أسرع نحوهم لتنهشهم،
دفعهم الجنود خارج القفص، وجذبوا الشيخ بفضاظة غير
متوقعة، متجاهلين مكانته وسنه، وأخذوا خلية بعيداً عنهم.

-15-

كان المحقق ضابطاً برتبة ملازم أول، خبيث النظرات يرتدي نظارة طبية بدت غريبة على زيّه العسكري، وكأنه أصيب بضعف النظر بعد تخرّجه من كليته العسكرية، أو في هذا البلد العتيق. جلس على كرسي خشبي ممسكاً بقلم حبر غريب الشكل، وأمامه ورق أصفر باهت.

أوقف المتهمون مقابله يحيط بهم الجنود والكلاب. كان الشيخ منحنيّاً يكاد رأسه الأشيب أن يلمس سطح الطاولة المدهونة بطلاء زيتي فاقع، وبدأ التحقيق، الاسم، العمر، العمل، المؤهل الدراسي، ومكان الإقامة، وجاء ضابط برتبة مقدّم يبدو رفيع الشأن، ووقف الضابط الصغير احتراماً ضارباً قدمه على الأرض. رمى القادم جسده على مقعد مجاور مبطن بالجلد، وأخذ يراقب ويعلقّ بتهكّم على إجاباتهم، وظلّ الجنود يأتون إليه، ويضربون أقدامهم بالأرض ملقين التحية العسكرية، ثم يسلمونه بعض الأوراق. وسمع مهدي الشيخ ينطق عمره، مائة تزيد سنة أو تنقص، ونظر في وجه الضابط الرفيع، وقال لنفسه بعجب: "هؤلاء يجهلون التقاليد، يا لهم من أشخاصٍ جاحدين!".

وعند سؤاله عن مهنته أجاب الشيخ إنه شيخ الدم في بني الحارث، ومالك مزارع عنب، فعلقّ الضابط موضعاً:
- يا محمد، شيخ عشيرة منصبٌ مثل "العمدة" في الصعيد.
ويمكنك أن تكتب أيضاً كلمة متمرّد أو ملكي، لا فرق.

وعرضوا على الشيخ تهمة، فأكرها، وتركوا الكلاب تقترب من جسده، فقال ساخراً:

- لن تجد في جسدي شيئاً لتأكله، لدي عشرات الكلاب في مزارع العنب ولم أعد أخاف منها.

- اتركوا الكلاب جانباً، ستزورهم في الغرفة، دعونا ندون أسماءهم الآن.

أذعن الجنود لأمر المقدم، وسحبوا كلابهم بضع خطوات، وبدأ التحقيق مع الرجل الآخر، وضحك الضابط بشدة حين قال مهدي إن عمله هو "ضيف"، وعلق قائلاً بازدراء:

- صحيح، بلد غريب، أظن أن عمله هو سائح.

- لا أعرف ماذا تعني، لكنني ضيف عند هذا الشيخ، وفلاح في قريتي.

- اكتب "فلاح" يا محمد.

- المؤهلات؟

ضحك المقدم إثر سؤال الضابط الصغير وعلق:

- اكتب "أمي" يا محمد، هذا واضح من شكله، ثم هل قابلت واحداً متعلماً في هذا البلد حتى تجهد نفسك بالسؤال؟!!

كتب الملازم شيئاً، ثم ختم التحقيق عارضاً على مهدي تهمة بأنه ملكي أو متعاون مع الملكيين، بدليل أنه كان على بعد

عشرين متراً من مكان حادث القتل والاختطاف، فأنكر علمه بالحادث.

قال المقدّم: "في الغرفة سيتكلم".

وتنحّى مهدي جانباً، فانقلوا إلى أولاد الشيخ الثلاثة، وحققوا معهم بسرعة، ثم اقتادوهم إلى غرفة واسعة معتمة عفنة غاصة بالمخلفات وقطع الكراتين، بلاطها عارٍ بارد، يعبق في أرجائها صنن البول. فتشوهم جيداً وصادروا من حزام الشيخ المخايط^{١٩} وشفرة الحلاقة والمقص الذي يشدّب به الشعيرات الناتئة في وجهه، وهي أدوات ترافقه أينما ذهب ولا يستغني عنها. فاستلقى في الزاوية بمساعدة أولاده، بعد أن نظّفوا المخلفات والأوساخ، وجمعوا قطع الكرتون المتناثرة، وفرشوها تحته، ثم خلعوا معاطفهم ودثّروه، فانفض الشيخ صائحاً بغضب: "اهتموا بالضيف، مازال في عهدتي، لقد أخذوه من أملاكي. هل نسيتم تقاليدنا يا أنذا؟"، فأسرع الثلاثة ينظّفون لمهدي موضعاً قريباً منه، وهم يعتذرون له، ما أشعره بالخجل، وقذفوا على جسده معطفاً، وجلسوا على البلاط البارد صامتين، ثم انفتح الباب فجأة وأطل جندي قائلاً بصوت عالٍ: "تأهبوا أيها الرجعيين، لديكم حصة رياضة بدنية".

وقف أولاد الشيخ وانتصب مهدي مذعوراً، فقد عرف سجن الثوار، أو بالأحرى سجن موسى البادي ورفاقه المتعصبين

^{١٩} المخايط: إبر كبيرة تخاط بها الجلود والأحذية.

للثورة، لكنه لم يسمع عن حصص رياضة أو ما شابهه،
وسرعان ما اقترب ضوء مصباح كاز مشع، واقتحم الغرفة
أولئك الجنود والكلاب، واختلطت أصواتهم بحشجة
حيواناتهم الغاضبة وهم يصرخون عليهم: "انبطحوا".

جلسوا في أماكنهم مرعوبين من الكلاب، لكن الصوت
الغاضب ارتفع بشكل حاد وجدي: "أقول لكم انبطحوا على
ظهوركم".

تمددوا مذعنين بخوف وذهول، واستقر المصباح على
خطاف مخصص له متدلٍ من السقف، وهنا استطاعوا أن
يروا حلقات وسلاسل وخطاطيف كثيرة متدلّية على الجدار
المقابل، لم يسبق أن رأوا مثلها مطلقاً، ولم يفهموا سبب
وجودها، وأتى المقدم والملازم، وجلب رجلان مدنيان
الكرسيين والطاولة والأوراق، فجلسا بالوضع السابق نفسه،
وظهر ثلاثة جنود ضخام جداً، وكان مجموعة من الرجال
اندمجوا في ثلاث كتل كبيرة ليفزعوا السجناء، أو ليوقروا
عبء الزحام في الغرفة. أتوا وبأيديهم كيس كبير نفضوه
على الأرض، فانتشرت شفرات ودبابس، وإبر ومشارط،
وهراوات وكماشات، ومسامير وقضبان صغيرة وكبيرة،
وعجلات شرائط لاصقة وأقنعة مخيفة، وحشرات
اصطناعية، وزواحف مطاطية تتحرك من تلقاء نفسها،
وعلب تحوي فضلات حيوانية و آدمية مقرزة الشكل،
وقوارير بول معتقة مختلفة الأحجام، ثم غابوا قليلاً وعادوا
بصندوق زجاجي كبير مقسم إلى حجرات كثيرة، وفي كل

حجرة تلوح كائنات متماثلة، زواحف حقيقية، ثعابين، حيات
ضخمة، سحالي، حرادين، حرباوات، عقارب، وحشرات
متنوعة، عناكب، صراصير، خنافس، نمل، ذباب...

صرف السجناء عيونهم عنها مصدومين مقشعرين، لم يروا
أو يسمعوا بشيء كهذا، ماذا يريد هؤلاء المجانين أن يفعلوا؟
أهذا حقيقي أم حلم في المنام؟ وصرخوا بألم والجنود
يقيدونهم ويشدون الحلقات على سيقانهم بقسوة، وجذب
الرجال الضخام ساقى الشيخ، فصاح المقدم عليهم قائلاً
بتهمّم: "لا تقيدوه، إنه مقيد بشيخوته".

واقتربت أفواه الكلاب من أقدامهم فاتحة أشداقها، وصرخ
الشيخ قائلاً ببراءة:

- ماذا تفعلون يا خنازير؟ أهكذا تعاملون الضيوف؟

تقدم جندي غاضب نحوه، رافعاً قدمه ليركله، فنهره المقدم:

- دعه وشأنه، إنه يظن أننا سنقدم له القهوة ونسامره.

- ماذا تريدون منّا؟

- هكذا يبدأ الكلام، أريد أن أعرف منفذي الهجوم.

- إنهم الملكيون يا بغل البغال، ألم تسمع اسم "شايح بن

ناصر" شيخ بني حشيش؟

اقترب جندي منه ليؤدّبه، فنهره الضابط، وأجاب ببرود:

- أسمع عنه، يملك سلاحاً ثقيلاً ومحاربين خفيين الحركة، يشنون علينا حرب عصابات، ثم يفرون إلى وسط قبيلة كبيرة، والوصول إليهم صعب جداً، هل تفهم ما أعني؟
- اخذعوه يا بغال، لا تدعوه يلعب على ذقونكم، أهل بني حشيش مزارعون، لا تدمروا قراهم ومزارعهم، احذروا...
- عفارم عليك، كيف نخدع هذا الرجل البغيض؟ هل عندك خطة؟
- أنتم عيال النصارى، تعلمتم بالمدارس، كيف تعجزون عن القبض على هذا الساقط؟!
- وعيال ستين كلب أيضاً، أخبرني كيف نمسك بهذا اللعين ونقضي عليه وجماعته؟
- في صفكم ثوار ومشايخ قبائل، استدرجوا هذا الكلب إلى لقاء خارج صنعاء، ثم اذبحوه، أو استقطبوه - إن استطعتم - إلى صف الثورة، أو يرحل بعد أسياده.
- أنت شيخ بني الحارث، ولا أظن هناك شخصاً أكبر منك يفهم بالتقاليد. ابعث له رسالة ووسطاء من طرفك وحددوا مكان اللقاء.
- تجهّم الشيخ الوشاح وأمسك شعيرات لحيته الطويلة وصاح:
- الله المستعان، تريدونني أن أمرّغ وجهي بالتراب في آخر عمري! اقتلونني الآن...

- من غيرك يستطيع استدراجه؟! أنت رهن الاعتقال وضييفك وأولادك حتى تبعث له رسالة من طرفك باللقاء.

- لن أدعكم تضربون الأبرياء كما فعلتم في الجميمة،
وليسامحني الضيفان.

- أهذا كل ما جادت به حكمتك أيها الشيخ الخرف؟ سوف
تموت في هذا السجن، بينما يظل شايع بن ناصر طليقاً
يحاصر المدينة.

- أيها البهائم، ابتاعوه برتبة أو منصب وسيأتيكم حبواً، افعلوا
ذلك، افعلوها دون أن تسيل قطرة دم واحدة.. والآن دعوني
وشأني.

التفت الضابط الكبير إلى المحقق قائلاً بحزم:

- لا تدون شتائم في المحضر، فهذه طريقته في الكلام،
واكتب بأنه موقوف ورفاقه بتهمة عدم التعاون مع السلطات..
اتركوهم هذه الليلة.

وسرعان ما جمعوا أدواتهم، وانصرفوا مع كلابهم حاملين
معهم الضوء، وغرق السجناء وسط ظلام وهدوء مستحب
رغم البرد الذي يقرصهم. وبعد لحظات ألقيت إليهم فُرُش
رقيقة وبطاطين خفيفة قذرة، فاستطاعوا أن يحظوا بقليل من
الدفء، ثم ناموا.

قام الجنود بإيقاظهم في وقت مبكر من الصباح، وفكّوا
قيودهم، وقذفوا لهم قطع ملابس زرقاء متشابهة ليلبسوها،

وأخبروهم أنهم معتقلون وأن عليهم التقيد بالنظام المتبع في السجن، والالتزام بالبرنامج اليومي، وتنفيذ تعليمات الضباط والجنود. وتركوا الشيخ في الغرفة وحيداً، وقادوهم إلى الفناء، فالتقوا مع عدد كبير من السجناء خرجوا من الغرف الأخرى، ثم قسموهم إلى فريقين، وأوقفوا كل فريق أمام كوم عظيم من الأحجار مكس في جانبيين متقابلين من الفناء، وصار على كل فريق أن ينقل الأحجار إلى الجانب الخاص بالفريق الآخر، فأخذوا يروحون ويأتون مثقلين ويصطدمون أحياناً، فتسقط الأحجار من أيديهم وتصيب أقدامهم، بينما تلهب ظهورهم عصي الجنود عند أي تعثر أو تلكؤ أو شجار، وليته كان عملاً مثمراً، كأن يقيموا جداراً أو يزرعوا أشجاراً حول الفناء، أو حتى يُشيّدوا مدينة كاملة، لكان في ذلك عزاء لهم عن التعب بلا هدف.

كان السجناء ينظرون إلى بعضهم ويتحدّثون بالنظرات فقط، لأن الحديث ممنوع، وكذلك التوقف للراحة أو شرب الماء. بدا مهدي أكثر جلدأ من رفاقه، إذ إنه قروي اعتاد على الفلاحة وحمل الأحجار، في حين سقط البعض دائخين تحت شمس الظهرية اللاسعة، وسال الدم من أنوفهم الناعمة، ولطّخوا وجوههم وأيديهم بالدماء ليستدروا الشفقة.

استغل مهدي انشغال الجنود بفحص حالات المنهارين، وانسلّ إلى الجانب الآخر للفناء حاملاً حجراً بين يديه، وكأنه يقوم بتنفيذ أمر أحد الضباط، ولم يعره الجنود المنتشرون في الفناء أي انتباه، وهناك وجد باباً مفتوحاً على سور رافع،

يؤدي إلى فناء آخر يضم أبنية كثيرة، فرمى الحجر الثقيل وأطل برأسه مختلساً النظر، وفوجئ بضابطة متسمرة قرب الباب، خصلات شعرها الطويل مكوّمة تحت طاقيتها الحمراء، وترتدي بزة عسكرية، وعلى خصرها الضامر حزام جلدي، ومسدس محشور وسط غلاف بني غامق، وظهرت إلى جوارها بضع مجنّات مصريات بلا رتب، وقفزت عيناه إلى بعيد، ورأى سجينات بملابس بيضاء يحملن أحجاراً أصغر من أحجارهم، وينقلنها بالطريقة نفسها، وعندما التفتت الملازم فجأة ورأته متلصصاً صاحت بغضب، وشهرت عليه مسدسها، فانفلت هارباً بأقصى سرعة حتى اندسّ بين السجناء، وأخذ يكلم نفسه بحزن: "خليلة الرقيقة بنت المدينة تقوم بأعمال الرجال! يا لها من مسكينة، لن تتحمّل العذاب، وقد تهلك بعد أيام".

عند الظهيرة كان الجنود قد أنهكوا أيضاً، وتبادلوا نوباتهم، وأقبل جنود آخرون نشيطون، لكن العمل كان قد توقف، والسجناء مستلقين تحت ظلال أشجار محاذية للسور، في انتظار وجبة الغداء، واستطاع مهدي أن يتعرّف بمعقلين قدامى - غدوا نحيلين كأعواد القصب - أمضوا أكثر من عامين في هذا السجن، ولم يتوقفوا يوماً عن حمل الأحجار، ولم يسألهم عن التهم التي وُجّهت لهم، لأنهم قد يكونون مثله عابري سبيل أو ضيوفاً. سألهم فقط عن سجن النساء، وما يدور فيه، لكنهم لم يعلموا شيئاً عنه.

سألهم كيف تجري الأيام هنا، فأخبروه عن حصص التعليم وقت العصر، وهي من أمتع الأوقات التي يقضونها، لأنها لا تكلفهم شيئاً سوى الاستماع للمعلم، أو الكتابة على كراسات صُرِّفت لهم، أو قراءة كل ما يُكتب بالطبشور على اللوح الخشبي، ثم يستمعون إلى محاضرة حول الوطنية والثورة والجمهورية يلقيها ضابط توجيه معنوي ثرثار ومضحك، يظل يتمخض ويبصق طوال الوقت، وكأنه يُلمح لهم ألا يصدّقوا حرفاً مما يقوله. وحين يحلُّ الغروب، يرتاحون في غرفهم إلى وقت العشاء، بعدها يذهبون لتناول بعض الكدم البايث والبول، ثم يجمعهم المقدم ويلقي عليهم كلمة مطولة حول واجباتهم ومستحقاتهم، وفي نهايتها يقرأ عليهم "تقرير اليوم" وهو موجز عن الأخطاء التي حدثت، وسبل تصحيحها، وأحياناً يثرثر عن دور مصر الرائد في خدمة البلدان العربية، لاسيما هذا البلد الخارج من قمم الرجعية الذي يوليه سيادة الرئيس جمال عبدالناصر كل اهتمامه ورعايته. وينتهي البرنامج اليومي بعزف النشيد الوطني للبلدين، ثم يُؤذن لهم بالانصراف، فيسيرون متعبين ناعسين يصطدمون بأي شيء يقف في طريقهم حتى يلقون أجسادهم على فرشهم دون أن يخلعوا أحذيتهم، ولا يستيقظون إلا فجراً، ويتكرر الروتين نفسه وهكذا.

لم يعلم مهدي كيف بوسعه أن يعيش هذه الأيام المتشابهة، بينما عقله وتفكيره في الفناء المجاور، حيث تعيش خليلة. كان يتمنى لو يستطيع أن يزورها أو يلقي عليها نظرة واحدة

من فوق السور، لم تكن بعيدة عنه تماماً بما يكفي ليقتنع أنه لا يستطيع رؤيتها، بل قريبة جداً منه، خلف ذلك السور. يتخيلها وهي تتحرك وتفعل ما يفعله. لعله النظام نفسه: الأحجار، الحصص الدراسية، الطعام، المحاضرة المملة، والغرف.

-16-

ومرّت الأيام، ولا جديد في هذا المكان سوى الشوق. لم يجرب في حياته تحرقاً غريباً كهذا، ولا أملاً بهذا القدر للقاء شخص غائب، ولا ألماً لابتعاده. صار غيابها أكثر مشقة من حمل الأحجار، ولم يستطع أن يتحمل، فأفرزت غدد عينيه الدموع بعد طول انقطاع، ولم يدرك هل هذا من أجله أم من أجلها. ماذا حدث له؟

وانتبه صديقه محمد الغضبان لحاله، وهو سجين أقدم منه بعام، وقد تعرّف عليه ذات يوم، وصارا صديقين بكل ما تعنيه الصداقة من إخلاص وإخاء، وأنفقا الكثير من الساعات في الثرثرة، فقال له مهوناً:

- اسمع، لا تبك، الآن تبدو خائفاً لأنك بالأمس البعيد كنت خارج هذا السور، لكنك لن تلبث أن تنس تفاصيل كل شيء وراء هذا السجن، ويصبح هذا المكان هو عالمك، وتألّفه إلى درجة أنك قد تحزن لمجرد التفكير بمغادرته.

ردّ عليه بحرقة شديدة:

- أتظنني أبكي على نفسي؟ كلا يا صاحبي، أنا سعيد بمرافقتك، بل أجزم أنني أقضي وقتاً ممتعاً هنا. إنها فرصة نادرة للتعارف وسماع أخبار هؤلاء السجناء المجانين، فلا يأتي إلى السجن غير أشخاصٍ لديهم ما يريدون قوله، أشخاصٌ فريِدو الطباع، هل تفهمني؟

لم يفهم صاحبه سوى القليل، وهو غير متعجل، سيفهمه في وقت لاحق، ما دام باقياً هنا إلى أجل غير معلوم.

كانا يلتقيان تحت الظلال كل يوم قرابة ساعة أو ساعتين، وبات أحدهما يذرف الدموع في مثل هذا الوقت كل يوم، بينما يلحّ الآخر عليه بالسؤال قائلاً:

- أرجوك يا مهدي، لا تربكني، علام تبكي؟

أخيراً أجاب بعد أن تعمّقت بينهما الصداقة:

- على المرأة التي كانت برفقتي، إنها سجيننة خلف هذا السور، لا أظنها تستطيع احتمال حياة السجن، جسدها رقيق ناعم مثل العُطب^{٢٠}.. أرجوك، لا تسخر من سجين يبكي لأجل امرأة سجيننة ويغفل عن نفسه.

ضحك صديقه ثم توقف حتى لا يجرح مشاعره وقال:

- أنت أول سجين اسمعه يتحدّث عن امرأته!

^{٢٠} العُطب: مادة ناعمة من القطن.

- لا يهم أن تكون امرأتي أو لا تكون، ما يقلقني أنني فعلاً قلقٌ عليها، وأتمنى أن أراها، هذا كل شيء، ولا أدري هل تفكر بي كما أفعل أم لا؟

- رغم أنني من خولان، وأنت تعرف ما أعني، رؤوسنا جامدة كالصخور، وقلوبنا لا يسكنها سوى الدم، لكن ذاكرتي مازالت نشيطة، تخزن كثيراً من الأحداث والأسرار القديمة، وبوسعي أن أطلعك على كل ما يفيدك.

وعدّل من وضعية جلوسه ليعطي لكلامه جاذبية ساحرة وتابع:

- كانت لدي خالة رقيقة تعشق شاباً في قرينتنا، ويوماً ما أفشت لي سرّها لأنني كنت صغيراً لا أستطيع تأنيبها، وأخبرتني أن القلوب تتراسل دائماً، فحين تقلق على شخص ما يكون هو الآخر مشغولاً يفكر بك في الوقت ذاته.

- العشق معجزة حقيقية لقروي في عمري، أخشى أن يكون هذا بداية الجنون، أترى أحداً خارج السجن يتحدّث بشيء مجنون كالعشق؟

- لا أدري، لعلمهم يتحدّثون عن الثورة والقضايا الكبرى، لكن أحاديث السجناء تافهة لا يعول عليها، أحياناً أفكر أننا أحرار، وبوسعنا أن نقول ما نشاء دون خوف.. إنها تجربة أتمنى أن تطول.

- ما أشأم أمنيتك، هل صرت سعيداً بالبقاء هنا تكذّ كالحمار؟

- اسمع، لا أحد ينتظرني، أنت لديك خلية بالفناء المجاور، وأظن حياتك ستتحول إلى جنة فيما لو اقتلعنا هذا السور الذي يفصلنا عن السجينات.

- آه.. نعم.. لو أنهم يدعوننا نختلط بالسجينات، فلن تجد سجيناً يقبل بالخروج من هذا المكان.

- يا لك من خبيث، لقد بتّ أوّمن أن السجن يقع خارج هذه الأسوار.. ترى ماذا يفعل الجمهوريون والملكيون في السجن الكبير؟

- لا أدري، لا أريد أن أشغل نفسي بالهراء، أكبر أهدافي أن ألقى خلية بأي مكان حتى داخل بيضة.

- اسمع يا صاحبي، صار هذا المكان ممتعاً، دعنا نتعاهد ألا نفارقه، حتى وإن أطلق الجنود علينا النار.. لن نجد مكاناً أكثر أماناً منه، لنمت هنا يا صاحبي، ما رأيك؟

- لا تكن عاطفياً أكثر من اللزوم، سنخسر بخروجنا لا شك.. على الأقل، يمكنني هنا أن أشعر بدفء الحب والشوق، على أي حال، دع الأمور تجري دون تخطيط أو عهود.

- هل كنت ستتعلم القراءة لو كنت خارج السجن؟

- قطعاً لا، الآن أستطيع أن أقرأ كتاب الحكيم علي ابن زايد، آه، أتمنى - إضافة إلى الاختلاط بالسجينات - أن يوفرنا لنا مكتبة كبيرة، حينذاك أعاهدك على الموت هنا.

- ماذا؟ أظنهم يقبلون بأمنيات السجناء! أسمعت كيف اختصم الثوار وتفرّقوا هنا وهناك مطالبين بتشكيل أحزاب تحت مسميات قومية ومرجعيات دينية، لم يغيّروا شيئاً، فتحوا القمقم فقط ليخرج المارد الرجعي الذي يسمونه شعباً، وذهبوا ليبحثوا عن قيود يغلون بها رؤوس الناس وقلوبهم.

- دعك منهم، لن أعترف بالثورة حتى يتحطم هذا السور وألتقي بخليلة، ثم نخرج ونجول في شوارع المدينة متعانقين دون أن يلتفت إلينا أحد، هنا فقط سأقول تحققت ثورتنا الخالدة.

- لا تخرج، لم يتغيّر شيء، ألا ترى الزوار الذين يأتون من بني الحارث لإقناع الشيخ الوشاح بالخروج؟! إنهم يتصرفون بصفاقة كبيرة، ويقدمون الرشوة إلى الجنود للاعتناء به.

- إنه مثلنا استمرأ البقاء، وهجر الصلاة، وأمسى يقول إن اتصاله بالله أصبح أقوى من ذي قبل.

- هيا بنا، هاهو جرس الغداء يقرع من أجل الوجبات ذاتها، لقد تفتت الأحجار التي نحملها كل صباح على كواهلنا، ورغم ذلك لم تتغيّر الوجبات.

وذهبا للغداء، وكان ذلك آخر غداء يذوقانه معاً، إذ جاء اليوم التالي بهيجاً على غير المعتاد، فتم إغفاؤهم من البرنامج لذلك اليوم بمناسبة ذكرى الثورة المصرية، وحصد السجناء والسجينات ثمارها واستراحوا من حمل الأحجار، وعند الظهر سقطت ورقة مطوية أُلقيت من الفناء المجاور،

وتحمل اسم مهدي نصاري، فالتقطها سجين يدعى صالح الجريش، وأقبل وقذفها في حزن مهدي وهو يضحك بغیظ وتشفّ.

أثار هذا التصرف حفيظة مهدي، لأن السجناء يعاملون بعضهم باحترام شديد، فخاطبه صديقه محمد الغضبان قائلاً بفضول:

- لا تقف هكذا متبلداً.. دعك منه، واقراً ما كتب على الورقة.
- نعم، عندك حق.

وتفرّس في الورقة وقرأ تلك الكلمات بصوت أخذ يخفت ويتقطع: "كيف حالك يا مهدي نصاري، لا تسل عما يجري لنا من عناء، لم نهجع سوى هذا اليوم، إنه برنامجكم نفسه، لكن الزائد فيه قد لا يعجبك، فالمقدّم يزور السجينات في المساء، وقد جاء دوري البارحة، ولم أستطع أن أكبحه، لأنه يفعل ذلك بالجميع، يصطاد كل ليلة واحدة، ويأخذها إلى غرفته ولا يدعها تغادر إلا فجراً، وأنصحك ألا تفعل شيئاً، فهذا هو قدر السجينات.. خيلة".

سقطت الورقة من يده، وعرف سر ضحك السجين البغيض وشماته، فالسجناء لا ينظرون إلى السجينات في الفناء المجاور باحترام، لأنهم يظنوهن منحطات سافلات، لم يدخلن السجن إلا لارتكابهن الرذيلة، ظلّ مهدي ممسكاً بالورقة بجمود وذهول، حتى أخذها صديقه محمد الغضبان من يده، ولم يمانع، لأنه يعلم بأسراره منذ البداية، لكنه خاطبه بصوت

متهدج: "أرجوك، لا تقرأ هذا الخبر القذر، النذل يغتصب
السجينات، ماذا نفعل؟".

ومع ذلك مرر صاحبه عينيه في الورقة بسرعة، وكأنه يريد
أن يتأكد بنفسه، ثم مزقها بعصبية، ونهض واقفاً وعيناه
محملقتان كالمجنون، وكوّر قبضته، وهوى بها على
الأرض..

ثم دفع صاحبه عن طريقه بعصبية، وانطلق باتجاه صالة
الطعام، وقال مهدي لنفسه: ماذا سيفعل؟ لعله جائع.. لم يطق
انتظار ميعاد الطعام. لكن محمد الغضبان تسلل من نافذة
الصالة إلى المطبخ، واستلّ سكيناً، وأخفاه داخل ثيابه
الزرقاء، كان الطباخون في غرفة جانبية يغيرون ملابسهم
إثر انتهاء نوباتهم، لذا دخل وخرج عبر النافذة دون أن يشعر
به أحد، ثم سار وسط الفناء بخطوات واسعة مشدودة، وظل
مهدي يتعقبه بقلق، رآه يأخذ حجراً ثقيلاً، ويسير مترنحاً
باتجاه حمّات الضباط، فاقترب منه ليرى ما يدور في
رأسه، ثم تراجع ولبد بعيداً متلصصاً على أفعاله العجيبة. لم
يجرؤ أن يقترب من قسم الضباط، لأن ذلك محظور على
السجناء، أخيراً وقف محمد الغضبان قرب الحمّات رافعاً
الحجر في الهواء، كما يفعل السجناء المخالفون للنظام، ومرّ
عدد من الضباط ونظروا ناحيته بغضب، وتوقف البعض
منهم وتحدّثوا معه، وربما سألوه عن سبب وجوده هناك،
وعمن أبرم له هذا العقاب، ولعله كان يجيب: "المقدّم".

وتعب مهدي من الانتظار، ولم يتعب صديقه العنيد، وظلَّ يحمل الحجر في الهواء ثابتاً كالوتد، وفجأة خرج المقدّم من سكن الضباط متجهاً صوب الحمامات، فانتفض جسد مهدي خوفاً، وغشي العرق جبينه، وشعر بالقشعريرة وهو يتخيّل هذا الرجل مقتولاً رغم أن هذه كانت أمنيته، ودنا المقدّم من موضع محمد الغضبان، وتبادلا بضع كلمات، ولعله سأله عما فعله لينال العقاب في مثل هذا اليوم المجيد، وأي ضابط أبرم هذه العقوبة، ولم يعرف مهدي كيف ردّ صاحبه، ولم يكثرث، وبقي يهمس بصوت مسموع وكأنه يكلم صاحبه: "لا تفعل ذلك، أرجوك، لا تعالج الخطأ بخطأ أفدح، ماذا يعني اغتصاب السجينات، إننا مغتصبون، والبلد كذلك والثورة. الجميع يُغتصب... " وسكت حين رمى صديقه الحجر من كفه، وسار مسرعاً خلف الضابط حتى غاب وسط البناء، فخبأ مهدي رأسه بين يديه مفزوعاً، كمن يود أن يحتمي من شظايا انفجار وشيك، وبعد لحظات رأى صديقه يخرج فاراً ممسكاً بمقبض السكين، فأبعد يديه عن رأسه واستقام متطلعاً ناحيته بخوف. بدا صديقه مرتبكاً بوضوح رغم ابتعاده عنه، وظل يتلفت حوله بذعر وكان هناك خطر يتعقبه. ماذا فعل هذا المجنون؟

وتابع خطوات صاحبه خطوة خطوة، إذ اقترب من سور السجينات وطوّح بالسكين إلى ذلك الفناء، وكأنه يريد أن يثبت للنساء المغتصابات أن معاناتهن انتهت، وأسرع صوب غرفته، فهرع مهدي خلفه، ووقف أمامه ملقياً في وجهه

نظرة احتجاج. دفعه الغضبان بلطف خارج الغرفة حتى لا يشعر رفاقه بشيء مريب، وهمس له أن يصمت وكأن شيئاً لم يكن. عاد مهدي خائفاً إلى غرفته، ولم يمض غير وقت قصير حتى دبَّ الصراخ، وتسارع الجنود في الفناء نحو الحمامات، واندھش السجناء وهم يسمعون عن مقتل مدير السجن، وشاهدوا سيارة الإسعاف وهي تبتعد مطلقاً صوتها الرهيب.

لم يكثر ثوا في البداية، وسمعوا أن الفاعل شخص مجهول، وبعد مدة قصيرة هرعت إلى الفناء أكثر من عشرين شاحنة متنوّعة الأحجام، ونزل جنود بملابس عسكرية مختلفة الألوان، ودقّ جرس السجن، وخرج السجناء من عنابرهم وغرفهم متأهبين للغداء، وانتظموا في صفوف متوازية، وأتى مسؤول عسكري رفيع برتبة لواء، تملأ النياشين صدره، وتكلّم بأن الجمهورية المصرية قدّمت قرابين كثيرة من أجل رخاء هذا البلد، حتى السجنون تمتاز بنظام فريد، وقد ألغي فيها نظام التعذيب البشع الذي مازال يمارس ضد المعتقلين السياسيين في كل دول العالم، ولكن هاهم يُجازون بالسوء، ويُقتل المعلمون على أيدي المتعلّمين، وهو يود ممن اقترف هذه الجريمة أن يخرج بشجاعة ويبرز سبباً وجيهاً دعاه إلى قتل المقدّم.

ران الصمت بضع دقائق، ولم يصدر أي صوت في الفناء، أشار اللواء لجنود التدخل السريع فانتشروا حول المساجين بالعشرات مدججين بالسلاح، وأصدر الأمر للسجناء أن

ينبطحوا، ففعلوا، وقام الجنود بتكبير أقدامهم، وأخذوا منهم عشرة وأوقفوهم بمحاذاة السور، ثم أوثقوهم على سيقان الأشجار التي يستظلون تحتها قبل أن يتناولوا وجبة الغداء، وقال اللواء بسخط:

- على الفاعل أن يملك الشجاعة ويظهر نفسه، وإلا فإنه سيكون مسؤولاً عما يجري لزملائه، ولن ينجو سجين من هذا المصير وكذلك القاتل لن ينجو.

بقي السجناء صامتين، وظهر الشيخ الوشاح قرب باب الغرفة بملابسه الزرقاء، وأخذ يراقب ما يجري. كان العشرة السجناء يتطلعون بخوف ورجاء إلى زملائهم ويصرخون، وهم يتلفتون بقلق دون أن يدركوا ما ينتظرهم، والتفت مهدي باحثاً بنظره عن صاحبه محمد الغضبان، وراه بعيداً عنه، وأشار اللواء للجنود برأسه، فتقدموا يمسكون بالكلاب الشرسة، وما لبثوا أن أطلقوها باتجاه المقيدين على الأشجار، فقفزت إليهم بجنون ونهشت أجسادهم، وهم يصرخون بألم، حتى انطفأت أصواتهم، وسقطت رؤوسهم بلا حراك، كانت ملابسهم ممزقة ودمائهم تسيل على الأرض، وظهرت عظام سيقانهم البيضاء ولا أثر للحم عليها، وهنا صرخ اللواء القاسي: "قدموا عشرة آخرين".

سقط الشيخ الوشاح على باب غرفته دون أن ينتبه إليه أحد، بينما سحب الجنود الأجساد الممزقة جانباً، وأخذوا عشرة آخرين، وكان من بينهم السجين صالح الحداد الذي عثر على رسالة خلية، فصاح قائلاً بهلع:

- أعرّف الفاعل، إنه مهدي نصاري.

صاح اللواء بنزق:

- اخرج يا مهدي نصاري.

غمر العرق والخوف جسد مهدي، وخرج من بين الصفوف
متعثراً بالقيد الحديدي، وتقدّم إلى الأمام وهو يرتجف كقصب
جافة تلاعبها الريح، وخاطبه اللواء قائلاً:

- أنت من قتل المقدّم؟

أجاب بارتعاش:

- نعم.

وفجأة ارتفع صوت صاحب من وسط الصفوف الصامتة:

- لم يفعلها مهدي، أنا القاتل.

وتقدّم محمد الغضبان إلى أمام اللواء وهو يتعثر بقيده، فأشار
اللواء لمهدي قائلاً:

- عد إلى موضعك أيها الغبي، لم أرَ في حياتي قاتلاً يرتعش.

سحب الجنود محمد الغضبان إلى أمام الضابط الرفيع، وأثناء
مروره ألقى في وجه مهدي نظرة تحوي معاني كثيرة،
امتنان ووداع وأسف، وبدا عليه بعض الخجل والحسرة،
وحين وقف أمام اللواء كان وجهه ناشفاً صارماً، فخاطبه
قائلاً:

- تبدو قاتلاً، ومع ذلك ينبغي أن أعرف بأي أداة قتلته.

- طعنته بسكين في عنقه.

- لم نجد السكين هنا، أين أخفيتها؟

- رميتها إلى فناء السجينات.

وأشار اللواء، فجلب جندي السكين وعليها آثار الدماء
وعرضها على السجين، فقال بسرعة:

- إنها هي، لا تعذبوني أكثر بأسئلتكم، كان المقدم يمارس
أفعالاً مشينة في السجن الآخر، ولا داعي للتوضيح.

- كنت ستشكوه إلينا أيها البغيض.

- أحببت أن أعاقبه بنفسي.

أشار اللواء للجنود، فأخذوا محمد الغضبان ورموه بقسوة في
قفص شاحنة بيضاء، وانطلقوا مسرعين خارج الفناء.

وفي اليوم نفسه جاء إليهم مدير جديد برتبة عقيد، يمشي
وحراس أشداء خلفه، وألقى الجنود بالسجناء عراة تحت أشعة
الشمس الملتهبة من الصباح إلى غروب الشمس، ومعرضين
للهواء البارد من غروبها إلى الفجر. أكلوا وشربوا هناك
وناموا، ولم يسمحوا لهم بالذهاب لقضاء حاجاتهم، وأمرهم
أن يفعلوها تحتهم.

استمروا على هذا الحال حتى انقلبت ألوانهم، السجين
الأبيض صار أسود كالفحم، والأسمر كذلك، والأسود أصبح

فاتحاً يميل إلى الزرقة، وفاحت في الجو روائح فضلاتهم وبولهم، ونفق العشرات منهم بفعل الحمى وسوء التغذية. وكان عزاؤهم الوحيد أن أوراق الشكر والعرقان هطلت عليهم كالمطر من فناء السجينات، وسمعوا أنهن عوقبن أيضاً تحت أشعة الشمس لهذا السبب، وخفضت حصصهن من الطعام.

أما الشيخ الوشاح فقد ظلّ مريضاً في حبسه، يزوره طبيب السجن من حين إلى آخر.

ولم يعد مهدي يسمع شيئاً عن خليئة، فقد شددت الحراسة على السور الفاصل بين السجينين، وأمست أصوات الكلاب الشرسة تصدر من فناء السجينات، دون أن يدرك أحد في فناء الرجال ما يجري هناك من ويلات.

-17-

بعد بضع شهور، نُزعت القيود عن أقدام السجناء، وأعيدوا إلى غرفهم، وصارت الأمور تعود تدريجياً إلى طبيعتها، عاد لهم البرنامج اليومي الرتيب، وبدأ المصريون يتناسون مقتل المقدم، فالحرب مازالت مستعرة في الخارج مع الملكيين، وكل يوم تحدث جرائم أبشع ومعارك دامية بمشارف صنعاء، وعلى نحو غير مسبوق ارتخت قبضة الجنود والسجانين وكانهم سئموا من الرقابة الدائمة والتشدد في تنفيذ الإجراءات

والقواعد، وصار السجناء يسرقون صحف السجناء
ويقرؤونها قبل النوم، مستخدمين مصابيح تدخل السجن
بالتهرب، واستطاعوا أن يحصلوا على أشياء غيرها
كشفرات الحلاقة وقوالب الصابون، وأمست الرشوة نظاماً
بحد ذاته، إذ كان يتسنى للسجين الحصول بواسطتها على أي
شيء يريده، وهكذا أصبح للمكان روح ورائحة مختلفة،
فالمال صار يأتي بطريقة ما، هذا يقترض من ذلك، وذلك
ينقد هذا مالاً عند الضرورة.

أحياناً يستعمل عشرة أشخاص حبة صابون واحدة حتى
تذوب وتنتهي، لم يكونوا يخشون الأمراض الجلدية، أو
يأبهون بالملكية والخصوصية، أبواب الحمامات غدت تالفة
لا تستطيع أن تغلق، فيستحمون دون خوف من انكشاف
عوراتهم، فالثورة في الخارج أمست عورة مكشوفة متقيحة
كما كانوا يظنون، والثوار لا يعينهم ما يجري خلف أسوار
السجون، وكذلك المعتقلون لا يهتمون بما يفعله الثوار، ولا
ينتظرون عطفهم وعنايتهم، لقد صاروا يتدبرون أمور أنفسهم
هنا، أصبحوا يملكون طرقاً عديدة للالتقاء، ولم يعد هناك
فرق بين السجن والسجان، فكانوا يتبادلون معهم السجائر
دون علم العقيد، ويتشاجرون أحياناً، وبعد لحظات يعتذرون
لبعضهم، ويتصالحون دون ضوضاء، والقتال في السجن أمر
وارد ومنطقي، بفعل الازدحام والضجر، لكنهم لم يجدوا
سبباً واحداً يدعو إليه. علام يقتتلون؟ كل شيء متوفر ومتاح.

شيء واحد ربما كان سيجلب عاصفة من المعارك بينهم، وهو النساء، لحسن الحظ أنهم لم يعودوا يكثرثون، فالسور يحول بينهم وبين السجينات، رغم أن عيونهم لا تفارق هذا السور. يصل إليهم شذى أنثوي زاخر من خلفه، يكتفون بهذه الرائحة، ويمارسون العادات السرية مستعينين بالأخيلة القديمة، وقد صنعوا ثقوباً على السور للتلصص على الضابطات المصريات، وهنّ يجلسن بوضعية مثيرّة أو يتطلعن إلى المرايا مستغلات خلو المكان من المتطفلات، كان مهدي أكبر المتلصصين، علّه يرى خلية، ثم يئس من اختلاس النظر. لم يكن سهلاً تمييز السجينات وهنّ يلبسن أزياء بيضاء موحّدة، ولعلها يئست كذلك من تمييزه بملابسه الزرقاء الرثة، ولا شك أنهن أكثر حرماناً منهم، إذ لا يستطعن التلصص عليهم بسهولة، فالسور بعيد عن غرفهن، والسجّانات يراقبن المكان في وضح النهار. وأعظم من ذلك أن صور السجناء والسجينات قد تغيّرت دون أن يشعروا.

وفي أحد أماسي عام 1967 قرأ السجناء بالصحف المسروقة خبر نكسة مصر وهزيمتها أمام إسرائيل، أخيراً فهموا ما يجري، كانت هناك حركة دائبة محمومة للآليات والجنود طوال النهار، بينما بدت أمزجة السجانين سيئة وأحوالهم مضطربة على غير المعتاد، كان الجنود يوضبون حقائبهم، ويتحركون بمثابرة وتوتر، وكأنهم أنهوا سنوات خدمتهم أو ذاهبين في إجازة رسمية، أو استبدلوا بآخرين، أو...

دارت في رؤوسهم تكهّنات كثيرة، ولم يستطيعوا أن يقتربوا منهم، إذ بدوا ثائرين يمسكون الكلاب التي مزقت أجساد زملائهم، ويضعون الأطواق على أعناقها الضخمة وكأنها سترحل معهم، بدت هذه الحيوانات مستثارة أيضاً تحرك رؤوسها وتفتح أشداقها على اتساعها، وفكروا كم يعوزهم من الوقت ليألفوا السجّانين والجنود الجدد، لكن الأمر كان أفدح مما ظنوا، وأصبح أمر تبديل الحرّاس هيناً، لذلك اجتمعوا في الفناء كاسرين نظام الحظر المفروض عليهم، وحاول السجّانون والجنود عبثاً أن يضبطوا النظام لليوم الأخير، بدوا حزينين قانطين، وكأنهم يعتبرون على أنفسهم، ثم ما لبثوا أن تركوا الفناء للمعتقلين، وتفرغوا لشؤونهم الخاصة، متجاهلين الصراخ المحتدم الغاضب للسجّان، لكنهم لم يستطيعوا تجاهل سؤال سجين يائس ملاً صوته الفناء:

- هل هان عليكم أن تتخلوا عنا في آخر المطاف بعد أن ألفناكم؟

جاء صوت ضابط التوجيه المعنوي من الزاوية الأخرى:

- لا تزعجوننا، لقد استدعتنا بلادنا للعودة، لذا سنسلمكم للثوار ونرحل.

- ماذا؟ تتخلون عنا للثوار! إنهم يلهثون وراء المذاهب والأحزاب، لم يزورونا أو يسألوا عنا مطلقاً.

- لقد قدّمنا قرابين كثيرة لهذا البلد، وقد علمناكم وصقلنا أبدانكم، ويمكنكم الآن أن تعتنوا بأنفسكم.

وانصرف الجنود المصريون ليناوموا دون أن يضيفوا شيئاً.
بدا الأمر واضحاً، إنهم يقولون "وداعاً" وإن لم ينطقوها
صراحة، وتفرّق السجناء وهم يشعرون بالأسى، واتجه
مهدي إلى الشيخ المتعب، الذي لا يتكلم إلا حين يكون الكلام
محتوماً، وقف أمامه وقال شاكياً:

- سيذهبون في الصباح.

جاهد الشيخ ليقول بضعف:

- كنت أعلم ذلك.

- كان عليهم أن يبقوا قليلاً.

- لا يبقى شيء على حاله يا ولدي.

نام مهدي والخوف والأمل يتنازعان نفسه، يخشى الخروج
ويريده في الوقت عينه، وبالكاد استطاع النوم. وعندما أفاق
كان الفناء خالٍ من السجّانين والجنود والكلاب، والباب
مفتوحاً على مصراعيه. بدا المكان غريباً موحشاً، والسجناء
يتحركون في الفناء واجمين صامتين وكأنهم في حالة حدّاد،
كانت الحرية تتاديهم دون أن يجيبوا نداءها، كانوا مغمومين
مرغمين حين دخلوا السجن، وهاهم مكتئبون مجبرون على
مغادرته، واقع مخيف يهزّ جذور حياتهم، ويهدد بتقويض
راحتهم، فأغلقوا باب السجن من الداخل، ومكثوا ينتظرون
بترقب قدوم الثوار متأهبين للعراك.

تسلل مهدي خلصة من باب سور السجينات، دون أن يعترضه أحد، كان لديه أمنية قديمة لا يعرفها إلا القليل من زملائه، ولو التفتوا إلى فعله لحدوا حذوه، ولاقتحموا السور هائجين كفحول الثيران، ومن المحتمل أن يهجموا على أجساد السجينات، فهم محرومون لأعوام، والسجينات كذلك، لكنهم لم يلتفتوا إلى السور، أو على الأرجح لم يعودوا يكثرثون بالنساء لاسيما المعتقلات، لأن لديهم مشاكلهم الخاصة، بدا الأمر غير مختلف تماماً لدى السجينات، كنّ منتشرات على الفناء كالعاطلات عن العمل، بدين ناحلات شاحبات وكأنهن يلبسن أفتحة دميمة، وكالسجناء لا يرغبن في الخروج من السجن، وبمجرد أن ظهر مهدي في الساحة بملابسه الزرقاء حتى صرخت إحداهن بفجيرة:

- انظرن، إنه سجين.. ماذا يفعل هنا؟

اقترب وردّ بصوت متلعثم قائلاً:

- أنا هنا أبحث عن خلية.

صرخت سجينة راشدة:

- اذهب بعيداً، لا للرجال في هذا السجن.

- لست مؤذياً، أريد خلية وحسب.

- هذا لا يجوز، أنت حقاً قليل حياء.

استغرب مهدي من غضب هذه المرأة. هل قال شيئاً يستحق هذا الجفاء؟ وأشارت له شابة سمراء أن يقترب، ثم انتحت به جانباً قائلة بخجل:

- مثل هذه الأمور لا تقال بالعلن، أريد أن أرافكك لكني الآن في دورتي الشهرية، إلا إن كنت تفضّل أن تسلك الطريق الآخر.

- لقد أسأتني الفهم، أنا أبحث عن امرأة تدعى خليلة.. هل رأيتها؟

- واه، خليلة! نعم، فهمت، أيهن تريد؟ هناك أربع خليلات.. خليلة الصغيرة، الكبيرة، السمينة، والثرثارة.. السجن كبير كما ترى.

- خذيني إليهن.

وضحك متعجباً، فالأسماء تكون خادعة أحياناً عندما يكون لها دلالات ومرادفات أخرى، وذهب خلف الشابة. كانت نظرات السجنيات الدميمات تتعقبه بحنق، يبدو أن طول الحرمان أحالهن إلى قطعان متوحشة جافة العواطف، وهو نفسه لم يعد يحس بأي إثارة، قلبه فقط ما زال يحتفظ بشوقه القديم. ونادت الشابة السمراء على الخليلات واحدة تلو الأخرى، واختتمت بالرابعة، تجمّعن أمامه خائفات يُخفين وجوههن بأطراف أكمامهن، فاضطر أن يقول بصوت غريب:

- أنا مهدي نصاري، أيكن خليلة الباكري؟

أزالت خاليلة الصغيرة كمّها عن وجهها الغريب الشاحب،
واقتربت منه قائلة بارتياب:

- أنت لا تشبهه، ماذا جرى لك؟

تأملها، لقد ذاب لحم وجنتيها، وتغيّرت ملامحها وحال لونها
إلى سمرة داكنة بلون الوحل، ولولا أنها اقتربت وتحدّثت إليه
بصوتها المألوف لم يكن ليميّزها. أجاب بفرح:

- لا أدري، لكنك مختلفة أيضاً، لم يبقَ منك إلا صوتك.

- كيف أبدو لك؟ لم أرَ وجهي منذ زمن طويل.

- لا يهم كيف نبدو، هيا بنا نذهب ونرى وجوهنا في الخارج،
لم نفكر أن نتصفح وجوهنا في السجن!

- لا أود أن أغادر هذا المكان، لقد اعتدت عليه وصار لدي
صديقات.

- لا فائدة للتلكؤ، لقد سلّمونا للثوار، وسوف يرغموننا على
الخروج، لأنهم لن يحتملوا إعالتنا.

- ولكننا تعاهدنا على البقاء هنا مهما فعلوا.

- ونحن كذلك اتفقنا على البقاء، لكن سعادتي في السجن لم
تكتمل بسبب غيابك.

- أخيراً، صرت متيّماً بي و...

قطعت عبارتها، إثر ضجة شديدة صدرت عند باب السجن،
كانت مجموعة من السجينات يصرخن، ويتراجعن للوراء

باكيات، وزحفت مجموعات أخرى صوب الباب متمّرات،
وتردد دوي إطلاق نار كثيف، فهرولن مبتعدات وأتى صوت
سجينة هاربة تحذّر النساء:

- جاء الثوار يرافقهم جنود مسلّحون بالبنادق، وبمعيتهم
جرّافة ضخمة.

وارتفع الصراخ كذلك من فناء السجناء المجاور، وسُمع
صوت إطلاق نار متقطع، ولاح دخان وغبار كثيف، فقال
مهدي مشيراً بيده:

- انظري، إنهم يهدمون سور سجن الرجال ويجبرون رفاقي
على الرحيل.

- هذا لا يحتمل. ماذا نفعل؟

- هيا نرحل، لعل الأمور تغيّرت في الخارج.

وسرعان ما دخل الجنود بملابسهم العسكرية الموحّدة،
وبأيديهم العصي والهرأوات، وظهر قادة الثورة بالملابس
المدنية والتقليدية، وظهر بينهم المتمرد السابق شائع بن
ناصر، الذي غدا ثائراً، ونال رتبة فريق في الجيش المحلي
مقابل اعترافه بالثورة، ووقف عند الباب بملابسه العسكرية
منتفشاً بزهو ديك يتجوّل بين دجاجات، هاتفاً بأسماء سجينات
من قبيلته، بينما جعل الجنود يطاردون السجينات
ويضربونهن بقسوة صارخين:

- هيا، اخرجن، أهاليكن ينتظرون خلف الباب.

- هذا السجن أكثر سعة من منازلهم.

أمسك مهدي بيد خليلة وقادها كطفلة شقية، وسارا باتجاه الباب، وازدحمت السجينات عند المخرج، كانت الجرافة تدكّ السور من الوسط، واستطاعا أن يشقا طريقهما في الزحام. وحين اقتربا من الباب الضيق، قالت خليلة بقلق واضح:

- أتظن أهلي بانتظاري؟

- لا أدري.. هل ستعودين إليهم؟

- أتوق لرؤية شقيقتي، ترى هل صفحن عني؟

- لا أظن ذلك، لأن الناس خارج هذا السور لا ينسون بسرعة.

خرجا، وشاهدا عشرات من النساء والرجال يرفعون أوراقاً تحمل أسماء قريباتهم، والأشخاص الأميون يهتفون بملء الصوت بالأسماء: سعيدة، فاطمة، خليلة، زينب، رُقِيّة... كان الحال يشبه صراخ باعة الفاكهة الجوالين في سوق خضار: موز، مشمش، تفاح، سفرجل، بطيخ.. جعلهما الصخب مرتبكين متذمرين. كانت خليلة تتلقت حولها بحذر، وتوزّع نظراتها على الأوراق المنشورة في أيدي الرجال والنساء، واقتربت بجرأة وجعلت تمر عليهم بالتوالي مدققة فيما كتب، وأخيراً سمعت امرأة أبيها تصرخ باسمها وتحمل ورقة مدوّنة عليها الاسم. لم تتصفح الورقة، لأنها عرفت صورة المرأة السمينية التي تنتظرها، وأشارت لمهدي قائلة بفرح:

- انظر، إنها امرأة أبي.

أجاب باغتمام:

- هل علينا أن نفرق الآن؟

- لا، تمهل للحظات، لأرى هل تستطيع أن تعرفني.

اقتربت وحدّقت في اسمها المكتوب على الورقة، وفي وجه المرأة الضخمة القاسية الملامح، فصاحت عليها بجفاء:

- ماذا دهاك؟ ابحتي عن أهلك بعيداً عني.

ظهر إلى جوارها فتى يافع متوثب، كان يمسك خنجرأ بيده ويحاول أن يداريه عن الأنظار، وأخذ يتصفح وجه السجينة باحتقار، ثم أشار لها بغضب أن تتصرف حالاً، عرفت أباها علي، ولمحت نصل الخنجر اللامع المتعطش لدمها. لحسن الحظ أنه لم يعرفها، هل تغيّرت ملامحها إلى هذا الحد؟ سألت نفسها، ثم انسحبت بانكسار دون أن تقول شيئاً، فصوتها قد يفضحها، وأمسكت بيد مهدي، وسارت بضع خطوات، ثم سقطت على صدره صارخة بحرقّة. وصدر صوت رجلٍ من المنتظرين يقول مخاطباً مهدي:

- هنيئاً لك، حصلت على ابنتك. مازلت انتظر "حورية مصلح".

قالت له خليّة بتأثر:

- كانت من أعز صاحباتي.. انتظرها، ستأتي.

وسارا وهي تقول بعجب:

- يحسبني ابنتك.

- ستكونين كل شيء لي.

ثم أردف مبرراً صورته النكراء:

- لا عجب، فقد حرقتنا الشمس وشقق البرد جلودنا بعد مقتل
المقدم.

- ونحن كذلك جُرنا العذاب نفسه، نحتاج إلى أعوام حتى
نستعيد وجوهنا.

ضحكا وتغلغلا في الأزقة، والناس يرمقونهما بازدياء بفعل
ملابس السجن. كانت الأحياء غير نظيفة، والمساجد فتحت
أبوابها لاستقبال المصلين، والشحاذون ذوي العاهات
والأطفال يقفون بانتظار الصدقات، مادين أذرعهم في
الهواء، وقلة من النساء يسرن بين الأزقة بخطى سريعة
مضطربة، منكسات الرؤوس، متلّعات بالستارات الحمراء،
وفي بعض الشوارع ظهر الثوار يوزعون الشعارات على
المارة، وهم خليط من جنود وطلاب ورجال قبائل بمآزرهم
القصيرة وبنادق الموزر التي تمتد تحت جنوبهم.. كانوا
يحدّرون الناس من الانجرار خلف دعاوى الملكيين
الرجعيين، الذين عادوا يجمعون صفوفهم للانقضاض على
الجمهورية، مستغلين انسحاب القوات المصرية من البلد.
وسمعوا أحد المارة يسبح الله متعجباً ويقول إن هؤلاء الرجال
من أهالي بني حشيش الذين كانوا يقاتلون في صفوف

الملكيين إلى الأمس القريب، حتى استطاع بعض وجهاء الثوار أن يستقطب شايع بن ناصر إلى صف الثورة لقاء رتبة "فريق" في الجيش الوطني، ومنصب مرموق عند تشكيل الحكومة القادمة، فانضم جالباً معه كل جحافل المتمردين.

عدا ذلك لم يتغير شيء طوال عامين وستة أشهر: الطرق الترابية، الأطفال العراة، الرجال المسلحون ذوي الملابس التقليدية الرثة، النساء العابسات ذوات النظرات المخاتلة المرتابة، عواء الكلاب الضالة، جموع المجانين والشحاذين، والبيوت القديمة المتعددة الطوابق.

اجتازا المدينة القديمة، ثم اخترقا منطقة شعوب حتى وصلا إلى منطقة الغيل الأسود، وهناك وقفا بتهيب أمام منزل أحسن الباكري المهيب، وبالكد استطاعت خليعة أن تقول بانكسار: - دعني ألقى السلام على شقيقتي.

ودخلت من باب الفناء العريض، وهو يراقبها وهي تتقدم بخفة ونشاط. لاحت طويلة قاتمة اللون بعد نحولها وذوبان اللحم عن بدنها اللدن، غدت ملابس السجن الرثة واسعة عليها حتى لا تكاد تظهر داخلها، وكأنها استعارت جسد امرأة راشدة مريضة أنجبت فريقاً من الأطفال. ولا يمكنك إلا أن تظنها من سكان الأحياء الفقيرة المشبوهة القابعة في مؤخرات المدن، وتوقع مهدي أن يكون هو قد أصبح في صورة شيخ بلغ أرذل العمر، فإذا كانت خليعة بهذا الحال، فإنه لا شك أسوأ.

وهكذا اعتزم أن يرتاح بعض الوقت في منزل الشيخ
الوشاح، ومن ثم يغذي نفسه بالعنب، ويتناول الزبيب الأسود
الذي يشاع أنه يعيد للكهل شبابه. لا يدري أين سمع هذه
المقولة، سيفعل أي شيء يعيدهما إلى سابق عهدهما قبل
دخول السجن، وليته يجد كسرة مرآة صغيرة ليطمئن على
شكله. وبينما هو يفكر بأشياء كثيرة غابت عن ذهنه في
السجن، خرجت خلية من بيت أهلها باكية تركض بخفة
أرنب بري، فلحقها بأقصى سرعة، إذ أصبح خفيفاً كالريشة،
متمتعاً بلياقة بدنية عالية منحها له التدريب المضني في فناء
السجن، وأمسكها من الخلف، فتملصت منه صارخة بثورة:

- لم تعرفني شقيقتي دليلة! لقد ظننتي عرّافة أقرأ الكف،
وطلبت مني أن أتنبأ بمكان شقيقتها الضائعة.. ماذا فعلوا بنا
في السجن؟

ضحك رغباً عنه، ثم استعاد جديته، وقال باهتمام:

- لقد ألبسونا قناعاً بشعاً، لكننا على قيد الحياة.

- لا تضحك، عشيرتي تبحث عنا، وقد زاروا دار الشيخ بعد
أن أخذونا للسجن.

هل غدا المرور على منزل الشيخ خطيراً؟ سأل نفسه، وفكر
باستغراق. لكن لم يعرفها أحد من أهلها، ولن يصدّقوا أنها
خليلة الشابة البضة، وبقدر ما لهذا الأمر من مرارة فإن له
فائدة أيضاً، فالقبح صار جواز مرورهم الجديد، وسيقودهم

إلى أي مكان، أجب أن يكون المرء دميماً لينجو من القدر
المشؤوم الذي ينتظره!

-18-

اقتربا بخفة من منطقة سعوان. كان المعسكر خاوياً على
يمينهم، بينما شجيرات العنب مقطوعة ويابسة، ولم تعد تظهر
منها سوى سيقانها الجافة، والأوتاد التي نُصبت لتتسلق عليها
الأغصان، بدت فوارغ القذائف مشتتة في طريقهم، وبرك
الدم الصغيرة جافة على التراب، مخضبة بعض الأحجار. بدا
واضحاً أن معركة رهيبة دارت في ذلك المكان.

كان الصمت مطبقاً بمحيطهما، والكلاب رابضة بكسل تهشّ
الذباب والحشرات بذيولها الطويلة، الجدران الخارجية للدار
مشققة مكفهرة، ولم يستقبلهم أحد قرب الباب، وحين دخلوا
على أهل المنزل لم يلقوا شيئاً من الحفاوة السابقة، لكنهم لم
يرفضوا منحهم ملابس جديدة بدلاً عن ملابس السجن القذرة،
واعتذروا لعدم قدرتهم على استقبالهما كما حدث في المرة
الماضية، لأن الحال لم يعد يسراً أحداً.

ارتدى مهدي الثياب التي رموها له، وسار ليلقي نظرة أخيرة
على الشيخ المحتضر، بينما ارتدت خليلة ثوباً عتيقاً وستارة
حمراء من مخلفات الجدّة، كما استعادت منهم حقيبتها
بامتنان، وجلست بجناح الحريم في انتظار رفيقها، بينما
أخذت النسوة يشرحن لها عما جرى للمكان بعد اعتقالهم.

قطع الجنود أعنابهم بالفؤوس ظناً منهم أنهم تعرضوا للخيانة، ثم زحفوا على المتمردين، وحاصروا قرية بيت اللهيدة، ثم اقتحموها في المساء. وكانت مدافعهم لا تسكت ليلاً ونهاراً، وأشاع المتمردون الملكيون أن الجنود المصريين اغتصبوا النساء وهتكوا أعراضهن في غرف نومهن، وبعثوا بالنكف^{٢١} إلى معظم قبائل حاشد وبكيل، فأنت مواكب المحاربين من قبيلة عبيدة في الجوف وقبائل أرحب ونهم وبني مطر وبرط وبني سريح، وغصت ضواحي صنعاء بالآلاف منهم، ثم تقدّموا باتجاه سعوان، وزحفوا تحت جناح الظلام وحاصروا المعسكر، ودارت بينهم حرب مستعرة - لا يمكن وصفها. كانت مزارعهم مسرحها، واقتتلوا والمصريين وجهاً لوجه ليلة كاملة، حتى تناثرت الجثث من الفريقين وكأنها أوراق الخريف. ولم يسعف الجنود والثوار إلا سرباً من الطائرات المصرية، قصفت مواقع المهاجمين بالقنابل الحارقة والصواريخ، فاندحروا إلى الجبال القريبة، وتدخل مشايخ رجال القبائل المواليين للثورة كاشفين حيلة الملكيين، وأكّدوا للمهاجمين إن الاغتصاب إشاعة دنيئة يراد بها تقويض الثورة، وجاء بعض أهالي قرية بيت اللهيدة، ونفوا ما قيل جملة وتفصيلاً، فانسحب رجال القبائل إلى مناطقهم، وعاد كل شيء إلى حاله.

حين دخل مهدي مجلس الرجال، كان الشيخ متجمداً على فراش عتيق، وأولاده ولفيف من الزوار يحيطون بفراشه

^{٢١} النكف هو نداء ترفعه قبيلة ما طالبة من القبائل إمدادها بالمحاربين لرفع ظلم كبير لحقها.

خائفين، بدا وجهه مغبراً شاحباً، وثغره منفرجاً قليلاً وكأنه يوشك أن يتكلم. ولما صارت عيناه مفتوحتان مثبتتان بالسقف، أتى مهدي وأطبق العينين الهامدتين والفم، ثم انتحى جانباً وهو يقرأ على روحه شيئاً من ابتهاج ركد في رأسه منذ كان في القرية، ومضى يحدّق في المنزل من الداخل محتاراً وكأنه يزوره لأول مرة، أو لا يدري ما يفعله في مثل هذه اللحظة المؤسفة. تقدّم صوب أبناء الشيخ المتسمّرين المحبطين، وتمتم بعبارة تقال دوماً لأقارب الميت: "عظم الله أجركم في والدكم"، وامتدحه ببعض الكلمات الصادقة، فانتحوا جانباً بأسى واضح لم يصل إلى حد البكاء، ثم أحاط بهم بعض رجال عشيرتهم، والآخرين ذهبوا يرتبون للجنائز، فأسرع مهدي وخرج من الغرفة الكئيبة وانتظر خلية خارج الدار.

وسرعان ما خرجت بصورة جديدة، بدت له أكثر آدمية مما كانت عليه بملابس السجن، وظهر هو أيضاً في صورة معقولة رغم شكله المضحك. كانت ملابسه ملفتة للنظر، غليظة ذات لون أخضر ومزدانة بخطوط سوداء، ابتسمت كرهاً، وقالت إنه يشبه باعة الماشية في سوق نُقْم، ولم يأبه بابتسامتها وكلامها عن شكله، وحثّها أن تتفقد حقيبتها، فألقت نظرة إلى أعماقها، ولم تجد شيئاً ناقصاً، مازالت مصاغها ومالها الذي كسبته من زواجها الأول في مكانه. تهلل وجه مهدي لهذا الخبر، وأفصح عن أسفه للسؤال عن مالها، فالسفر يعوزه هذا الورق، ولن يعودا إلى القرية خاويين

فقراء، أما ماله المختبئ في حذائه، فقد صرف جزءاً منه في السجن، والجزء المتبقي تعرض للبلل والرطوبة، وقد بهت لون الأوراق ومحيت كتابتها، كما التصقت بحيث صعب عليه أن يفصلها عن بعضها.

أعلنت خليعة أن لديها ما يكفي من المال، ونظر إليها ممتناً. بدت له مغرية منتفخة وسط ملابس الجدة الضيقة، ولاحظ أنها تسير ببطء مترنحة، وبين حين وآخر تضع راحتها على سطح بطنها المتكورة. بدت شاردة مغمومة بوضوح، فقال بخوف:

- هل تؤلمك بطنك؟

- قليلاً.

- إنها تبدو منتفخة، هل أكلت طعاماً في بيت الشيخ؟

- توقف عن إزعاجي، إنها تؤلمني.

- هل تخفين عني شيئاً؟

- نعم، هناك ما أكتمه عنك، وأخشى أن تغضب.

- تبدين حاملاً، أتمنى ألا أكون محقاً.

نكست رأسها وقالت بمرارة:

- ها أنت حزرت الأمر، إنه ابن المقدم اللعين.. ماذا أفعل؟

- وا مصيبتاه، أهالي سحمر يظنون أنني عقيم، كيف نتخلص

من هذا الجنين المصري؟

- أخشى أن أندم على فقدانه، وقد بدأت أحس بحركته
وركلاته.. لا ذنب للمسكين.

ونظرت إليه بارتباك وخوف، فنزلت دموع حارة من عينيه
مسحها سريعاً، وفكر محتاراً: ماذا يفعل؟ لقد رحلوا مخلفين
أحدهم عنده، يا للأقدار العجيبة، في البداية عزّ عليه أن يعود
إلى قريته بامرأة غريبة، وهاهو طفل غريب في أحشائها
ينضم إليهما! بمَ يرد على تساؤلات القرويين؟ هل يدّعي أنه
تناول علاجاً يفك العقم؟ وكيف يبرر لهم أنها امرأته دون عقد
شرعي؟ أما الجنين فلا ضير من وجوده، وقد تمنى ذات يوم
أن يتبنى طفلاً في داره، ما المانع أن يربيه ويرعاه؟ ولعله
يكون ولداً صالحاً، وهل كل القرويين أبناء لآبائهم الحقيقيين،
لا أحد يجزم بذلك، ما أجمل أن يكون له طفل! لقد حصل
على امرأة حامل دون أن يخطط لذلك، لا يدري أهو حظ أم
نحس، لن تفرح عاتقة حين تراها بجانبه بالتأكيد، بل ستغادر
بمجرد أن تدخل هذه المرأة منزله، وقد تشكوه إلى وجيه
القرية، وفي هذه الحالة سيقع بمأزق حقيقي، وحتماً سيسأله
الوجيه قحطان الذرب عن تكون، ولن يستطيع أن يدّعي
بأنها امرأته دون "عقد نكاح" كما يدعو الإمام المسجد،
وسيضطر أن يصارحه بأنها امرأة تائهة استجارت به
وأجارته سابقاً. ووجيه القرية رجل لنيم رعديد يخاف من
ظله، سوف يضخم الأمور ويثير الشكوك، وربما يعيد
المسكينة إلى أهلها، ولا يملك إلا أن يدعها بمكان ما بعيداً
عن عيون القرويين...

وسألته خلية فجأة:

- أتفكر في التخلص مني؟

قال بكدر:

- قطعاً لا، لكن خطر لي أن تقيمي في منزل إيجار في يريم،
وأزورك من وقت لآخر.

- أهذا ما تريده فعلاً؟

- لا، إنها مجرد فكرة، هل لديك خطة ما؟

- لنخرج من هذه المدينة اللعينة أولاً.

- نعم، يا لها من فكرة جسورة!

نظرت إليه بتوجس، لم يكن يسخر كما يبدو، واخترقا طريقاً
مختصراً تعرفه خلية، حتى بلغا منطقة باب اليمن، حيث
محطات السفر، ووقفا في انتظار شاحنة تسافر إلى يريم،
وأنت واحدة قديمة يتصاعد الدخان من مؤخرتها بكثافة،
فركبا قرب السائق بأجر مضاعف، بينما صعد على
صندوقها مجموعة عمال مميزين بملابسهم البالية المتربة،
وانطلقت الشاحنة، وفتح السائق المذياع، وحرّك مفتاح
الموجات، وتهلل وجهه حين سمع موسيقى برنامج
اسمه "العائلة السعيدة" تبثه إذاعة صنعاء، ويستهلّه المذيع
عادة بالحديث عن مشكلة ما تعاني منها بعض العائلات. كان
يتكلم كالواعظ عن ضرورة الالتزام بطاعة الوالدين، والحفاظ
على التربية الدينية للأسرة، ويأتي بآية من القرآن، وحديث

للنبي، وقول من أقوال الرجال الصالحين، بينما السائق يهز رأسه بتأثر، وكأنه وجد حلاً لما يعانيه من مشاكل، وشحن هذا البرنامج قلوبهم بالحزن، وانهمرت الدموع من عيني خليلة، وأوشكت على العويل، وفكر مهدي أن يطفئ المذياع، ثم خشي من ردة فعل السائق المستمتع، وشعر أن اسم البرنامج لا يناسب محتواه، وهذه المواعظ يسمعها دائماً من إمام المسجد في القرية، كلاهما يسعى إلى قذف الحزن إلى قلوب سامعيه، وهاهي خليلة تظن أن المذيع يوبّخها ويحاول تذكيرها بتمردها على أهلها، وحينئذٍ حمد لها تحطيم ذلك المذياع على جدار الكوخ، وخطر في ذهنه السجن وأحلامه وأيامه الجميلة التي لا تخلو من الحركة والإثارة، وشعر أنه قضى هناك وقتاً ممتعاً لا يمكن أن يتكرر.

قطعه عن أفكاره صوتها الهامس بتوتر:

- أطفئ المذياع، إنه يحزنني ويزدريني.

أجاب بأسف:

- لا أستطيع، انظري، إنه برنامج المفضل. هل تستطيعين تحطيمه كما فعلت بمذياعي؟

- لا أستطيع.. افعل ذلك أنت.. إنه أمامك، وأنت الرجل.

- لم يتغير شيء، خرج الناس من قمقم صدى إلى آخر. هذا هو السجن الحقيقي.

- خطر هذا في رأسي قبل قليل.

- بوسعنا التشاغل عنه بالنظر إلى الخارج، أو التفكير بأحلام
سجن العرّضي.

- متى ينتهي هذا الرجل البغيض عن الثرثرة؟

وفي الختام بثّ مُقدّم البرنامج مناقشة للمستمعين عن يعرف
مكان امرأة مفقودة منذ عامين في العشرينيات من عمرها
تدعى خليفة أحسن الباكري، وأن من يعرف عنها شيئاً أن
يبلغ عائلتها القاطنة في الغيل الأسود، وله مكافأة كبيرة
تساوي عشرة آلاف ريال... وأطفاً السائق المذيع وفغر فاه
على مصراعيه قائلاً بذهول:

- وووو، مبلغ كبير، أستطيع أن أشتري به شاحنة جديدة.. من
يستطيع العثور على هذا الكنز؟! إنه محظوظ.

ضحك مهدي قائلاً بجذل:

- أنا محظوظ بالكنوز.

التفت إليه السائق قائلاً بتهكم:

- أنت أيها الشيخ! انظر إلى نفسك في المرأة. هل مازالت
تستطيع النظر؟

عكس الرجل المرأة العلوية باتجاه مهدي، فلم يجرؤ على
تصفح وجهه، وقال بضيق:

- لا تشغل نفسك أيها المتحذلق، فأنا أعرف نفسي.

وصمتوا وبقيت خليعة تجاهد دوار السفر، وزاد هذا الخبر من معاناتها. أفراد عشيرتها يبحثون عنها، ليتهم يعلنون موتها، ويتلقون التعازي، وينسون أمرها.

كانت النافذة مفتوحة يهب منها هواء قوي، فاستطاعت أن تنجو من الغثيان. بينما جعل مهدي يشجع نفسه، ثم رفع عينيه ببطء إلى المرأة مستغلاً انشغال السائق بالمذياع، وذعر من شكله الجديد. وجهه أسمر أشيب ويشبه سكان السواحل، وقد رأى سجناء من الشحر والمخا وميدي، كانوا صيادين بالبحر، واتهموا بنقل الملكيين بقواربهم إلى الجزر، ومع ذلك لا يجب أن يهتم، لأنه لم ير صورته من قبل... قاطع السائق أفكاره قائلاً فجأة:

- هناك نقطة تفتيش قريبة، يتصفحون وجوه الرُكَّاب لاسيما النساء.. لا أدري، لعلهم يفتشون عن المرأة المفقودة التي سمعنا عنها في المذياع.

- هناك مفقودون كثر في الحرب، والبعض سُجنوا لسبب ما دون أن تدرك عائلاتهم أين ذهبوا.

لم يعلّق السائق على تفسيره للأمر، وكأنه يوافق الرأي أو لا يكثرث بالمفقودين، وغرقوا في الصمت ثانية، وبدا أن كل شخص من الثلاثة يدور في فلك خاص به دون أن يلتقوا. كانت الأفكار الغزيرة تهطل أثناء سير الشاحنة، ويصبح العقل مثل كتاب مفتوح تفر صفحاته الواحدة تلو الأخرى، وتجذبك تسافر إلى عوالم مختلفة. وهكذا دار الوقت بسرعة

كبيرة، وانطوت الطريق، ووصلوا إلى قرب نقطة تفتيش تابعة للثوار، وظهر برميل منتصب وحوله ثلاثة رجال أشكالهم مختلفة، أحدهم يلبس زياً عسكرياً رثاً من مخلفات الجنود المصريين، وآخر يتزر بمنزر قصير ويعتمر عمامة رجال القبائل، في يده رشاش كبير يبرزه بشكل طولي منذراً المركبات المسرعة بالتوقف، والثالث رجل راشد غير مسلح يرتدي ملابس وجهاء مدينة صنعاء، أخذ يفحص بعينه وجوه الركاب، وما لبث أن طلب من سائق الشاحنة أن يوقفها جانباً، فهز رأسه بإذعان ومال ناحية اليمين، ثم نزل ليتفقد محرقاتها، فأمسكت خليعة بذراع مهدي وهمست مشيرة إلى الرجل:

- إنه أحمد زوج أختي فضيلة وهو من وجهاء عشيرة الباكري.

- أششش، ابقى هادئة.

وجاء الرجل بخطوات حثيثة، وأشار لهما بالنزول من مقدمة السيارة، وطلب من مهدي السماح له بعرض ابنته على امرأة في الكوخ، دون أن يفصح له شيئاً عن السبب، وكان هذا غداً تقليداً مفهوماً للجميع، وسارت خليعة وهي تمسك ببطونها، إلى كوخ صغير قريب يشبه الأكواخ المشبوهة التي تمارس فيها الدعارة في بعض الأحياء الشعبية الفقيرة، ودخلت الكوخ بتوتر، ورأت فضيلة - وهي شقيقتها الكبرى من والديها - واقفة وسط الكوخ بتحفز، وأوشكت أن ترتمي في أحضانها، ثم انتبهت إلى وضعها الحرج. وسرعان ما طلبت منها

شقيقتها أن تخلع لثامها، وبمجرد أن رأتها أشارت لها أن
تنصرف قائلة ببرود:

- اذهبي.

- فضيلة.

فزت شقيقتها وسألتها بارتياب:

- كيف عرفت اسمي؟

أجابت بتلعثم:

- أخبرني ذلك الرجل.

- أوه، إنه زوجي، رافقتك السلامة.

- وداعاً يا فضيلة.

أسدلت لثامها على وجهها الحزين، وخرجت بخطوات واسعة
مضطربة، لقد خاطبت أختها بلا كلفة، وربما تعرّفت إلى
صوتها، وستدرك عاجلاً أم آجلاً أن أختها المفقودة قد
خاطبتها وأفلتت من أمامها، فالإنسان جُبِل على استرجاع
المقاطع المهمة من ذاكرته، وقد رأت عيني فضيلة تلمعان
بارتياب وهي توّدّعها، لكنها غادرت قبل أن تتيقن شقيقتها
بأنها هي خليعة، فالوجه مختلف تماماً، وليس هناك سوى
الصوت.

كان السائق يضغط على دواسة البنزين بنفاد صبر، فصعدت
بسرعة. وهمس مهدي بقلق:

- امسحي دموعك، وقولي لي ما حدث.

- لا شيء، سأخبرك لاحقاً.

ونظرت في المرأة الجانبية، ورأت شقيقتها منتصبه عند باب الكوخ تنظر باتجاه الشاحنة المبتعدة، وتلاشى الكوخ رويداً حتى اختفى، وغاصوا وسط تلال وهضاب ميته منحدرين صوب القيعان الخصبية. تمننت لو تدرك ما يدور في ذهن شقيقتها في تلك الوهله. لم يكن هناك سيارات كثيرة، كان الطريق يبدو خاوياً، وبين حين وآخر تظهر شاحنة نقل تطلق بوقها المزعج، فيرد السائق بإطلاق صوت أكثر صخباً، ثم يدير مفتاح الموجات المختلفة باحثاً عن شيء يسمعه، ويصغي لكل شيء باهتمام، وأحياناً يبدو شاردأ في جهة مجهولة، لعله يفكر في عائلته، قد يكون لديه أمأ أو حتى جدة هرمة أو امرأة وأطفالاً.. من يدري، إنها حياة غريبة، شخص يؤوب إلى عائلته، وآخر يهجرها للأبد. كانت خلية تفكر بحالها وتودّع ماضيها، بينما كانوا على نقيـل "يسلح" هابطين وسط دوامة من اللقات والانعطافات الحلزونية، وهناك رشحت من جسدها كل السوائل المخزونة داخله: الدموع، والبول، والقيء. واستمرت الشاحنة تأكل الطرقات بدأب، حتى مالت الشمس في السماء وظهر الشفق أخيراً.

دخلوا مدينة يريم عند المغيب، ورماهم السائق قرب مبان حكومية متهاكة تحيطها حقول شاسعة محاطة بسياج من الأحجار، وادّعى أنهم وصلوا إلى المحطة الأخيرة، وبدا غير مهتم بما سيفعلونه بعد نزولهم، ولم يجهد نفسه بالتفكير عن

موضع مناسب يبيتون فيه، وأجاب على سؤالهم قائلاً بقحة:
"لا شأن لي، على كل راكب أن يتدبّر شؤون نفسه هنا، وها
قد أنهيت عملي". ثم أدار شاحنته ومضى، وانتبه مهدي أن
السفر المبكر كان سيوفّر لهما فرصة ثمينة للبحث عن بيت
للإيجار، وها هو يكتشف أن المدينة أمست كالمنطقة
المعزولة الموحشة، كان الظلام قد أطبق على المكان،
والشارع شبه خاو من المارة. وشعر مهدي بالحيرة، لا
يدري أين بوسعهما المبيت في تلك الليلة، ليس لديهما معارف
هنا أو أقارب، كما لا يستطيعان أن يقطعاً مسافة عشرين
كيلومتراً في الظلام باتجاه القرية، الشاحنات نادرة، ولا
تخاطر بالسفر ليلاً، ومع ذلك اقترب من شاحنة متوقفة على
قارعة الطريق، وأغرى صاحبها بالمال، لكنه اعتذر بلطف،
متذرعاً بانشغاله بنقل حمولة لأحد التجار، ونصحه أن يبيت
في فندق "يحصب"، وهو الوحيد في المدينة، يقع على
الشارع العام غير بعيد عن موضعهما، كان يحدثه بوجه باسم
مفعم بالأنس، هاهو أخيراً يجد سائق شاحنة طيب، ليسوا
جميعاً أو غاداً كما كان يظن.

اقتنع في النهاية بأن لا خيار لديه، فسار وخليلة وسط شارع
مقفر إلا من بعض المساكن والمارة. كانت هنالك بضع
متاجر مضاءة بمصابيح الكاز، تمنحهم ضوءاً مجانياً، وتقيهم
من هجمات الكلاب الضالة المنتشرة حول الأراضيات
المحفورة والمباني الخاوية التي مازالت في طور التشييد،
ومن حين لآخر تصافحهما أضواء بعض الشاحنات المهرولة

خارج المدينة. أخيراً اقتربا من الفندق الأبيض الصغير،
وشعر مهدي بالإحباط حين رآه، كان بثلاثة طوابق في
موضع محتشد بالمساكن، ولكنه يبدو أصغر حجماً من منزل
الأجير حُمادي الحبيشي، واحتمال الحصول على غرفة
فارغة فيه بدا ضئيلاً، ومع ذلك تقدّما وسط دهليز ضيق،
ورأيا شخصاً منكشاً خلف حاجز خشبي قدر، ما لبث أن
أخرج رأسه بحذر وكأنه جندي في ساحة قتال، وقال
بسرعة:

- هل تريدان غرفة؟

ردّ مهدي بامتنان:

- نعم، بارك الله فيك يا بني.

- خمسين ريالاً، وبطاقة تدل على هويتكما.

سدده ورقة خمسين، ولم يفهم ما يعني بالجزء الأخير من
عبارته، لكنه ربما حدس أن على كل نزيل في الفندق أن
يبرز اسمه أو ما شابهه، لا يدرك من أين حصل على هذه
المعلومة، ربما في السجن وهو الأرجح، لأن معظم معلوماته
كسبها هناك، من المصريين أو من رفاقه السجناء، فقال بثقة:

- اسمي مهدي نصاري وهذه امرأتي...

- خلية.

نطقت اسمها بجرأة وسكنت، فالتفت إليها ممتناً من جوابها
السريع الذي أنقذه من التلبك أمام هذا الموظف الذي لا تظهر

ملامحه وانفعالاته رغم الضوء الأصفر للشمعة التي بجانبه،
غير أنه بدا أكثر عناداً مما توقعنا، إذ قال بفتور:

- أريد بطاقتك الشخصية، ووثيقة زواج أيضاً.

- لا تعقد الأمور يا بني، كل ما في الأمر أننا نريد غرفة
نبيت فيها حتى الصباح، لأن قريتنا بعيدة.

- سوف أكتفي بوثيقة واحدة، اجلبا ورقة مختومة من إدارة
الأمن، أو عقد نكاح من الأمين الشرعي يثبت أنكما زوجان.

- الوقت متأخر يا بني، ونحن متعبان جداً.

- منزل الأمين الشرعي أمام الفندق تماماً على الرصيف
الآخر.

بهذا قطع عليهما السبيل، فخرجا بياس، ووقفا على الرصيف
المقابل للفندق، يتأملان المنزل، واستطاعا على ضوء شاحنة
قادمة أن يقرأ لوحة معدنية ذات خط مكسر: "منزل الأمين
الشرعي ثابت وهبان". وطرقا باباً وحيداً على واجهة البناء،
فخرج فتى يافع، وأذن لهما بالدخول دون أن يسألها شيئاً.
بدا وكأنه كان ينتظرهما، قادهما إلى غرفة مفروشة نظيفة،
تتوسطها طاولة خشبية عريضة، تتناثر عليها أوراق كثيرة
ومحابر تالفة وجديدة وأقلام غليظة، وعلى رف جانبي
صغير تجثم شمعة كبيرة الحجم ساطعة النور. شعرا بالراحة
والدفء، كانت المدينة باردة وشوارعها قدرة، ويعدّ هذا
المكان استثناءً فريداً. نظر كل منهما إلى الآخر، وهمست
خليلة بصوت متعب:

- هذا المكان دافئ، لبيتنا نبيت هنا.

- لم يسبق لي أن عرفت ليل هذه المدينة رغم أنني أتسوق فيها دائماً.

وانتظرا بعض الوقت، ثم أقبل رجل ممتلئ يلبس ثوباً أبيض ونظارة عاجية وعمامة، ذو شعر أشيب ولحية بيضاء مشدبة بعناية، يوحي شكله بالوقار وسعة العلم، لكنه من عينيه الضيقتين المخاتلتين بدا متوتراً. حياهما بعجل، وما لبث أن أوصد باب الغرفة خلفه، وأسرع إلى الأوراق والقلم والمحبرة متجهماً، ثم ما لبث أن قطب جبينه، وأصلح وضعيه نظارته، وتحنح، ثم شرع يقول بنبرة دينية خالصة: "اسمعا، لقد ورد في القرآن أن أبغض الحلال عند الله الطلاق". وطلب منهما أن يصطلحا على يده ثم يمنحاه أجر الصلح ويعودان إلى دارهما بسلام و...

قاطعه مهدي قائلاً بعصبية:

- اطمئن يا أخي، نحن لا نريد الطلاق، إننا نطلب منك عقداً شرعياً يثبت أننا زوجان.

- أووه، سامحاني، معظم الأزواج المتشاجرين يأتون ليلاً خلسة من الناس. حمداً لله، أنتما إذن تطلبان ورقة شرعية.. نعم، لكن، هل أنتما زوجان أم تريدان الزواج؟

- وما الفرق؟! أعطنا ورقة تثبت أننا زوجان، لأننا نريد أن ننام في هذا الفندق البغيض إلى الصباح، وهذا كل شيء.

ردّ الأمين الشرعي بتوتر مفاجئ:

- اسمع أيها الشيخ، هذه الأوراق الشرعية ليست موضع هزل أو لعب، هناك شهود، وولي أمر المرأة ينبغي أن يكون حاضراً، وحتى وجيه القرية أو عاقل الحيّ الذي تسكنه، هل تستطيع أن تجمع هؤلاء الآن؟

- اسمع يا أخي، نحن متعبان بفعل السفر، ولا نستطيع أن نجتمع هؤلاء الناس في هذه اللحظة، افعل شيئاً، أرجوك...
- سامحاني، هذا فوق طاقتي.

أمسكت خليلة حقيبتها، وأخرجت ورقة مائة ريال جديدة تلمع بإغراء وسط الضوء، وقذفتها إلى أمام الرجل، فحكّ رأسه وجعل يقول مدارياً طمعه وخجله:

- رباه، ماذا أفعل؟ لقد جنّتما إلي في الليل، لا أستطيع...

وجعل يتحرك في الغرفة، وكأنه يبحث عن شيء ضائع، ثم عاد متثاقلاً إلى أوراقه، وأخذ يحكّ ذقنه بقوة، وكأنه يخشى اقتراف شيء فظيع، لكن خليلة وهي امرأة ترعرعت في المدينة، وتعرف ما يدور فيها من الأعيب ومخالفات، لم يعجبها التصنّع والادعاء، فغمزت بطرف عينها بإشارة يفهمها المرتشون وحدهم، وكأنها تنبئه بأن هذا أمر طبيعي، ويحدث دوماً، فالعشاق يتزوجون خفية بعقود شرعية، ويظل الزواج طي الكتمان. كل ذلك دار بينهما بالنظرات، دون أن يفهم مهدي ما يجول حوله من إشارات.

وأخيراً قال الأمين الشرعي بضيق: "نحتاج شاهدين، وقليل من الزبيب". أخرجت خلية ورقتي عشرين وعشرة، ووضعتهما أمامه على الطاولة بضربة سريعة أصدرت صوتاً، وقطبت حاجبها بإشارة واضحة تتم عن نفاذ صبرها، وسرعان ما استبدل لهجته المتكلفة وأردف متبسماً: "على بركة الله"، ثم نهض وغادر الغرفة بحمية، وعلى إثر ذلك سمعا صوت أقدام سريعة خفيفة وصرير الباب الخارجي، وآب خلسة وجلس صامتاً يتفرّس في أوراق أمامه، وهمست خلية في أذن مهدي أن كل شيء يمشي على ما يرام، وأبدت رغبتها أن تنسب اسمها إلى رجل ما في عائلته، فأخبرها أن هذا الأمر مستحسن، وأن لديه عمٌ يدعى غالب نصاري، اختفى في شبابه، ولم يعرف أحد مصيره، وبوسعها أن تنتمي إلى هذا العم المفقود. وبعد قليل دخل رجلان، وجيء بالزبيب، وشرع الأمين الشرعي يجري طقوس العقد، فشبك يديهما، وزوّجهما، ولم يستغرق هذا سوى قليل من الوقت، ثم مضى يكتب العقد باسميهما، ونسبت خلية نفسها إلى عائلة "نصاري"، وزغردت النساء في منزله حين نثروا الزبيب.

بعد ذلك عادا إلى الفندق ومعهما الوثيقة، وترك مهدي خلية تتفاهم مع الموظف بطريقتها الخاصة، فاستطاعت بإكرامية صغيرة أن تدعه يفرد لهما أدفاً غرفة متوفرة، وأن يجلب لهما طعام العشاء ودثارين ثقيلين، وشمعة كبيرة كالتى كانت في غرفة الأمين الشرعي.

حين سألها مهدي كيف اكتسبت الخبرات التي رآها قبل قليل،
أخبرته أنها كانت تفاوض عملاء والدها قبل أن ترتبط
بالمضابط، حتى صارت تشرف على بيع محاصيل العنب
وتتقاضى الأجور، ومكثت تزاوّل إدارة أملاكهم حتى بعد أن
ماتت أمها بمرض غامض، ولما جاءت امرأة أبيها
المتغترسة سلّبت منها كل شيء، وسدت أمامها كل منفذ،
ولم يستطع الرجل الكبير السن أن يكبح تسلّطها، فأضحت
تحكم قبضتها على الأموال ووثائق ملكية المزارع، وتحالف
الإخوة الذكور معها، وفرحوا لارتخاء قبضة شقيقتهم التي
كانت تتحكّم في نفقاتهم، وصاروا يضيّقون الخناق عليها حتى
زوّجوها بذلك المضابط الثائر، وكل ذلك لكي يخلو لهم الجو
للتصرف في الأموال، وهكذا انتهى بها المطاف حبيسة في
قصر واسع لا تجد هناك ما تفعله، ولم تعد تكثر بأي شيء
يدور في منزل والدها.

في الصباح قادتهم شاحنة قديمة إلى قرية بعيدة، وقطعا بقية
الطريق سيراً على الأقدام، وظلّ مهدي يطوّح بيديه مشيراً
إلى القرى والتلال والحقول، وراح يعرّفها بأسمائها، وكل
ذلك ليشغلها عن الوحشة التي أطبقت على ملامحها.

وصلا إلى مشارف القرية قبل الظهر، وقال مهدي نصاري
بنشاط:

- هذه قريتي سحرّ.

ردت خليلة بصوت ذي صدى كمن يدخل كهفاً:

- والاه، تبدو قديمة جداً تحيط بها الأطلال من كل جانب.

- نعم، ليست في أحسن أحوالها الآن، لقد كانت ذات يوم عاصمة لمملكة قديمة مجهولة.

مرًا قرب مقبرة القرية، ولمح مهدي قبراً مازال حديثاً طري التربة، فقال بإشفاق: "تري من مات من الأهالي البارحة؟"، وتقدّم ناحية القبر، وقرأ السلام على روح صاحبه كما يفعل القرويون مع الموتى المجهولين، ثم انتفض فجأة، وأفصح عن قشعريرة التهمت جسده، فابتعدت خليعة وهي تقول إنها لا تحب الوقوف في المقابر، لأنها بالكاد هربت من فك الموت، فاضطر مهدي أن يغيّر سحنة وجهه المتشائمة ويتصنّع الفرح.

سارا وسط القرية بتهيّب، وأحسا بدفق اطمئنان وهما يشاهدان الحيوية تدب قرب المساكن. كان هناك رجال ونساء وأطفال وحيوانات أليفة مختلفة. ومنحت هذه الأجواء الغريبة خليعة بعض الغبطة، بدت لها مدهشة وفاتنة، بالقدر الذي تمنحه مدينة صنعاء لقروي يزورها لأول مرة. لم يعد هناك أي خطر يتعقبها، هذه القرية الكبيرة ستكون ملاذها الأخير، لن يشكّل قدوم امرأة جديدة إليها أي تأثير، ستختفي فيها إلى الأبد، وربما تدفن في مقبرتها الكئيبة، هكذا فكرت وهي تمشي.

كان مهدي يلقي السلام على كل شخص يراه، السلام عليك يا حمادي، السلام عليك يا قاسم، السلام يا محسن... واستبد

العجب بهؤلاء الأجراء، إذ يحييهم رجل غريب رافعاً الكلفة، وكأنه رافقهم ردهاً من الزمن، ووقفوا يحملقون بأعينهم إليهما، وقد أطل الخجل والفضول من وجوههم وعيونهم، لم يكن لائقاً اعتراض طريق هذين الغريبين، وسؤالهما عما يريدان، فقد يكونا قريبين لأحد الملاك أو ضيفين لأحد الأجراء، أو حتى شخصين تائهن ضلاً طريقهما، وسؤال عابر سبيل عن وجهته قد يفسر على أنه خوف مضر من استضافته، لذا تركوهما يسيران، مكتفين بالنظر والمتابعة. وأطلت رؤوس بعض القرويات من النوافذ، ونظرن إلى الزائرين نظرات متسائلة.

كانت الأرملة جالسة عند باب منزلها كما تركها مهدي قبل سفره، ولم يستطع تجاهلها رغم رغبته أن يتحاشاها بفعل وجود امرأة إلى جانبه، لكن لا يبدو أنها تعرفت عليه فصاح:

- السلام عليك يا جوهرة.

قالت باضطراب:

- وعليك السلام، هل أعرفك يا أخي؟ صوتك لا يبدو غريباً!
- ستعرفين من أكون قريباً.

قالها دون أن يتوقف عن السير، لم يكن يحبذ أن يكشف نفسه أو يثرثر، فالقرويون لن يقدرُوا حاجتهما للراحة، إضافة إلى أن خلية حامل، وستتوالى الأسئلة والظنون، وهو بغنى عن ذلك، ولقي جاره معوض قرب داره، فسلم عليه باسمه، وسار متجاهلاً دهشته، واقترب من باب منزله بثبات، وفوجئ وهو

يرى الباب الخشبي العتيق مقفلاً، فخرج ناحية الزريبة، وهناك وجد البقرة والحمار يأكلان الحشيش الجاف، وهما لم يعتادا على أكله قط، إذ توقّر لهما امرأته العشب الطري كل يوم. أين ذهبت عاتقة يا ترى؟ سأل نفسه بعجب، وعندما التفت رأى جاره معوض يقف خلفه متجهماً غاضباً، ما لبث أن صرخ في وجهه:

- من أنت يا هذا؟ لا يجوز لك أن تنتهك ملكية جاري مهدي أثناء غيابه.

- أنا مهدي يا معوض، أما زال أبناؤك يقلقون راحتك؟

- هل قلت مهدي؟

- نعم، لقد تغيّرت ملامحي في السجن. سأشرح لك كيف حدث هذا لاحقاً، فأنا متعب الآن، ولا أدري أين ذهبت عاتقة!

- أوووه، جاري مهدي، أهذا أنت يقيناً؟ سامحني إذن، لأنني سأزف إليك خبراً سيئاً، البارحة في المساء...

قاطعه قائلاً بكدر:

- لقد رأيت قبرها عند عبوري القرية، ماذا جرى لها؟

- حمى باردة إضافة إلى إسهال وقيء شديدين منذ بضعة أيام، وقد عالجها الصوفي عطية دون جدوى.

وقدّم له مفتاح المنزل، ثم ذهب إلى وجيه القرية ليخبره عن عودة جاره مهدي. ولم يتسنّ لهما الراحة سوى القليل من الوقت، حيث أقبل قحطان الذرب والمراغة والأهالي،

يحدوهم الفضول إلى رؤية الأجير المختفي الذي حسبه هلك مثل معظم المنقبين. بدا واضحاً أنهم جاؤوا للعزاء ولا يحملون له أي نية سيئة أو ملام على ما جرى، فالقرويون سرعان ما ينسون أحقادهم، ويضعون الحوادث الغامضة في خانة القدر. يومئذٍ لم يجد أقارب العمال أمامهم أي شخص يلقون عليه وزر موتهم، وقد فرحوا حين عرفوا بعودة مهدي، على الأقل ليطلعهم عما جرى لأقاربهم، لكن الوقت لم يكن مواتياً، فهو حزين، ويجب أن ينتظروا انقضاء أيام العزاء العشرة.

اضطر مهدي أن يستقبل الجميع، وأن يهز رأسه بحزن مجيباً على عبارات تعازيهم. كان حزينا فعلاً على امرأته، فقد عاشا دهماً في الدار العتيق.

لم يمض أسبوع حتى كانت خلية قد تعلّمت كيف توقد الحطب وتطهو الطعام على التّور الطيني، كما علّمتها جاراتها كيف تصنع الفطير والخبز المحليين دون أن تحترق راحتها، ولاحظت النساء حملها، ولم يستطعن سؤالها عما يجول في نفوسهن، فالناس في أيام العزاء يحترمون مشاعر أهل الميت، ولا يثيرون له المشاكل، وبعد أن انقضت الأيام العشرة، استطعن أن ينتزعن منها بعض المعلومات، فأخبرتهن أنها ابنة عمه المفقود غالب نصاري، وأنه عثر عليها بالصدفة عقب خروجه من السجن، فتزوجها. ولم يحصلن منها على أي تفاصيل أخرى.

وكذلك انفرد الرجال بالعائد ونظروا إليه بفضول، وسرعان ما أدرك ما يراد منه، فشرح لهم بالتفصيل ما دار في جبل الرزاعي وعن رحلته وظروف اعتقاله، ولم يتطرق إلى ظروف لقائه بخليلة والشيخ الوشاح، وادعى أن سجيناً حدثه عن امرأة بانسة تحمل اسم عائلته تسكن في أحد الأحياء الفقيرة، وحين خرج من السجن زارها في كوخها، فاكتشف أنها ابنة عمه غالب. كانت بلا عائل أو قريب، فتزوجها متأثراً بحالها البائس، وعاش معها بضع شهور حتى استطاع أن يقنعا بالعودة إلى قرية والدها.

خرج القرويون من عنده بين مصدق ومكذب، لكن الغالبية اضطروا أن يصدّقوه بتحفظ، فهو أجير نزيه لم يسمعه يكذب، وإن كان يبالغ قليلاً في بعض الأمور. وساورهم العجب لحمل امرأته الجديدة منه، كان البعض لديهم تفسيرات خبيثة لم يفصحوا عنها علناً، فالمدينة تضم داخلها الصالح والطالح والعفيفات والساقطات ومقطوعات النسب، وهناك تضيق الفروق بين الناس حتى لا يستطيع أحد تمييز هذا وذاك، وقد تكون هذه المرأة البانسة حملت من رجل غيره قبل الزواج أو بعده، من يدري...

لحسن الحظ أن مهدي لم يسمع ما يدور في مجالسهم المغلقة من نميمة خبيثة، وصار يجول في أرجاء القرية معززاً حضوره وصدقاته، حتى أنه جلس ذات يوم عند باب منزل جوهره ليحتسي القهوة كما كان يفعل في السابق، فعاتبته مازحة بأنه غاب عن عينيها مدة عامين، ثم عاد في النهاية

ومعه امرأة من المدينة، بينما ظلت هي طوال مدة غيابه تنتظره وتراقب الطرقات علّه يظهر، وضحكت للحظات، ثم انفجرت باكية بشدة، واستطاع أن يدرك أنها تعني ولدها بربر الذي لم يظهر بعد. فوعدها أن يطلق على المولود القادم اسم بربر إن كان ذكراً.

وفعلاً بعد شهر رزق بمولود أبيض سمين يشبه المقدّم، فأطلق عليه اسم "بربر" مكرهاً، وقال لنفسه بحنق: "لم أشأ أن أطلق عليه هذا الاسم، لكن شاء القدر أن يأخذ المصريون ذلك الشقي، ويتركوا لي هذا الجنين عوضاً عنه".

ولم يخفف من حدة حرجه وتقولات الأهالي السيئة سوى أنه رُزق بعد سنتين بمولودٍ ذكرٍ آخر حنطي البشرة، أطلق عليه اسم "نصاري" تيمناً بجده القديم، ثم رُزق ببنت أسماها جوهرة، ولم تستطع خليعة أن تعترض على هذا الاسم رغم غيرتها، وحبذت أن تدع زوجها يتوّهم أن كل شيء تمناه صار في منزله، وكان لسان حالها يقول أن تكون جوهرة الصغيرة ابنتي، أفضل من أن تصير جوهرة الكبيرة ضرتي. وأدركت أنها هي المرأة المقصودة في النبوءة.

أمست امرأة كادحة صقلها السجن، فباتت تمارس أعمال الفلاحات وربات البيوت، واستغلت مهارتها القديمة في التفاوض مع وكلاء أبيها، وصارت تتصيّد حقول الملاك الصغار المفلسين، حتى استطاعت أن تجعل من مهدي مالكاً جديداً بواسطة مالها ومصاغها. لكنها لم تعش باطمئنان تام،

بل ظلت مدة طويلة خائفة تترقب قدوم شقيقها علي أو أحد
أفراد عشيرتها للنيل منها بخناجرهم.